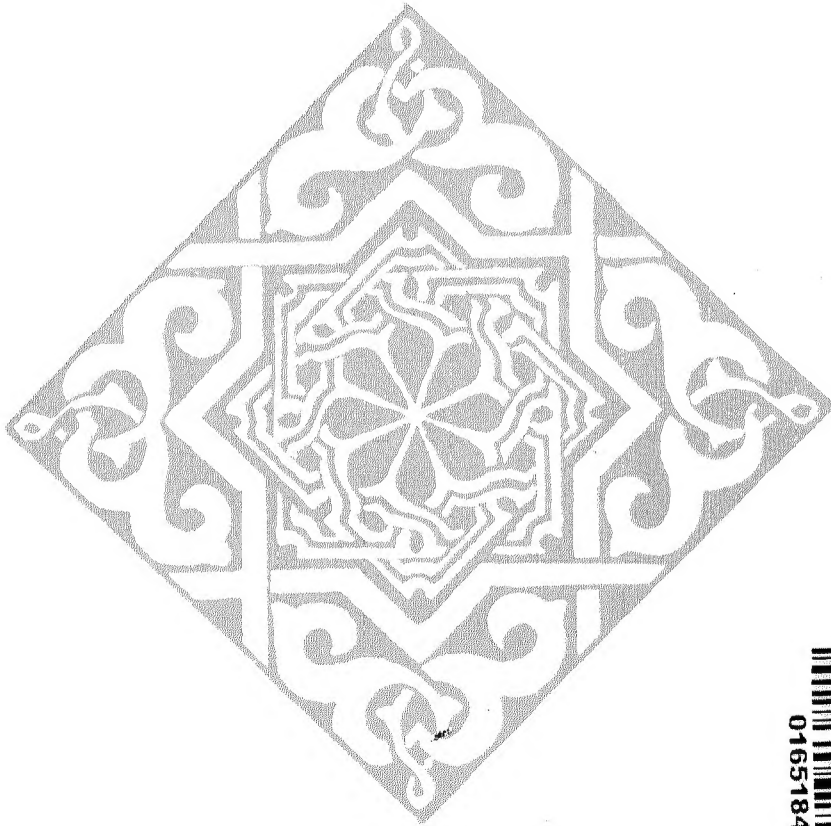


جمهورية مصر العربية
وزارة التربية والتعليم

خديجة بنت خويلد



الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والرسائل التعليمية
مقرن إطبوع محفوظة للوزارة
طبعة ١٩٨١ - ١٤٠١ هـ



اهداءات ٢٠٠١

لواء طبيبج / محمد الحميد سلطان
الإسكندرية



جمهورية مصر العربية
وزارة التربية والتعليم

خديجة بنت خويلد

للصنف الثاني
من المرحلة الإعدادية

للأستاذين

محمد عبد الغنى حسن

عبد السلام العشرى

حقوق الطبع محفوظة للوزارة

الجهاز المركزي للكتاب الجامعية والدرسية والوسائل التعليمية

طبعة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١)، ربحانة الدار

كَانَتْ دَارُ «خُوَيْلِدٍ» تَفِيضُ بِالْبَشَرِ وَالسُّرُورِ وَالْأُنْسِ ، لِأَنَّ ابْنَتَهُ «خَدِيجَةَ» كَانَتْ مِلءَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ . فَكَانَ كُلُّ مَنْ فِي الدَّارِ يُحِبُّهَا وَيَتَمَلَّقُ بِهَا ، حَتَّى الْجَوَارِي اللَّائِي وَجَدْنَ فِيهَا عَطْفًا وَحَنَانًا . فَكُنَّ يُسْرِعْنَ إِلَى تَلْبِيَةِ أَوَامِرِهَا . وَكُلُّ مِنْهُنَّ رَاضِيَةٌ النَّفْسِ مُرْتَاحَةٌ الْفُؤَادِ .

وَأَمَّا دَارُ «خُوَيْلِدٍ» فِي سَادَاتِ قُرَيْشٍ بِالْمَجْدِ وَالسِّيَادَةِ ، وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ . يُؤْخَذُ رَأْيُهُ ، وَلَا تُقْضَى الْأُمُورُ بِدُونِهِ . وَحَوْلَهُ أَسْرَتُهُ الْكَبِيرَةُ الْعَرِيقَةُ^(١) تُسَانِدُهُ .

وَأَمَّا دَارُ خُوَيْلِدٍ بِعَطْفِ كَبِيرٍ عَلَى الْمَسَاكِينِ ، وَرَحْمَةِ

(١) العريقة : ذات المجد الممتد الى اصول بعيدة .

بِالْفُقَرَاءِ ، فَكَانَتْ دَارُهُ مَثَابَةً^(١) لِلنَّاسِ ، يَسْجُدُونَ فِيهَا الظِّلَّ
وَالرَّحْمَةَ وَالْعَافِيَةَ .

وَفِي هَذِهِ الدَّارِ الْمِضْيَافَةِ ، الْكَرِيمَةِ الْوَاسِعَةِ الرَّحَابِ^(٢) ،
نَشَأَتْ الْفَتَاةُ خَدِيجَةُ سَمَحَةً كَرِيمَةً النَّفْسِ ، لَمْ يُبْطِرْهَا
الْغِنَى كَمَا يُبْطِرُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ . بَلْ أَحَسَّتْ أَنَّ هَذِهِ
النَّعْمَ الَّتِي تَمَرُّحُ فِيهَا ، وَتَرْتَعُ فِي خَيْرَاتِهَا يَجِبُ أَنْ تُقَابَلَ
بِالشُّكْرِ لِلَّهِ الَّذِي أَجْزَلَ^(٣) لَهَا وَلِأَهْلِهَا الْعَطَاءَ .

وَوَجَدَتْ فِي عَوْنِ الْمَخْرُومِينَ ، وَمُسَاعَدَةِ الْمُحْتَاجِينَ
مَا يَنْهَضُ بِشُكْرِ هَذِهِ النُّعْمَةِ . فَمَا رَدَّتْ سَائِلًا ، وَلَا خَيَّبَتْ
قَاصِدًا ، بَلْ كَانَتْ تَهْشُ^(٤) لِكُلِّ قَادِمٍ وَتَرْتَاخُ لِكُلِّ وَافِدٍ^(٥) ،
لَا تَضِيقُ بِمَنْ يَسْأَلُهَا ، وَلَا تَتَبَرَّمُ^(٦) بِمَنْ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَيْهَا .

وَلَمْ تَخْرُجْ خَدِيجَةً فِي ذَلِكَ عَمَّا انْحَدَرَ إِلَيْهَا مِنْ صِفَاتِ

(١) مَثَابَةٌ لِلنَّاسِ : مَكَانًا يَتَرَدَّدُونَ إِلَيْهِ وَيَجِدُونَ فِيهِ الْأَمَانَ .

(٢) الرَّحَابِ : جَمْعُ رَحْبَةٍ : السَّاحَةُ الْوَاسِعَةُ .

(٣) أَجْزَلَ لَهَا : أَعْطَاهَا كَثِيرًا .

(٤) تَهْشُ : تَبْتَسِمُ وَتُظْهِرُ الْفَرَحَ .

(٥) وَافِدٌ : مُقْبِلٌ .

(٦) لَا تَتَبَرَّمُ : لَا تُضْجِرُ .

أَهْلِيهَا وَقَوْمِهَا . وَخَاصَّةً أَبَاهَا الَّذِي كَانَ قَلْبُهُ يَفِيضُ بِالرَّحْمَةِ
وَالْعَنَانِ ، لِكُلِّ إِنْسَانٍ .

وَرَأَى أَبُوهَا «خُوَيْلِدٌ» فِيهَا كَثِيرًا مِنْ صِفَاتِهِ ، فَزَادَ حُبَّهُ
لَهَا وَسَرَّهُ قَلْبُهَا الْكَبِيرُ ، وَنَفْسُهَا الطَّيِّبَةُ ، كَمَا سَرَّهُ ذِكَاؤُهَا
الَلَّمَّاحُ^(١) ، وَعَزِيمَتُهَا الْمَاضِيَةُ^(٢) ، وَإِذْرَاكُهَا السَّرِيعُ ، وَحُسْنُ
تَصْرِيفِهَا لِلْأُمُورِ عَلَى وَجْهِ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النِّجَاحِ وَالتَّوْفِيقِ
وَالْقَبُولِ ، فَأَرَاهَا مِنْ قَلْبِهِ الرِّضَا الْكَثِيرَ ، وَأَظْهَرَ ارْتِيَا حُفَّ
النَّامِّ لِكُلِّ مَا كَانَتْ تَأْتِي وَمَا كَانَتْ تَدْعُ .

وَكَانَ إِذَا جَلَسَ فِي الْبَيْتِ ، وَتَابَعَ بِاهْتِمَامٍ وَجُودٍ نَشَاطِهَا ،
وَحِفَّةَ حَرَكَتِهَا ، وَمَا تُشِيعُهُ فِي جَوَانِبِ الْبَيْتِ مِنْ أَنْسٍ ،
وَبَهْجَةٍ ، ابْتَسَمَ ابْتِسَامَةَ الرِّضَا وَالسُّرُورِ ، ثُمَّ حَدَّثَ نَفْسَهُ
قَائِلًا :

— مَا أَظْلَمَ هَؤُلَاءِ اللَّيْدِينَ يَكْرَهُونَ الْبَنَاتِ ! وَمَا أَقْسَى
حُكْمَهُمْ عَلَيْهِنَّ ! أَلَيْسَ فِيهِنَّ مِثْلُ خَدِيجَةٍ ؟ ! إِنَّهَا رِيحَانَةُ
الدَّارِ ، وَبَهْجَةُ الْأُسْرَةِ ... !

(١) اللامح : السريع الفهم .

(٢) الماضية : النافذة .

ثُمَّ يَنْصَحِي أَبُوهَا فَيَذَعُوهَا إِلَيْهِ ، وَيُحَدِّثُهَا ، وَيَمْنَعُ نَفْسَهُ
بِحَدِيثِهَا إِلَيْهِ ، وَيَظْهَرُ الرِّضَا كَامِلًا فِي وَجْهِهِ ، وَقَدْ نَظَرَ إِلَى
وَجْهِهَا الْمُشْرِقِ وَقَوَامِهَا الْبَدِيعِ ، ثُمَّ يُتَابِعُ حَدِيثَهُ مَعَهَا .

وَكَانَ فِي الْفَتَاةِ حَيَاءٌ شَدِيدٌ يَمْنَعُ أَبَاهَا أَنْ يَحَدِّثَهَا عَنْ
أُمُورِ هَؤُلَاءِ الْفَتَيَانِ الَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ إِلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ لِيَحْطُبُوهَا ،
رَاغِبِينَ فِي زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ جَمَالٍ وَافِرٍ ، وَحَسَبٍ ^(١) ،
ظَاهِرٍ ، وَمَالٍ كَثِيرٍ .

وَقَدْ عَصَمَهَا ^(٢) حَيَاؤُهَا هِيَ أَيْضًا أَنْ تَهْتَمَّ بِأَمْرِ أَوْلَئِكَ
الشُّبَّانِ ، حِينَ يَصِلُ إِلَى مَسَامِعِهَا عَنْ طَرِيقِ الْجَوَارِي وَالْجَارَاتِ
وَالصُّوْنِحِيَّاتِ ، أَنَّهُمْ يَبْتَغُونَ إِلَى أَبِيهَا الْمُصَاهَرَةَ ^(٣) ،
وَيَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ مَالٍ ، وَمَا وَرَاءَهُمْ مِنْ حَسَبٍ
رَفِيعٍ ...

وَانْصَرَفَتْ خَلْدِيجَةُ إِلَى شُؤْنِ الْبَيْتِ وَتَذْيِيرِ أُمُورِهِ ، فَلَمْ

(١) حسب : شرف .

(٢) عصمها حياؤها : حفظها وحماها .

(٣) يبتغون المصاهرة : يطلبون الصلة بالزواج من خديجة .

تَشْغَلُ نَفْسَهَا بِالتَّفْكِيرِ فِي زَوْجٍ ، أَوْ الْإِهْتِمَامِ بِخَاطِبٍ .
وَإِثْمَةٌ أَنَّ أَبَاهَا سَيَّخْتَارُ لَهَا خَيْرَ الْأَزْوَاجِ .

وَمَا أَكْثَرَ مَا سَمِعْتُهُ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الزَّوْاجِ الطَّيِّبِ ،
الصَّالِحِ ، بِأَنَّهُ الْجَامِعُ لِخِلَالٍ^(١) الْخَيْرِ وَالْمَرْوَةِ وَالْكَرَمِ ،
فَلَا يَسْتَهْوِيهِ مَا يَسْتَهْوِي شَبَابَ مَكَّةَ وَكَثِيرًا مِنْ شُيُوخِهَا .
وَأَنَّهُ الذَّكِيُّ الْحَكِيمُ ، الَّذِي يَزِنُ الْأُمُورَ ، وَيُقَدِّرُ التَّبَعَاتِ^(٢)
وَيَحْمِلُ الْأَعْبَاءَ^(٣) ، وَلَا يَدْفَعُهُ الطُّيُشُ إِلَى مَا يُحَطِّمُ مَرَآكِزَ
الرُّجَالِ .

وَكَثِيرًا مَا أَكَّدَ أَبُوهَا أَنَّ عِلَاقَةَ الرَّجُلِ مَعَ النِّسَاءِ هِيَ
صُورَةٌ مِنْ عِلَاقَاتِهِ مَعَ أَهْلِ بَيْتِهِ ، فَالْكَرِيمُ الطَّيِّبُ هُوَ دَائِمًا
فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ سَوَاءً .

وَكَانَ مَسَاءً ، فَازْدَحَمَتْ دَارُ خُوَيْلِدٍ بِجَمَاعَةٍ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ ،
وَأَطَالُوا الزِّيَارَةَ ، وَأَخَذُوا بَيْنَهُمْ بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ إِلَى
مُنْتَهَى صَفْوِ اللَّيْلِ .

(١) لَخْلَالِ الْخَيْرِ : لصفات الخير .

(٢) بِقَدْرِ التَّبَعَاتِ : يدرك المسئوليات .

(٣) يَحْمِلُ الْأَعْبَاءَ : يتولى الأمور المهمة الثقيلة الحمل .

فَلَمَّا انْفَضَّ جَمْعُهُمْ ، وَانْصَرَفُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ ، ذَهَبَ خُوَيْلِدٌ
إِلَى حُجْرَتِهِ ، وَقَضَى فِيهَا فِتْرَةً مِنَ الْوَقْتِ يُحَادِثُ زَوْجَهُ
فَاطِمَةَ وَتُحَادِثُهُ ، ثُمَّ خَرَجَا وَقَدْ بَدَتْ عَلَى وَجْهِهِمَا عَلَامَاتُ
الرَّضَا وَأَمَارَاتُ الْإِزْتِيَّاحِ .

وَجَلَسَ خُوَيْلِدٌ فِي فِنَاءِ الدَّارِ ، عَلَى بَسَاطٍ وَثِيرٍ ^(١) قَدْ مَدَّ لَهُ ،
وَاتَّكَمًا عَلَى مُتَكَأٍ مِنَ الْحَرِيرِ الْمُطَرَّرِ ، وَجَلَسَتْ زَوْجَتُهُ بِجَانِبِهِ ،
ثُمَّ دَعَا إِلَيْهِ ابْنَتَهُ خَدِيدَجَةَ ، فَاسْرَعَتْ إِلَيْهِ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ،
وَوَقَفَتْ أَمَامَهُ فَارْعَةَ الْقَوَامِ ^(٢) ، وَهُوَ يَتَأَمَّلُهَا فِي ابْتِسَامٍ ، فَلَمْ
تَجْلِسْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَذِنَ لَهَا قَائِلًا :

— اقْعُدِي يَا خَدِيدَجَةُ ، سَأُنَحِّدُ إِلَيْكَ بِشْيْءٍ ، وَأَوْدُ أَنْ
أُعْرِفَ رَأْيَكَ الصَّرِيحَ فِيهِ ، فَاسْتَمِعِي إِلَيَّ وَفَكِّرِي فِي الْجَوَابِ .

(١) بساط وثير : غراش لين .

(٢) غارعة القوام : طويلة رشيقة .

— ٩ —

الأسئلة

(١)

« وفي هذه الدار المضيفة الكريمة الواسعة الرحاب ، نشأت الفتاة : (خديجة) سمحة كريمة النفس ، لم يبطرها الغنى كما يبطر كثيرا من الناس » .

(أ) هات مفرد (الرحاب) في جملة توضح معناها .

(ب) ما معنى : « لم يبطرها الغنى » ؟

(ج) بم وصف الكاتب الدار التي يتحدث عنها ؟ ولن كانت هذه الدار ؟ وما غرضه من وصفها ؟

(٢)

« ورأى أبوها « خويلد » فيها كثيرا من صفاته ، فزاد حبه لها ، وسره قلبها الكبير ، ونفسها الطيبة ، كما سره ذكاؤها اللامح ، وعزيمتها الماضية ، وإدراكها السريع ... » .

(أ) ما معنى : « اللامح - الماضية » ؟

(ب) ما الصفات التي جعلت « خويلد » يحب ابنته خديجة ؟

وما الذى سره منها ؟

(ج) ما اتصفت به السيدة : « خديجة » يجب أن يكون

قدوة لنا نستفيد منه في حياتنا . وضح .

٢، خبر سار

أَخَذَتْ نَظَرَاتُ خُوَيْلِدٍ تَنَجُّهُ إِلَى وَجْهِ خَدِيدَجَةَ ، وَإِلَى عَيْنَيْهَا النَّجْلَاوِينَ^(١) ، وَثَغَرَهَا الْبَاسِمُ ، ثُمَّ قَالَ فِي حَنَانٍ :

— مَا رَأَيْكَ يَا خَدِيدَجَةُ فِيمَا أَعْدَدْنَا لِقَافِلَةِ الشَّامِ ؟

وَتَلَقَّتْ الْفَتَاةُ السُّؤَالَ بِابْتِسَامَةٍ جَمِيلَةٍ ، كَشَفَتْ عَنْ أَسْنَانٍ كَاللُّؤْلُؤِ ، ثُمَّ قَالَتْ فِي أَدَبٍ :

— قَافِلَةٌ مُوقِفَةٌ ، وَتِجَارَةٌ رَائِجَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَنْ تَبُورَ^(٢) ، فَقَدْ حَوَتْ مَا أَوْصَى بِهِ عُمَلَاؤُنَا ، مِنْ كُلِّ سَلْعَةٍ تَجِدُ لَهَا فِي تِلْكَ الْبِلَادِ رَوَاجًا ، وَقَدْ أُعِدَّتْ أَحْسَنَ إِعْدَادٍ ، وَنُظِّمَتْ خَيْرَ تَنْظِيمٍ .

قَالَ خُوَيْلِدٌ وَابْتِسَامَتُهُ تَزْدَادُ اتِّسَاعًا فَوْقَ شَفَتَيْهِ :

(١) النجلاوين : الواسعتين .

(٢) لن تبور : لن تكسد .

— مَا رَأَيْكَ يَا خَدِيجَةُ فِي رَجَالِنَا وَعُمَالِنَا الَّذِينَ سَنَبَعْتُهُمْ
مَعَ الْقَافِلَةِ ؟

— قَالَتِ الْفَتَاةُ ، وَقَدْ بَدَتْ عَلَى وَجْهِهَا بَعْضُ مَلَايِحِ الْعَجِيرَةِ :
— إِنَّهُمْ مَا هِرُونَ ، يَعْرِفُونَ مَا يَأْخُذُونَ وَمَا يَدْعُونَ (٢) ،
وَهُمْ مَعَ تِلْكَ الْمَهَارَةِ أَمْنَاءُ مُخْلِصُونَ .

فَنَظَرَ خُوَيْلِدٌ إِلَى فَاطِمَةَ ، ثُمَّ أَعَادَ النَّظَرَ إِلَى خَدِيجَةَ ، وَقَالَ
فِي رَفْقٍ :

— وَمَا رَأَيْكَ يَا خَدِيجَةُ فِي أَمْهِرِ تُجَّارِ مَكَّةَ الْيَوْمَ ؟ وَمَنْ
فِي نَظْرِكَ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الرِّبْحِ ؟

فَفَسَّكَرَتِ الْفَتَاةُ قَلِيلًا ، ثُمَّ سَأَلَتْ فِي أَدَبٍ :

— أَيُّ رِبْحٍ تَعْنِي ؟ الرِّبْحَ الْحَلَالَ أَمْ الرِّبْحَ الْحَرَامَ ؟

قَالَ خُوَيْلِدٌ بِاسْمًا :

— الرِّبْحَ الْحَلَالَ طَبْعًا يَا خَدِيجَةُ ! فَالرِّبْحُ الْحَرَامُ لَا يَدُومُ ،
إِنْ رِبْحَ صَاحِبِهِ مَرَّةً فَلَنْ يَرِبْحَ أُخْرَى ، وَلَنْ يَنْفَعَهُ مَا رِبْحَ ،

(١) وما يدعون : وما يتركون .

بَلْ يُسَلِّطُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا يُضِيعُهُ جَمِيعًا ، إِنَّمَا أَسْأَلُكَ عَنِ الْمَهْرَةِ
فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ الْحَلَالِ .

وَأَخَذَتِ الْفَتَاةُ تَعُدُّ بَعْضًا مِنْ تُجَارٍ مَكَّةَ الَّذِينَ اشْتَهَرُوا
بِالصَّدَقِ ، وَغَرِفُوا بِالْأَمَانَةِ ، وَكُلَّمَا سَكَتَتْ اسْتَزَادَهَا حَتَّى
صَمَمَتْ فَنَظَرَ إِلَى أُمِّهَا ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهَا ، وَقَالَ مُتَرَفِّقًا فِي
السُّؤَالِ :

- وَمَا رَأَيْتُكَ يَا خَدِيجَةُ فِي عَتِيقِ بَنِي عَابِدٍ ؟ !

قَالَتْ فِي جِدٍّ :

- هُوَ مِثْلُ بَنِي مَخْزُومٍ ، مَاهِرٌ فِي التَّجَارَةِ ، خَيْرٌ بِطُرُقِ
الرُّبْعِ وَقَدْ ذَاقَ حَلَاوَةَ الْغِنَى ، فَدَفَعَهُ إِلَى أَنْ يَزِيدَ .
فَاسْرَعَ خُوَيْلِدٌ سَائِلًا :

- مِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ ؟

فَأَجَابَتْ الْفَتَاةُ جَوَابَ الْمُقْتَنِعِ بِحَقِيقَةٍ يَعْرِفُهَا :

- أَشْهَدُ أَنَّهُ اشْتَهَرَ بِالْحَلَالِ ، فَلَا يَقْرَبُ الْمَالَ الْحَرَامَ .
وَقَوْفَ ذَلِكَ اشْتَهَرَ بِأَنَّهُ شَجَاعٌ كَرِيمٌ ! وَإِنِّي لَأَعْرِفُهُ عَزِيزًا
فِي أَهْلِهِ ، مُحَبُّوبًا مِنْ ذَوِيهِ ، وَمِنْ غَيْرِ ذَوِيهِ .

وَسَكَتَتِ الْفَتَاةُ لَحِظَةً ، ثُمَّ تَابَعَتْ فِي دَهْشَةٍ :

— أَتَوَدُّ أَنْ تَكِلَ إِلَيْهِ أَمْرَ تِجَارَتِنَا فِي الْقَافِلَةِ هَذِهِ الْمَرَّةَ ؟

فَنَظَرَ إِلَيْهَا خَوِيلِدٌ مِنْ فَرْعِهَا^(١) إِلَى قَدَمِهَا ، ثُمَّ قَالَ فِي حَنَانٍ :

— أَوَدُّ أَنْ أَكِلَ إِلَيْهِ أَمْرًا أَعْظَمَ مِنَ التِّجَارَةِ ، وَأَعْلَى مِنَ الْمَالِ ! أَوَدُّ أَنْ أَسْلِمَهُ أَمَانَةً كَبِيرَةً لَا تُقَدَّرُ بِمَالٍ !

وَهُنَا ذَهَبَتْ أَفْكَارُ الْفَتَاةِ كُلِّ مَذْهَبٍ^(٢) ، وَتَذَكَّرَتْ ضُيُوفَ اللَّيْلِ وَحَدِيثَ أَبِيهَا وَأُمِّهَا ، وَسَهْرَهُمَا إِلَى سَاعَةِ مُتَأَخِّرَةٍ ، فَأَذْرَجَتْ مَا يَرْمِي إِلَيْهِ أَبُوهَا مِنْ حِوَارِهِ ، فَاحْمَرَّ وَجْهُهَا خَجَلًا ، وَأَطْرَقَتْ سَاكِنَةً ، لَا تَتَحَدَّثُ وَلَا تُجِيبُ .

وَقَطَعَتْ أُمُّهَا ذَلِكَ السُّكُونَ ، قَائِلَةً فِي بَسْمَةٍ لَطِيفَةٍ :

— مِمَّا رَأَيْتُكَ يَا خَدِيجَةُ فِي عَتِيقِي ؟

فَارْدَادَ وَجْهَ الْفَتَاةِ احْمِرَارًا ، وَظَلَّتْ مُطْرِقَةً وَاجِمَةً^(٣) ثُمَّ

(١) من فرعها : من شعرها .

(٢) كل مذهب : كل اتجاه .

(٣) واجمة : ممسكة عن الكلام .

جَمَعَتْ أَطْرَافَ شَجَاعَتِهَا ، وَحَاوَلَتْ أَنْ تَتَكَلَّمَ ، فَتَعَثَّرَتْ
الْكَلِمَاتُ فِي فَمِهَا ، وَأَبُوهَا وَأُمُّهَا يَنْظُرَانِ إِلَيْهَا ، وَيَنْتَظِرَانِ
مِنْهَا الْجَوَابَ .

وَمَضَتْ فِتْرَةٌ طَوِيلَةٌ ، وَالْفَتَاةُ فِي صَمْتِهَا ، فَلَمَّا أَعَادَ أَبُوهَا
عَلَيْهَا السُّؤَالَ جَمَعَتْ أَطْرَافَ شَجَاعَتِهَا مَرَّةً أُخْرَى ، ثُمَّ قَالَتْ
فِي صَوْتٍ خَفِيفٍ يُجَلِّلُهُ^(١) الْحَيَاءُ :

— وَهَلْ بَعْدَ رَأْيِ أَبِي مِنْ رَأْيِ ؟ !

فَأَذَانَهَا أَبُوهَا مِنْهُ ، وَطَمَعَ قُبْلَةً حَانِيَةً عَلَى جَبِينِهَا وَخَدَيْهَا ،
وَقَالَ فِي حَنَانٍ :

— أَنْتِ تَسْتَحِقِّينَ عَتِيقًا ، وَعَتِيقٌ يَسْتَحِقُّكِ ، وَاللَّهُ يَصْنَعُ
الْخَيْرَ وَيَجْمَعُ الطَّيِّبِينَ لِلطَّيِّبَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتِ لِلطَّيِّبِينَ ، وَقَدْ
اخْتَرْتُ لَكَ بَعْدَ مَا اخْتَارَ اللَّهُ ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَخْتَارَ بَعْدَ
ذَلِكَ ، فَأَرْجُو أَنْ يُبَارِكَ اللَّهُ هَذَا الرِّبَاطَ ، وَأَنْ يَكُونَ عَتِيقٌ
عِنْدَ ظَنِّي ، وَسَوْفَ يَكُونُ بِإِذْنِ اللَّهِ .

(١) يجعله الحياء : يزيده عظمة وتأثرا .

ثُمَّ أَذْنَتْهَا أُمُّهَا ، وَقَبَّلَتْهَا فِي وَجْهِهَا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ،
ثُمَّ الدَّخَلَتْ إِلَى زَوْجِهَا خُوَيْلِدٍ ، وَقَالَتْ فِي اهْتِمَامٍ :

- لَكِنَّا لَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ يَزُفَهَا سَرِيعًا كَمَا يُرِيدُ عَتِيقٌ ،
فَلَا بُدَّ مِنْ سَعَةٍ مِنَ الْوَقْتِ نَعِدُّ لَهَا أَثَاثَهَا ، وَنُهَيِّئُ لَهَا جِهَازَهَا
كَمَا تُجَهِّزُ مَشِيلَاتُهَا ...

فَأَجَابَ خُوَيْلِدٌ فِي رِفْقٍ :

- سَأَحَاوِلُ إِقْنَاعَهُ بِالْتَّمَهُلِ شَهْرًا أَوْ شَهْرَيْنِ ، حَتَّى تَعُودَ
الْقَوَافِلُ بِمَا نُرِيدُ لِيَجْهَازَهَا مِنَ الِیَمَنِ وَالشَّامِ ، وَمَعَاظِنُنَا
مَمْلُوءَةً يَا فَاطِمَةُ ، فَأَشِيرِي بِمَا تُرِيدِينَ وَمَا تَتَخَيَّرِينَ ، فَكُلُّ
ثَرُونِنَا مَبْدُولَةٌ لِخَدِيجَةَ .

ثُمَّ تَابَعَ الْكَلَامَ ضَاحِكًا :

- لَكِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ تَأْخِيرَهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ !

فَضَحِكَتْ فَاطِمَةُ ، وَتَوَرَّدَتْ وَجَنَّتَا الْفَتَاةِ ... ثُمَّ قَامَ كُلُّ
مِنْهُمْ وَأَوَى إِلَى فِرَاشِهِ ، يُفَكِّرُ الْأَبْوَانِ فِي مُسْتَقْبَلِ قَتَاتِهِمَا ،
وَمَا هِيَ مُقْبِلَةٌ عَلَيْهِ مِنْ حَيَاةٍ حَدِيدَةٍ ، فِي غَيْرِ الْبَيْتِ اللَّيْلِ

— ١٦ —

أَلِفْتَهُ^(١) ، وَالْعُشَّ الَّذِي دَرَجَتْ فِيهِ ، وَتُفَكِّرُ الْفَتَاةُ فِي
الشَّرِيكِ الَّذِي سَيُقَاسِمُهَا هَذِهِ الْحَيَاةَ .

* * *

الأسئلة

(١)

ما مضمون الحوار الذى دار بين : «خويلد» وابنته
نخديجة ؟ وماذا كان يقصد من وراء هذا الحوار ؟

(٢)

«الربح الحرام لا يلدوم ، إن ربح صاحبه مرة فلن يربح
أخرى ، ولن ينفعه ما ربح بل يسلط الله عليه ما يضيعه
جميعا .

(أ) ما دلالة التعبير بكلمة (يسلط) التى فى العبارة ؟

(ب) ما مضمون العبارة السابقة ؟ وما الدرس المستفاد

منها ؟

(١) ألفته : اعتادت عليه .

— ١٧ —

(ج) ما دلالتها على شخصية قائلها ؟ ولماذا ؟

(٣)

«لن نستطيع أن نزفها سريعا كما يريد «عتيق» فلا بد من سعة من الوقت ، نعد لها أثاثها ، ونهيء لها جهازها ، كما تجهز مشيالاتها» .

(ا) ما المقصود من «سعة من الوقت» ؟

(ب) أترى فرقا بين إعداد الأثاث ، وتهيئة الجهاز ؟
وضح .

(ج) بِمَ يوحى التعبير بقوله : « كما تجهز مشيالاتها »
ولماذا ؟

* * *

٣٠٠ عروس قرشي

عَادَتْ الْقَوَافِلُ إِلَى مَكَّةَ تَحْمِلُ أَلْوَانَ السَّلْعِ ، مِنْ الطَّعَامِ ،
وَالْفَاكِهَةِ ، وَالطَّيِّبِ ، وَالشَّيَابِ ، وَالْحُلِيِّ ، وَغَيْرَهَا ، وَمِنْ
بَيْنِهَا تِجَارَةُ خُوَيْلِدٍ ، وَتِجَارَةُ عَتِيقٍ .

وَكَانَ أَفْعَرُ مَا فِيهَا تِلْكَ الْمَلَابِيسُ الزَّاهِيَةُ ، وَالْأَوَانِي
الْبَدِيدَةُ ، وَالطَّنَافِيسُ ^(١) الْعَجِيبَةُ ، وَالْأَبْسَطَةُ الْفَارِسِيَّةُ الشَّيْمَةُ ،
وَالْأَوَانُ الطَّيِّبُ وَالْفِرَاشُ ، الَّتِي أَوْصَى بِهَا خُوَيْلِدٌ لِتُحْمَلَ مَعَ
خَدِيجَةَ إِلَى مَنْزِلِ عَتِيقٍ ، وَمَا أَوْصَى بِهِ عَتِيقٌ لِيُبْعَثَهُ هَدِيَّةً
إِلَى عَرُوسِهِ .

وَكَانَتْ مَكَّةُ كُلُّهَا تَنْتَظِرُ لَيْلَةَ الزَّفَافِ ، يَنْتَظِرُهَا الْفُقَرَاءُ
وَيَسْتَعْجِلُونَهَا طَمَعًا فِيمَا سَيُذْبَحُ فِيهَا مِنَ الذَّبَائِحِ السَّيْمَةِ ،
وَمَا سَيَنَالُونَ مِنَ اللَّحُومِ مَطْهُوَةٍ ^(٢) وَغَيْرِ مَطْهُوَةٍ .

(١) الطَّنَافِيسُ : الشَّيَابُ وَالْبَسُطُ .

(٢) مَطْهُوَةٌ : مَطْبُوخَةٌ .

وَيَنْتَظِرُهَا الشَّبَابُ الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِالسُّيُوفِ فِي السَّائِرِ ،
وَيُظْهِرُونَ أَلْوَانَ فُرُوسِهِمْ ، وَضُرُوبَ^(١) قُدَرَتِهِمْ وَمَهَارَتِهِمْ ،
وَأَفْنَانِيهِمْ فِي الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ ، وَالْكَرِّ^(٢) وَالْفَرِّ^(٣) ، وَيَنَالُونَ
مِنَ الشَّرَابِ وَالسَّمْرِ مَا اعتادوه في مثلي تلك اللَّيَالِي الَّتِي يُقِيمُهَا
أَغْنِيَاءُ مَكَّةَ احتفالاً بِزَوَاجِ أبنائِهِمْ وَبنَاتِهِمْ ، وَإِعْلَانًا
لِأَفْرَاحِهِمْ وَمَسَرَّاتِهِمْ .

وَيَنْتَظِرُهَا الشُّيُوخُ الَّذِينَ لَا يَحْرُمُونَ أَنْفُسَهُمْ مِمَّا يَنَالُهُ
الشَّبَابُ فِي مثلي تلك اللَّيَالِي ، وَلِيَقْضُوا وَاجِبًا لِحُؤَيْلِدٍ ،
وَيَرُدُّوا لَهُ مُمَجِّمَاتَهُ إِيَّاهُمْ فِي أَمْثَالِ تِلْكَ الْمُنَاسَبَةِ .

كَمَا يَنْتَظِرُهَا غَيْرُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنَ الْحَاقِدِينَ عَلَى عَتِيقِي ،
لِفُوزِهِ بِخَيْدِيَجَةَ ، لِيُظْهِرُوا لِلنَّاسِ أَنَّ نَفُوسَهُمْ صَافِيَةٌ لَمْ
يَدْخُلْهَا شَيْءٌ ، وَإِنْ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ تَكَادُ تَحْتَرِقُ .

وَكَمَا يَنْتَظِرُهَا الرِّجَالُ يَنْتَظِرُهَا النِّسَاءُ ، نَعِدُ كُلَّ وَاحِدَةٍ

(١) ضروب : انواع .

(٢) الكر : الرجوع الى القتال .

(٣) الفر : انعطاف الفارس ليكر على العدو .

مِنْهُمْ أَفْخَرَ ثِيَابِهَا ، وَأَجْمَلَ زِينَتِهَا ، لِيَتَبَدَّوْا فِي وَسْطِ النِّسَاءِ
بِمَظْهَرٍ يَلِيْقُ بِمَنْزِلَتِهَا وَغِنَاهَا .

وَأُخْرَيَاتٌ يَنْتَظِرْنَهَا لِيُوفِّينَ^(١) فَاطِمَةَ أُمَّ خَدِيجَةَ مَا عَلَيْهِنَّ
مِنَ الدِّينِ لَهَا ، لِأَنَّهَا لَمْ تَفُتَّهَا مُنَاسَبَةً إِلَّا شَارَكَتْ فِيهَا ؛
تُهَيِّئُهُنَّ فِي أَفْرَاحِهِنَّ ، وَتُهَيِّدِي إِلَيْهِنَّ ، وَتُوَاسِيهِنَّ فِي أَحْزَانِهِنَّ ،
وَتُسَاعِدُهُنَّ .

تُفَكِّرُ كُلُّ مِنْهُنَّ فِي هَدِيَّةٍ ثَمِينَةٍ تُهَيِّئُهَا إِلَى الْعُرُوسِ ، كَمَا
أَهْدَتْ أُمُّهَا لِبَنَاتِهِنَّ ، وَكَمَا أَهْدَتْ إِلَيْهِنَّ .

وَمَعَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ خَدَمُ الْكَعْبَةِ ، الَّذِينَ يَنَالُهُمْ خَيْرٌ كَثِيرٌ
عِنْدَ زَوَاجِ الْأَغْنِيَاءِ ، وَقَدْ أَخَذُوا يُعِدُّونَ الْكَعْبَةَ لِتِلْكَ اللَّيْلَةِ ،
الَّتِي سَيَبَارِكُ فِيهَا إِلَهُ زَوَاجِ بَنِي مَخْزُومَ وَبَنِي أَسَدٍ ، وَتُنْشَرُ
عَلَيْهِمُ الْهَبَاتُ وَالْعَطَايَا ، وَتَفِيضُ عَلَيْهِمُ أَيْدِي أَوْلِيَّكَ
الْأَثْرِيَاءِ ، فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ السَّعِيدَةِ .

أَمَّا فَاطِمَةُ أُمُّ خَدِيجَةَ ، فَكَانَتْ فِي شُغْلِ بِإِعْدَادِ الْجِهَازِ ،
وَتَرْتِيبِ مَا يَجِبُ فِي لَيْلَةِ الزَّوَافِ ، تُفَكِّرُ فِي الصَّغِيرَةِ .

(١) ليوفين : يسددن .

وَالْكَبِيرَةَ ، وَتَرْسُمُ فِي ذَهْنِهَا عُنْشَ ابْنَتِهَا الْجَدِيدَةِ . وَمَا يَلْبِقُ بِهِ ،
وَمَا يُنَاسِبُ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ الثَّرِيَّ ، وَتُطِيلُ التَّفْكِيرَ ، حَتَّى
لَا يَفُوتَهَا شَيْءٌ ، فَيَتَحَدَّثَ بَعْضُ النَّاسِ بِأَنَّ جِهَازَ خَدِيجَةَ
كَانَ أَقَلَّ مِنْ جِهَازِ وَاحِدَةٍ مِنْ مَثِيلَاتِهَا .

وَخَدِيجَةُ تُفَكِّرُ فِي حَيَاتِهَا الْجَدِيدَةِ ، وَفِيهَا سَيُلْقَى عَلَى
عَاتِقِهَا^(١) مِنْ وَاجِبَاتٍ وَأَعْبَاءَ ، وَفِيهَا يَضْمَنُ لَهَا السَّعَادَةُ ،
وَيُجَنِّبُهَا^(٢) مَا يَقَعُ فِيهِ بَعْضُ الزَّوْجَاتِ اللَّائِي لَمْ يُوفَّقْنَ ،
تَدْرُسُ أَخْطَاءَهُنَّ ، وَتَسْتَخْرِجُ الْعِظَةَ مِنْهَا ، وَتَرْسُمُ الطَّرِيقَ
الْمُسْتَقِيمَ .

أَمَّا جَوَارِيهَا فَقَدْ اشْتَدَّ فَرَحُهُنَّ لِسَيِّدَتِيهِنَّ ، فَكُنَّ يَذْهَبْنَ
وَيَجِئْنَ مُفْنِيَاتٍ ، قَدْ حَلَا لِكُلِّ مِنْهُنَّ أَنْ تُرْتَّلَ أُغْنِيَةُ السَّعَادَةِ
يَلْعَنُهَا الَّتِي نَشَأَتْ عَلَيْهَا ، فَانْبَعَثَ فِي الدَّارِ أَلْوَانٌ مِنَ الْأَصْوَاتِ
وَأَشْكَالٌ مِنَ اللَّهَجَاتِ ، زَادَتْ السُّرُورَ وَالْبَهْجَةَ .

وَكُلَّمَا اقْتَرَبَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ مِنْ خَدِيجَةَ ، رَفَعَتْ صَوْتَهَا

(١) عَلَى عَاتِقِهَا : عَلَى كَتِفِهَا ، وَالْمُرَادُ تَحْمِلُ الْمَسْئُولِيَّةَ .

(٢) وَيُجَنِّبُهَا : وَيُبْعِدُ عَنْهَا .

بِأَغْنِيَّتِهَا ، فَرِحَتْ لِسَيِّدَتِهَا الَّتِي أَحَبَّتْهَا ، كُلُّ مِنْهُنَّ تَوَدُّ لَوْ
اخْتَارَتْهَا خَدِيجَةُ ، فَانْتَقَلَتْ مَعَهَا إِلَى بَيْتِهَا الْجَدِيدِ .

وَخَدِيجَةُ تَقَلَّبُ بِصَرِّهَا فِي دَارِ أَبِيهَا الْفَسِيحَةِ ، وَتُطِيلُ
النَّظَرَ فِي كُلِّ جَانِبٍ مِنْهَا ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ خِيَالُهَا إِلَى ذَلِكَ الْبَيْتِ
الْجَدِيدِ الَّذِي لَمْ تَعْرِفْهُ ، وَالْقَرِينَ^(١) الْجَدِيدِ الَّذِي لَمْ تَأْلَفْهُ ،
فَيَزْدَادُ قَلْبُهَا إِشْفَاقًا ، ثُمَّ تُشْجِعُ نَفْسُهَا ، وَتَدْفَعُ مَخَافَهَا ،
وَتَهْجِسُ إِلَى نَفْسِهَا هَمًّا تَسْمَعُهُ أَذْنَاها :

- مَا لِي خَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ ، وَالْمُسْتَقْبَلُ بِيَدِ اللَّهِ ! وَمَاذَا
يُطْلَبُ مِنِّي ؟ !

إِنَّ الزَّوْاجَ تَعَاوُنٌ بَيْنَ الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ ، وَسَوْفَ أَتَعَاوَنُ مَعَ
زَوْجِي .

سَأَكُونُ لَهُ عَبْدَةً ، فَأَجْعَلُهُ بِخُضُوعِي لَهُ عَبْدًا لِي !
سَأَحْرِصُ عَلَى رِضَاهُ . وَأَحْفَظُهُ فِي مَالِهِ وَأَهْلِهِ .
وَتَصُمْتُ قَلِيلًا ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَى حَدِيثِ نَفْسِهَا ، قَائِلَةً فِي
عَزْمٍ وَقُوَّةٍ :

(١) القرين : الزوج .

— وَلِمَآذَا أَخَافُ ؟ !

أَلَمْ أُدْرَبْ فِي بَيْتِ أَبِي عَلَى أَعْمَالِ الْبَيْتِ وَلِمَآدَرْتِهِ ؟ !
فَسَوْفَ أُدِيرُ بِمَا تَعَلَّمْتُ بَيْتَ زَوْجِي .

إِنْ لِي عَمَلًا ، وَلِمَآذَا كَأَ ، وَفَهْمًا ، فَلِمَآذَا أُغْضِبُ زَوْجِي ؟ !
لِمَآذَا أَخْلَقْتُ لَهُ الْمَشْكِلَاتِ ، وَأَنْغَضُ^(١) عَلَيْهِ عَيْشَهُ ؟ !

ثُمَّ تَسْتَعْرِضُ حَيَاةَ كَثِيرٍ مِنَ الْفَتَيَاتِ اللَّائِي لَمْ يُوفَّقْنَ فِي
زَوَاجِهِنَّ ، وَتَجْعَلُ اللَّوْمَ عَلَيْهِنَّ ، لِأَنَّهُنَّ لَمْ يَسْتَطِعْنَ أَنْ يُرْحَنَ
أَزْوَاجُهُنَّ ، وَلَمْ يَعْرِفْنَ لِمَآذَا تَزَوَّجْنَ .

تَسْتَعْرِضُ ذَلِكَ كُلَّهُ فَتَرْضَى عَنْ نَفْسِهَا وَعَنْ الْمُسْتَقْبَلِ ،
وَعَنْ الزَّفَافِ اللَّيْلِ يَقْتَرِبُ .

وَأَمَّا لَا تَتْرُكُ فُرْصَةً إِلَّا حَدَّثَتْهَا عَنْ وَاجِبَاتِ الزَّوْجِيَّةِ ،
وَعَلَّمَتْهَا مَا يَجِبُ أَنْ تَأْخُذَ ، وَمَا يَجِبُ أَنْ تَتْرُكَ ، وَجَعَلَتْ

(١) أَنْغَضَ : أَكْدَرَ .

هَذِهِ الْأَيَّامَ مَدْرَسَةً ، جَمَعَتْ فِيهَا كُلَّ مَا يُقَالُ لِلْفَتَاةِ مِنْ
دُرُوسٍ تُبَصِّرُهَا بِمُسْتَقْبَلِهَا ، وَتُضَيِّئُ أَمَامَهَا طَرِيقَهَا ، فَوْقَ
مَا عَلَّمَتْهَا مِنْ قَبْلُ .

فَتَزْدَادُ خَدِيجَةُ رَاحَةً نَفْسٍ ، وَاطْمِئْنَانًا فُؤَادٍ ، لِأَنَّ مَا تَقُولُهُ
أُمُّهَا هُوَ مَا عَزَمَتْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَأَتْ أَنْ تَأْخُذَ بِهِ ، وَمَا رَسَمَتْهُ
لِنَفْسِهَا حِينَ رَسَمَتْ مُسْتَقْبَلَهَا وَحَيَاتَهَا الْعَجِيدَةَ .

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الزَّوَافِ ، اِمْتَلَأَتْ دَارُ خُوَيْلِدٍ بِالْقَرِيبَاتِ
وَالصَّاحِبَاتِ ، وَجَاءَتْ نِسْوَةُ بَنِي مَخْزُومٍ يَحْمِلُنَ الْهَدَايَا الْغَالِيَةَ
الَّتِي بَعَثَهَا عَتِيقٌ ، وَجَاءَتْ نِسْوَةُ قُرَيْشٍ بِمَا جَهَّزْنَ مِنْ
هَدَايَا ثَمِينَةٍ .

وَنُحِرَتْ الذَّبَائِحُ وَدُعِيَتْ مَكَّةُ لِلدَّوْلَائِمِ ^(١) الَّتِي سَتُمَدُّ فِي
بَيْتِ خُوَيْلِدٍ ، وَأَنْبَعَثَ مِنَ الْبَيْتِ الْغِنَاءُ الرَّقِيقُ ، وَأَخَذَتْ
الْمَاشِطَاتُ ^(٢) يُزِينَنَّ الْعُرُوسَ ، وَيُضَفِّينَ ^(٣) جَمَالًا عَلَى جَمَالِهَا .

(١) الدَّوْلَائِمُ : جَمْعٌ وَلِيْمَةٌ طَعَامُ الْعُرْسِ .

(٢) الْمَاشِطَاتُ : اللَّاتِي تَزِينُ الْعُرُوسَ .

(٣) يَضَفِّينَ : يَضْفَنُ .

كَانَ الْيَوْمَ جَمِيلًا ، رَقِيقَ النَّسِيمِ ، فَضَتْهُ مَكَّةُ كُلُّهَا فِي
حَرَكَةٍ دَائِمَةٍ ، مِنْ بَيْتِ خُوَيْلِدٍ وَإِلَيْهِ ، حَتَّى أَقْبَلَ الْمَسَاءَ ،
فَعَقِدَ الْعَقْدَ بِجَانِبِ الْكَعْبَةِ ، ثُمَّ طَافَ النَّاسُ حَوْلَهَا شَاكِرِينَ
دَاعِينَ ، وَأَنْطَلَقَتِ الزَّغَارِيدُ مِنْ بَيْتِ خُوَيْلِدٍ ، تَتَجَاوَبُ^(١) فِي
جَوَانِبِ مَكَّةَ ، تُفْرِحُ الْأَهْلَ وَالْأَحْبَابَ .

وَلَمَّا طَعِمُوا مَا لَدَّ وَطَابَ ، انْتَقَلُوا إِلَى السَّائِرِ ، وَاسْتَدَارُوا
فِي حَلَقَةٍ كَبِيرَةٍ تَصَدَّرَهَا رُؤَسَاءُ مَكَّةَ ، وَنَزَلَ فِي وَسْطِهَا
الْأَبْطَالُ ، وَدَارَ بَعْضُهُمْ خَلْفَ بَعْضٍ ، وَكُرُوا ، وَقُرُوا ،
وَوَكَّبُوا ، وَضَرْبُوا ، وَأَنْقَوْا الضَّرَبَاتِ .

وَهَتَفَ النَّاسُ لِلْمُنْتَصِرِينَ وَصَفَّقُوا لَهُمْ ، وَوَقَفَ الْمَهْزُومُونَ
يُجْفِفُونَ عَرَقَهُمْ ، وَيَهْزُونَ سُيُوفَهُمْ ، وَيَرُدُّونَ بِأَعْيُنِهِمْ عَلَى
نَظَرَاتِ الْمُشْفِقِينَ عَلَيْهِمْ ، وَيَسْتَعِدُّونَ لِلْجَوْلَةِ الثَّانِيَةِ فِي
قُوَّةٍ ، عَازِمِينَ عَلَى مَحْوِ مَا لَحِقَهُمْ مِنْ عَارِ الْهَزِيمَةِ ...

(١) تتجاوب : يتردد صداها .

— ٢٦ —

«الأسئلة»

(١)

وكانت مكة كلها تنتظر ليلة الزفاف ، ينتظرها الفقراء
ويستعجلونها ...

وينتظرها الشباب الذين يلعبون بالسيوف في السامر ...
وينتظرها الشيوخ الذين لا يحرمون أنفسهم مما يناله
الشباب في مثل تلك الليالي ...

(١) كيف كان يقيم العرب أعيادهم في الزواج قبل
الإسلام ؟

(ب) لماذا كان ينتظر ليلة زفاف (خديجة) إلى زوجها
(عتيق)

كُلُّ من : « الفقراء - الشباب - الشيوخ » .
(ج) هناك طوائف أخرى كانت تنتظر ليلة الزفاف .
اذكر طائفتين منها ، وبين سبب انتظارها .

(٢)

اتخذت أم (خديجة) كل الفرص لتهيء بنتها إلى حياتها
الزوجية .

— ٢٧ —

وضح ذلك . وبين دلالاته على واجب الأم نحو بنتها .

(٣)

وفي المساء عقد العقد بجانب الكعبة ، ثم طاف الناس
حولها شاكرين داعين ، وانطلقت الزغاريد من بيت خويلد ،
تتجاوب في جوانب مكة ، تفرح الأهل والأحباب ..

(١) ما معنى : «تتجاوب في جوانب مكة» ؟

(ب) كان العرب في الجاهلية يعظمون (مكة) فما مظهر
ذلك ؟

(ج) وكانوا يهتمون بالصلاة والمشاركة الاجتماعية ؛
فوضح ذلك .

* * *



الجمع بجوار الكعبة الشريفة

(٤) راهب مكة

انْبَعَثَتِ الضُّحَكَاتُ عَالِيَاتٍ ، وَحَرَّكَتْ أَصْوَاتُ الْمُغَنِّيَاتِ
الْقُلُوبَ ، وَشَارَكَ الْجَمِيعُ فِي هَذِهِ الْفَرَحَةِ ، سِوَى رَجُلٍ كَانَ
جَالِسًا فِي صَمْتٍ يَنْظُرُ إِلَى هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ، يُدْعَى إِلَى الشَّرَابِ
فَلَا يَسْتَجِيبُ ، وَيُوجَّهُ إِلَى الْغِنَاءِ وَالرَّقْصِ فَيَصُدُّ عَنِ النَّظَرِ
وَعَنِ السَّمْعِ ، حَتَّى صَاحَ بِهِ خُوَيْلِدٌ :

- هَذِهِ لَيْلَةُ سُرُورٍ يَا «وَرَقَّةُ» فَافْرَحِي لِفَرَحَةِ خَدِيجَةَ ابْنَةِ
عَمِّكَ ! فَابْتَسِمِي وَرَقَّةُ بِنْتُ نَوْفَلٍ ، وَقَالَ لِعَمِّهِ فِي صَوْتٍ هَادِيءٍ .
- قَدْ عَلِمْتُ يَا عَمِّي أَنَّنِي بَعُدْتُ عَنْ هَذَا كُلِّهِ ، وَلَيْسَ
لِي فِيهَا تَصْنَعُونَ مَارَبٌ^(١) !

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ أَحَدُ الْجَالِسِينَ ، وَقَالَ سَاحِرًا :

- أَلَا تَرَاهُ يَا وَرَقَّةُ عَلَى رَأْيِكَ ؟ ! كَانَ أَوَّلَى بِكَ أَنْ تَهْجُرَ
مَكَّةَ ، مَا دُمْتَ قَدْ أَصْبَحْتَ عَلَى غَيْرِ دِينِهَا !

(١) مَارَب : مَقْصَد .

— ٣٠ —

وَصَاحَ آخِرُ ضَاحِكًا :

— لَنْ تَرْضَى مَكَّةَ عَنْكَ يَا وَرَقَةُ ، فَتَعَالِيْمُكَ الَّتِي أَخَذْتَهَا
عَنْ دِيَانَاتِ الْفُؤَيْسِ وَالرُّومِ لَكَ وَحْدَكَ ، أَمَا آلِهَتُنَا فَقَائِمَةٌ
حَوْلَ الْكَعْبَةِ ، تَحْرُسُهَا وَتَحْرُسُنَا ، وَتَصُبُّ عَلَيْنَا النَّعِيمَ
وَتَذْفَعُ عَنَّا الْأَذَى !

ثُمَّ رَفَعَ الرَّجُلُ صَوْتَهُ بِسُخْرِيَةٍ ، قَائِلًا :

— أَلَا تَرَى يَا وَرَقَةُ مَا نَحْنُ فِيهِ اللَّيْلَةَ ؟ ! نِعْمَةٌ مِنْ نِعَمِ
الْآلِهَةِ الْعَزِيزَةِ !

إِنَّ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ تَزَفُّ إِلَى عَتِيقِ بْنِ عَابِدٍ ، لَكِنَّ
الْآلِهَةَ قَدْ شَارَكْتُنَا فَرَحَتُنَا فَجَعَلَتْ الطَّعَامَ يَحْلُو وَالشَّرَابَ
يَطْيِبُ ، فَاصْبِرْ تَفْسِكَ عَمَّا دَخَلَتْ فِيهِ ، وَتَمَتَّعْ مَعَنَا بِمَا نَحْنُ
فِيهِ ، وَإِلَّا فَاتَكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ لَنْ تَعُوضَهُ !

فَانْبَعَثَ صَوْتُ آخِرٍ فِي تَهَكُّمٍ :

— صِرْتُ رَاهِبًا مِنَ الرُّهْبَانِ يَا وَرَقَةُ ! لَقَدْ أَفْسَدَ عَلَيْكَ
طَوَافُكَ فِي الْبِلَادِ ، وَانْخِذْ أَعْلَكَ بِمَا فِيهَا ، مَا عَلَّمَكَ الْآبَاءُ
وَالْأَجْدَادُ ، أَتُرِيدُ أَنْ تُفْسِدَ عَلَيْنَا حَيَاتَنَا وَتَحْرِمَنَا لَذَّةَ الدُّنْيَا ؟ !

ثُمَّ دَخَلَ كَثِيرُونَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ ، وَلَدَّ لِلشَّيَابِ السُّخْرِيَّةُ
مِنْ وَرَقَةٍ ، وَخُرُوجِهِ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، وَلَدَّ لِلشُّيُوخِ
التَّهْكُمُ بِهِ ^(١) ، وَبِمَا اعْتَنَقَهُ مِنْ دِيَانَةِ جَدِيدَةٍ ، وَهُوَ صَامِتٌ
يَسْمَعُ وَلَا يَتَكَلَّمُ ، حَتَّى انْتَهَوْا مِنْ سُخْرِيَّتِهِمْ ، فَصَاحَ
فِي قُوَّةٍ :

— إِنَّ سَخِرْتُمْ مِنَّا الْيَوْمَ ، فَسَوْفَ نَسْخَرُ مِنْكُمْ غَدًا ، حِينَ
يُبْعَثُ النَّبِيُّ مِنْ بَيْنِكُمْ ، وَيُحْطَمُ أَصْنَامُكُمْ ، وَيَقْضَى عَلَى
ضَالِّكُمْ !

فَعَلَّتِ الْأَصْوَاتُ بِالْفَهْقَةِ ، وَارْتَفَعَ كَثِيرٌ مِنْهَا صَائِحًا :
— وَمَنْ هَذَا النَّبِيُّ يَا وَرَقَةُ ؟ ! أَنْتَ ؟ ! أَمْ غَيْرُكَ مِمَّنْ
اسْتَهْوَاهُمُ الْخِلَافُ ، فَخَرَجُوا عَلَى مَا عَهَدَ الْأَبَاءُ وَالْأَجْدَادُ ،
لِيُفْتَتَحُوا إِلَيْهِمْ الْأَنْظَارُ ؟ !

وَقَالَ آخَرُونَ فِي حِدَّةٍ :

— وَلِمَاذَا رَجَعْتَ يَا وَرَقَةُ مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ الَّتِي طُفِتَ بِهَا ؟ !

(١) التهكم : السخرية .

وَكَيْفَ رَضِيتَ عَنْ بَعْضِ تِلْكَ الدِّيَانَاتِ الَّتِي لَا تُفْهَمُ ، وَعَنْ
غَيْرِهَا مِمَّا يَثِيرُ بَيْنَ أَهْلِهَا مِنْ خِلَافٍ لَا أَوَّلَ لَهُ وَلَا آخِرَ ؟
وَكَثُرَ الْقَوْلُ ، وَاشْتَدَّ الْجَدَلُ^(١) ، ثُمَّ صَاحَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ
يَسْأَلُ وَرَقَةَ :

- وَمِنْ أَيِّ الْأَقْوَامِ سَيُبْعَثُ هَذَا النَّبِيُّ ؟ وَيَأَيُّ دِينٍ ؟ !
فَاسْرِعْ وَرَقَةَ فِي ثِقَةٍ :

- كُلُّ الْكُتُبِ الَّتِي نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ تُبَشِّرُ بِذَلِكَ النَّبِيِّ ،
وَتُوَكِّدُ أَنَّ أَوَانَهُ قَدْ اقْتَرَبَ ، وَأَنَّهُ سَيُبْعَثُ مِنْ بَيْنِ الْعَرَبِ .
فَعَلَتْ الْقَهْقَهَةُ ، وَصَاحَ بَعْضُهُمْ فِي سُخْرِيَةٍ :
- أَعِدْذَ نَفْسِكَ يَا وَرَقَةَ ، لِيَنْزِلَ عَلَيْكَ الْوَحْيُ الَّذِي تَقُولُ
إِنَّهُ سَيَنْزِلُ عَلَى ذَلِكَ الرَّسُولِ ! رَبِّمَا يَا وَرَقَةَ !!
فَاسْرِعْ آخِرُ :

- لَكِنْ تَأْكُذُ يَا وَرَقَةَ أَنَّنَا حِينَئِذٍ لَنْ نَدْعَكَ تَمُدُّ يَدَكَ
إِلَى آلِهَتِنَا ، سَتَدْفَعُكَ مَكَّةُ كُلُّهَا ، وَتُطْرِكُ كَيْفَ يَكُونُ
الْخُرُوجُ عَلَى دِينِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ !

(١) الجدل : النقاش .

فَقَامَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ . وَصَاحَ فِي عَزْمٍ :

— لَقَدْ أَفْسَدْتُمْ هَذَا السَّمَرَ بِذَلِكَ الْجِدَالِ الَّذِي لَا يُغْنِي !
وَأَمَرَهُمْ بِالسُّكُوتِ ، ثُمَّ أَمَرَ الْمُعَنِّيَاتِ . فَاسْتَأْنَفْنَ الْغِنَاءَ ،
وَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُنَّ بِالْأَلْحَانِ الْعَذْبَةِ . بَيْنَ أَصْوَاتِ الدُّفُوفِ ،
وَرَنَاتِ الْمَزَاهِرِ^(١) ، وَعَادَ الْقَوْمُ إِلَى طَرَبِهِمْ .

وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ سَيِّدُ مَكَّةَ ، يُشَارِكُ
فِي هَذِهِ الْفُرْحَةِ الَّتِي احْتَمَلَتْ لَهَا قُرَيْشٌ كُلُّهَا ، وَكَانَتْ قَبْلَ
هَذِهِ اللَّيْلَةِ لَا تُقِيمُ الْأَفْرَاحَ مُجَامَلَةً لَهُ لِحُزْنِهِ عَلَى ابْنِهِ
عَبْدِ اللَّهِ ، الَّذِي مَاتَ فِي شَبَابِهِ ، بَعْدَ مَا تَزَوَّجَ بِقَلِيلٍ .

أَمَّا هَذِهِ اللَّيْلَةُ ، فَقَدْ كَانَ مَسْرُوراً ، مُنْشِرِحَ الْفُؤَادِ ، لِأَنَّ
اللَّهَ عَوَّضَهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ، فَوَزَقَ أَمْسَةً زَوْجَ ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ وَلَدًا
اسْمُهُ مُحَمَّدٌ ، فَلَمْ يَنْدَسِ النَّاسُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَنَّ يَهْنُئُوا
عَبْدَ الْمُطَّلِبِ ، وَيَتَمَنَّوْا لَهُ أَنَّ يَعِيشَ حَتَّى يَحْضُرَ زَوَاجَ
مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَهُوَ يَبْتَئِسُ ابْتِسَامَاتِ الرُّضَا . مُسْتَبْعِدًا
أَنَّ يَمُتَّ بِهِ الزَّمَنُ حَتَّى يُزَوِّجَ حَفِيدَهُ^(٢) مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ .

(١) المزاهر : آلات الطرب وهى الاعواد التى يضرب بها .

(٢) حفيده : ابن ابنه .

وَاسْتَمَرَ السَّامِرُ إِلَى السَّحَرِ^(١) ، وَكَانَتْ الْعُرُوسُ قَدْ سَارَتْ
مِنْ بَيْتِهَا إِلَى بُيُوتِ بَنِي مَخْزُومٍ ، وَانْتَقَلَتْ إِلَى الْبَيْتِ الْفَسِيحِ
الَّذِي أَعَدَّهُ عَتِيقٌ لاسْتِقْبَالِهَا فِيهِ .

ثُمَّ انْصَرَفَ النَّاسُ وَهُمْ يَلْهَجُونَ^(٢) بِمَا نَالُوا مِنَ السَّرُورِ ،
وَدَخَلَتْ خَدِيجَةُ أَبْوَابَ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ ، كَبِيرَةَ الْأَمَلِ ،
شَدِيدَةَ الطَّمُوحِ ، لَكِنَّهَا كَانَتْ تُحِسُّ بِخَوْفٍ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ ،
يُحَدِّثُهَا قَلْبُهَا بِأَنَّ الْأَيَّامَ تُخْفِي لَهَا شَيْئًا لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُ عَلَّامِ
الْغُيُوبِ .

(١) السحر : قبيل الصبح .

(٢) يلهجون : يكثرون التحدث في ثناء .

— ٣٥ —

الأسئلة

(١)

لخص الحوار الذى دار بين خويلد وورقة بن نوفل .
واذكر ما يدل عليه بالنسبة لشخصية ورقة .

(٢)

انضم إلى (خويلد) فى حوار (ورقة) كثير من الحاضرين
فما موقفهم من ورقة ؟ وما موقف (ورقة) منهم ؟

(٣)

ثم انصرف الناس وهم يلهجون بما نالوا من السرور ،
ودخلت «خديجة» أبواب الحياة الجديدة ، كبيرة الأمل .
شديدة الطموح .

(أ) ما معنى : «يلهجون - شديدة الطموح» ؟
(ب) وضح ما تشير إليه العبارة السابقة .

* * *

(٥) المتأدير

مَنْحَتْ خَلِيدِجَةُ زَوْجَهَا مَا تَمْنَحُهُ الْمَرْأَةُ الْعَاقِلَةُ الْفَاضِلَةُ .
أَطَاعَتْهُ وَاحْتَرَمَتْهُ ، وَشَجَّعَتْهُ ، وَوَجَدَتْ فِي قَلْبِهَا عَطْفًا ، أَنْسَ
بِهِ ، وَارْتَاحَ إِلَيْهِ ، وَأَحْسَّ عِنْدَهَا بِسَعَادَةٍ كَانَتْ يَرْجُوهَا :
فَاطِمَانِ إِلَيْهَا ، وَمَنْحَهَا مِنْ قَلْبِهِ بِشَلِّ مَا مَنَحَتْهُ مِنْ قَلْبِهَا ،
وَلَمْ يَبْخُلْ عَلَيْهَا بِاسْتِشَارَتِهَا فِيمَا يَهُمُّ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ .

وَأَصْبَحَتْ خَلِيدِجَةُ وَعَتِيقٌ مَثَلًا لِلزَّوْجَيْنِ الْمُؤْتَلِفَيْنِ ^(١) ،
تَرَفُّ عَلَى بَيْتَيْهِمَا السَّعَادَةُ ، وَالنَّعِيمُ الَّذِي لَا يُنْغِصُهُ نَفُورٌ ،
وَلَا يُعَكِّرُهُ خِلَافٌ .

وَكَانَ خُوَيْلِدٌ شَدِيدَ الْاغْتِيَاظِ ^(٢) بِانْتِظَامِ هَذَا الْعُشِّ الْهَالِيءِ ،
يَزُورُ ابْنَتَهُ ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهَا شَاكِرًا لَهَا طَاعَةَ الزَّوْجِ ،

(١) المؤتلفين : المتحابين .

(٢) الاغتياظ : السرور .

وَلَا يُحَدِّثُ عَتِيقًا إِلَّا وَيَجِدُ خَدِيجَةَ قَدْ اسْتَحْوَذَتْ^(١) عَلَى قَلْبِهِ ،
وَمَلَسَتْ فُؤَادَهُ ، فَيَزِدُّهُ سُرُورًا .

وَكَانَتْ فَاطِمَةُ أُمُّ خَدِيجَةَ شَدِيدَةَ الزَّهْوِ^(٢) بِابْنَتَيْهَا ، الَّتِي
عَرَفَتْ - عَلَى صَغَرهَا - كَيْفَ تَسُرُّ أَبَوَيْهَا ، وَتَسُرُّ زَوْجَهَا ،
فَرَحَةً بِمَا تَسْمَعُ عَنْ بَيْتِ خَدِيجَةَ : الَّذِي أَصْبَحَ مَضْرِبَ
الْأَمْثَالِ فِي مَكَّةَ كُلِّهَا . .

وَانْقَضَى الْعَامُ ، فَزَادَتْ الدَّارُ بِهَجَّةٍ بِمَوْلُودَةٍ زَادَتْ رِبَاطَ
الْمَحَبَّةِ ، وَاشْتَدَّ بِهَا تَعَلُّقُ أَبِيهَا ، إِذْ كَانَتْ كَبِيرَةً الشَّبَّهِ
بِأُمِّهَا خَدِيجَةَ .

لَكِنَّ الْقَدَرَ كَانَ قَدْ كَتَبَ فِي صَفْحَةِ الْبَقَاءِ لِهَذَا الزَّوْجِ
سُطُورًا قَلِيلَةً ، فَلَمْ يَنْتَصِفِ الْعَامُ الثَّانِي حَتَّى مَاتَ عَتِيقُ
تَارِكًا فِي قَلْبِ خَدِيجَةَ أَلَمًا ، وَفِي نَفْسِهَا حَسْرَةً . فَقَدْ فَقَدَتْ
فِيهِ الزَّوْجَ الرَّضِيَ الْمُخْلِصَ الْوَفَى ، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَرَكَ لَهَا
وَلَابَسَتْهَا ثَرَوَةً كَبِيرَةً .

(١) استحوذت : غلبت .

(٢) الزهو : الفخر .

حَزَنْتُ خَدِيجَةَ عَلَى زَوْجِهَا ، وَكَانَ حُزْنُ أُمِّهَا لَا يَقِلُّ عَنْ
حُزْنِهَا ، وَإِنْ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرَشِيِّينَ وَالْقُرَشِيَّاتِ يَتَحَدَّثُونَ
بِمَا خَلَّفَ عَتِيقٌ مِنْ مَالٍ ، وَمَا وَرِثَتْ خَدِيجَةُ مِنْ ثَرْوَةٍ .

وَتَفْتَحَتْ عُيُونُ الطَّامِعِينَ فِي الْجَمَالِ وَالْمَالِ وَالْمَحْسَبِ ،
وَوَدَّ كَثِيرُونَ لَوْ أَنَّ خَدِيجَةَ رَضِيَتْ بِهِمْ أَزْوَاجًا ، وَأَنَّ خُوَيْلِدًا
رَضِيَ بِهِمْ أَصْهَارًا ؛ فَلَمْ يَمْنُضْ كَثِيرٌ عَلَى مَوْتِ عَتِيقٍ ، حَتَّى
كَانَتْ أَدْنَا خُوَيْلِدٍ تَسْمَعَانِ كُلُّ سَاعَةٍ مِنْ أَفْوَاهِ الْأَثَرِيَاءِ ،
وَالسَّادَةِ ، سَبِيلًا مِنَ التَّوَسُّلِ وَلِلْإِلْحَاحِ ، يُزَكُّونَ رَغْبَاتِهِمْ
بِمَا سَمِعُوا عَنْ خَدِيجَةَ وَزَوْجِهَا ، وَيَسْمَعُونَ لِبُيُوتِهِمْ عَلَى
يَدَيْهَا مِنْ حُسْنِ تَدْبِيرٍ وَنِظَامٍ ..

وَكَانَ مِنْ رَأْيِ خُوَيْلِدٍ أَلَّا تَنْتَظَرَ خَدِيجَةُ وَحِيدَةً بَعْدَ عَتِيقٍ ،
وَهِيَ لَمْ تَقْطَعْ شَيْئًا مِنْ طَرِيقِ حَيَاتِهَا . لَكِنَّهُ كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ
أَنْ يَتَحَدَّثَ إِلَيْهَا بِهَذَا الرَّأْيِ بَعْدَ مَا لَمَسَ قَلْبُهَا الْمُحْطَمَ عَلَى
زَوْجِهَا ، وَأَحْسَسَ بِمَا هِيَ فِيهِ مِنْ حُزْنٍ عَمِيقٍ .

وَلَمْ تَسْتَطِعْ أُمُّهَا أَنْ تَتَحَدَّثَ إِلَيْهَا فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ أَوْلَادِهَا
الْخُطَّابِ ، لِأَنَّهَا تَعْرِفُ أَنَّ ابْنَتَهَا فِي حَاجَةٍ إِلَى مَنْ تَوَاسِيَهَا ،

وَلَيْسَتْ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَنْ تَزُفُ إِلَيْهَا خَبَرَ زَوَاجِ جَدِيدٍ .
وَتَعْلَمُ أَنَّهَا عَقَدَتْ الْعَزْمَ عَلَى أَنْ تَعِيشَ لَابْنَتَيْهَا ، تَرْبِيَهَا
وَتَكْفُلَهَا ، وَتُنَشِّئَهَا فِي أَحْضَانِهَا وَذِكْرَى أَبِيهَا ، وَلَا تَدْخُلُ مَعَهَا
فِي أَحْضَانِ رَجُلٍ جَدِيدٍ غَرِيبٍ .

وَمَرَّتْ الْأَيَّامُ ، وَتَوَالَتْ الشُّهُورُ ، وَخَلَدِيحَةُ تَعِيشُ فِي حُزْنِهَا
مُنْصَرِفَةً عَنِ الْحَيَاةِ ، زَاهِدَةً فِيهَا ، تَرَى فِي طِفْلَتَيْهَا كُلَّ
شَيْءٍ ، لَا تَخْرُجُ مِنَ الدَّارِ ، وَلَا تُشَارِكُ فِي سُرُورٍ ، وَلَا تَسْمَعُ
نَبَأَ حُزْنٍ إِلَّا بَكَتْ وَلَا خَبَرَ سُرُورٍ إِلَّا انْتَحَبَتْ ، لِأَنَّ الْحُزْنَ
وَالْفَرَحَ يُثِيرَانِ فِي قَلْبِهَا ذِكْرَيَاتِ زَوَاجِهَا ، وَسَعَادَتَيْهَا ،
وَحِرْمَانِيهَا مِنْ زَوْجِهَا .

وَنَحْوِيلِدُ يَتَلَقَّى كُلَّ سَاعَةٍ رَغْبَةً ، وَيَسْمَعُ كُلَّ لَحْظَةٍ رَجَاءً ،
ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى ابْنَتَيْهِ وَمَا هِيَ فِيهِ ، فَيَشْتَدُّ بِهِ الْحُزْنُ ، وَيَتَحَدَّثُ
إِلَى فَاطِمَةَ عَنْ أَمْرِهَا ، فَيَجِدُ فِي قَلْبِهَا مِثْلَ مَا فِي قَلْبِهِ ، كَمَا
يَجِدُهَا مِثْلَهُ عَاجِزَةً عَنِ الْحَدِيثِ إِلَى خَلَدِيحَةَ فِي أَمْرِ الزَّوْاجِ ،
وَأَمْرِ الْخُطَّابِ .

لِحِكْمِهِ رَأَى الْآيَّامَ تَمُرُّ ، وَعَزَّ عَلَيْهِ أَنْ تَعِيشَ خَلِيدَجَةُ فِي
هَمِّهَا وَأَحْزَانِهَا ، وَأَنْ تَقْطَعَ الْحَيَاةَ وَحِيدَةً فَرِيدَةً : فَزَارَهَا
ذَاتَ يَوْمٍ ، وَمَكَثَ عِنْدَهَا وَقْتًا طَوِيلًا أَكْثَرَ مِمَّا اعْتَادَ ، ثُمَّ
دَعَاها ، وَقَالَ بِاسْمًا :

— أَلَا تَخْلُدِينَ هَذَا السَّوَادَ يَا خَلِيدَجَةُ ؟ !

مَضَى عَلَى عَتِيقٍ وَقْتُ كَبِيرٍ ، وَقَدْ وَفَّيَتْ حَقَّهُ ، وَأَكْرَمَتْهُ
حَيَا وَمَيِّتًا ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَمُوتَ الْأَحْيَاءُ خَلْفَ الْأَمْوَاتِ !

فَنَظَرَتْ خَلِيدَجَةُ إِلَى أَبِيهَا بِعَيْنَيْهَا الْوَاسِعَتَيْنِ ، وَقَدْ لَمَعَتْ
فِيهِمَا الدُّمُوعُ ، ثُمَّ قَالَتْ فِي صَوْتٍ مُتَقَطِّعٍ :

— وَمَا قِيَمَةُ الْحَيَاةِ بَعْدَ فَقْدِ الْأَحْبَابِ ؟ ! إِنْ كَانَ عَتِيقُ
مَاتَ فَقَدْ خَلَّفَ ذِكْرَاهُ !

ثُمَّ مَسَحَتْ بِيَدِهَا عَلَى رَأْسِ ابْنَتِهَا الصَّغِيرَةِ ، وَقَالَتْ
وَالدُّمُوعُ تَنْهَمِرُ عَلَى وَجْهَتَيْهَا الْمُتَوَرِّدَتَيْنِ :

— وَهَذِهِ الذِّكْرَى الَّتِي تَرَكَهَا عَتِيقُ ، سَأَظِلُّ لَهَا مَا حَيَّتْ ،
وَلَكِنْ أَضَعُهَا فِي حِجْرٍ غَيْرِ حِجْرِ أَبِيهَا ، وَلَكِنْ أَعْرِضُهَا لِغَضَبِ
غَرِيبٍ أَوْ رِضَاهُ !

فَتَنَازَّرَ خُوَيْلِدٌ ، وَحَبَسَ دُمُعَتَيْنِ كَادَتَا تَنْسَكِبَانِ مِنْ عَيْنَيْهِ ،
ثُمَّ قَالَ فِي حَنَانٍ :

— لَكِنَّكَ تَعِيشِينَ وَحْدَكَ يَا خَدِيجَةُ ، وَخَيْرٌ لَكَ أَنْ تَعِيشِي
فِي كَنْفِ^(١) رَجُلٍ ، مِنْ أَنْ يُغْلِقَ بَابُ الْبَيْتِ عَلَيْكَ وَحْدَكَ !
وَلَسْتُ أَوَّلَ امْرَأَةٍ فَقَدْتُ زَوْجًا ، وَمَا نَحْنُ إِلَّا كُرَّةٌ فِي يَدِ
الْمَقَادِيرِ تَقْدِرُنَا حَيْثُ تَشَاءُ !

ثُمَّ أَخَذَ يُعَدِّدُ عَلَى سَمْعِهَا أَسْمَاءَ كَثِيرَةٍ ، مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي
فَقَدْنَ أَزْوَاجَهُنَّ مِثْلَهَا ، ثُمَّ تَزَوَّجْنَ فَنِعِمْنَ^(٢) بِالْحَيَاةِ ،
فَأُطْرَقَتْ وَلَمْ تَتَحَدَّثْ .

فَقَالَ فِي عَطْفٍ :

— إِنَّ الْأَيَّامَ تَعُرُّ سِرَاعًا يَا خَدِيجَةُ ، وَقَدْ أَصْبَحْتُ شَيْخًا
كَبِيرًا ، تُسْرِعُ بِي السَّاعَاتُ إِلَى نِهَايَةِ الْأَجَلِ ، وَأَخَافُ أَنْ
أُتْرِكَ بِغَيْرِ زَوْجٍ يَرْعَاكَ وَيُعْنَى بِأَمْرِكَ .

(١) كنف : جانب .

(٢) نعمن : تمتعن .

أَخَافُ أَنْ أَرْحَلَ عَدَا أَوْ بَعْدَ عَدٍ ، فَأُفَارِقَ الْحَيَاةَ مَحْزُونًا
مِنْ أَجْلِكَ ... فَهَلْ تُطِيعِينَ أَبَاكَ الَّذِي يَوَدُّ لَكَ الْخَيْرَ ،
فَمَا عَهْدُكَ تُخَالِفِينَ رَأْيَهُ ، أَوْ تَعْصِينَ لَهُ أَمْرًا ؟

وَصَمْتُ قَلِيلًا ، ثُمَّ قَالَ بِاسْمًا :

— زَوْجٌ يُعَوِّضُ عَتِيقًا يَأْخُذِيحَةً ! زَوْجٌ أَرْتَضِيهِ لَكَ ،
وَسَتَرْضِيَنَّهُ أَنْتِ !

أَتُحِبِّينَ أَنْ تَعْرِفِي مَنْ هُوَ ؟ !

لَأَنَّكَ تَسْمَعِينَ عَنْهُ .. هُوَ « النَّبَاشُ بْنُ زُرَّارَةَ التَّحِمِي »
الشَّهْمُ الْكَرِيمُ ، الْمِقْدَامُ^(١) ، الَّذِي مَلَأَ الْأَسْمَاعَ بِكُرْمِهِ ،
وَشَجَّاعَتِهِ ، وَاسْتِقَامَتِهِ .

هُوَ خَيْرٌ بَعْلٍ^(٢) لِيَخِيرَ زَوْجَةً ، فَطَاطِيحِي وَوَافِقِي فَقَدْ
وَقَّقَنِي اللَّهُ مِنْ أَجْلِكَ . أَطِيعِي يَا خَدِيحَةً ، وَارْحَبِي أَبَاكَ
الْخَائِفَ عَلَيْكَ مِنَ الْيَّامِ .

وَخَدِيحَةُ مُطْرِقَةٌ^(٣) ، لَا تُجِيبُ ، وَلَا تَسْأَلُ ؛ لَكِنَّ خُوَيْلِدًا
لَمْ يَزَلْ بِهَا حَتَّى رَضِيَتْ ، وَوَافَقَتْ عَلَى هَذَا الزَّوْاجِ .

(١) المقدام : الشجاع .

(٢) بعل : زوج .

(٣) مطرقة : ساكنة ، أو مرخية عينيها الى الارض .

الأسئلة

(١)

« كان » خويلد « شديد الاغتياب بانتظام هذا العش الهادئ ، يزور ابنته ، ثم يخرج من بيتها شاكرًا لها طاعة الزوج ، ولا يحدث « عتيقا » إلا ويجد « خديجة » قد استحوذت على قلبه ، وملكته فؤاده ، فيزداد سرورا .

(أ) ما معنى : « شديد الاغتياب » ؟ وما سر اغتيابه ؟

(ب) بم يوحى التعبير بقوله : « استحوذت على قلبه » وما أثر ذلك في نفسية خويلد ؟

(ج) ما العبرة المستفادة مما تشير إليه العبارة السابقة ؟

(٢)

« ومرت الأيام ، وتوالت الشهور ، و « خديجة » تعيش في حزنها ، منصرفة عن الحياة ، زاهدة فيها ، ترى في طفلتها كل شيء ، لا تخرج من الدار ، ولا تشارك في سرور ، ولا تسمع نبأ حزن إلا بكى ، ولا خبر سرور إلا انتحبت » .

— ٤٤ —

(أ) ما معنى : «زاهدة فيها» ؟ وما سر زهدها ؟

(ب) ما الفرق بين النحيب والبكاء ؟

(ج) لم كانت (خديجة) تبكي لسماع نبأ حزن ، وتنتحب
لخبر السرور ؟

* * *

٦، حزن جديد

أَخْلَصْتُ خَدِيجَةً لِزَوْجِهَا الْجَدِيدِ ، وَوَجَدَ فِيهَا الزَّوْجَةَ
الْوَفِيَّةَ ، كَمَا أَخْلَصَ لَهَا ، وَمَنْحَهَا قَلْبَهُ كَمَا مَنْحَهَا عَيْتِي
فَوَادُهُ^(١) مِنْ قَبْلُ ...

وَكَانَ هَذَا الزَّوْجُ رَجُلًا عَاقِلًا ، مُقَدِّمًا ، كَرِيمًا ، كَثِيرَ الْمَالِ ،
وَاسِعَ التَّجَارَةِ ، فَشَارَكَتُهُ خَدِيجَةُ الرَّأْيَ ، كَمَا كَانَتْ تُشَارِكُ
عَيْتِي ، وَأَشَارَتْ عَلَيْهِ وَشَاوَرَهَا ، وَأَظَلَّتْ بَيْتَهُمَا السَّعَادَةُ .

وَبَدَأَ النَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ ، وَيَرَوْنَ فِيهِ أَحْسَنَ
الْبُيُوتِ رَفَاهِيَّةً^(٢) وَتَدْبِيرًا ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى عَمَلِ هَذَا الزَّوْجِ ،
فَيَرَوْنَ فِيهِ أَحْسَنَ الْأَعْمَالِ ، وَأَكْثَرَهَا نِظَامًا ، وَإِذَا ذُكِرَتْ
الْبُيُوتُ وَخَيْرُ النِّسَاءِ ، كَانَ اسْمُ بَيْتِ التَّيْمِيٍّ أَوَّلَ بَيْتٍ
يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ .

(١) فَوَادُهُ : قَلْبُهُ .

(٢) رَفَاهِيَّةٌ : سَعَةِ مِنَ الْعَيْشِ .

وَلَمْ يَنْقَضِ الْعَامُ ، حَتَّى اشْتَدَّتْ أَوَاصِرُ^(١) تِلْكَ الْمَحَبَّةِ
بِرِبَاطِ الْوَلَدِ ، الَّذِي يَهْوَاهُ الْعَرَبُ ، وَيُسْكِرُونُ الزَّوْاجَ مِنْ
أَجْلِهِ ، وَيَحْنُونَ إِلَيْهِ إِذَا لَمْ يُرْزَقُوهُ ، وَيَجِدُونَ فِي جِرْمَانِهِ
أَلَمًا لِإِذْعَا .

فَمَا ضَبَحَ « هَالَةُ » ابْنُهُمَا قُرَّةَ عَيْنٍ^(٢) لَهُمَا ، وَتَوَفَّرَتْ خَدِيدَجَةُ
عَلَى رِعَايَتِهِ ، فَمَا ضَبَحَتْ مَضْرِبَ الْمَثَلِ بِمَكَّةَ فِي تَرْبِيَةِ الْأَبْنَاءِ ،
كَمَا كَانَتْ مَضْرِبَ الْمَثَلِ فِي رِعَايَةِ الْأَزْوَاجِ .

وَزَادَتْ هَذِهِ الظُّرُوفُ « النَّيَّاشَ » نَشَاطًا وَحُبًّا فِي الْحَيَاةِ ،
فَزَادَ خَيْرُهُ ، وَاتَّسَعَ عَمَلُهُ ، وَتَدَفَّقَ عَلَيْهِ الْمَالُ ، فَوْقَ مَا هُوَ
فِيهِ مِنَ الشَّرَاءِ وَالْخَيْرِ الْوَافِرِ ، وَدَعَتْهُ خَدِيدَجَةُ بِاسْمِ « أَبِي
هَالَةَ » . وَدَعَاهُ النَّاسُ بِهَذَا الْاسْمِ فَسَاحِبُهُ ، وَطَرِبَ لَهُ .

ثُمَّ دَارَ الْعَامُ ، وَأَقْبَلَ الْعَامُ الثَّانِي يَشْهَدُ وَلَدًا ثَانِيًا أَسْمَاهُ
أَبُوهُ « هِنْدُ » ، وَاشْتَدَّ فَرْحُهُ ، فَمَنَحَ الْفُقَرَاءَ ، وَأَعْطَى الْمَسَاكِينَ
وَطَافَ بِالْبَيْتِ^(٣) شَاكِرًا لِلَّهِ الَّذِي أَكْثَرَ مِنْ عَقِيهِ^(٤) ، وَزَادَ

(١) أواصر : روابط .

(٢) قرّة عين : سبب سرور .

(٣) بالبيت : الكعبة .

(٤) عقيقه : نسله .

تَعْلَقًا بِخَدِيجَةَ ، وَخَافَ مِنْ شَرِّ الْحُسَّادِ الَّذِينَ يَحْسِدُونَ النَّاسَ ،
فَيُصِيبُونَهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ .

كَمَا خَافَتْ خَدِيجَةُ أَلَّا تَدُومَ لَهَا هَذِهِ السَّعَادَةُ ، وَأَنْ يَكُونَ
الْقَدَرُ قَدْ أَعَدَّ لَهَا فِي عَالَمِ الْغَيْبِ شَيْئًا يُنْغِصُ عَلَيْهَا هَسْلِيهِ
النُّعْمَةِ .

وَكُلَّمَا تَدَفَّقَ الْخَيْرُ ، اشْتَدَّ بِهَا الْخَوْفُ ، وَقَدْ كَانَتْ
تُفَكِّرُ ، وَالْقَدَرُ يَنْظُرُ وَيُدَبِّرُ ، ثُمَّ هَجَمَ عَلَى هَذِهِ السَّعَادَةِ ،
وَحَطَفَ مِنْ وَسْطِهَا أَبَا هَالَةَ فَجَاءَتْ ، وَخَلَفَ خَدِيجَةَ مَرَّةً أُخْرَى
دُونَ زَوْجٍ ، فَذَاقَتْ ثَانِيَةَ مَا ذَاقَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَكَانَ مَوْتُ أَبِي
هَالَةَ جُرْحًا فَوْقَ جُرْحٍ ، فَلَمْ يَجِفْ لَهَا دَمْعٌ ، وَلَمْ تَخَفْ لَهَا
لَوْعَةٌ^(١) .

وَلَمْ تَلْتَفِتْ إِلَى تِلْكَ الثَّرْوَةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي تَرَكَهَا أَبُو هَالَةَ ،
وَزَهَدَتْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الَّتِي لَا تَدُومُ سَعَادَتُهَا ، وَلَا يَبْقَى لَهَا
سُرُورٌ .

(١) لوعة : حرقه .

وَكُلَّمَا ذَكَرَتْ الْمَالَ سَخِرَتْ مِنْهُ ، وَقَالَتْ لِنَفْسِهَا فِي حُزْنٍ
وَأَلَمٍ :

— وَهَلْ نَفَعَ الْمَالُ أَبَا هَالَةَ ، وَرَدَّ عَنْهُ الْمَوْتَ ؟ ! وَهَلْ نَفَعَ
الْمَالُ عَتِيْقًا وَأَنْقَذَهُ مِنْ مَخَالِبِ الْفَنَاءِ ؟ !

ثُمَّ تَنْظُرُ إِلَى ابْنَيْهَا وَيَنْتَبِهَا ، وَتَتَذَكَّرُ يُتَمِّهُم ، فَيَمَزُقُ
الْحُزْنَ قَلْبِهَا ، حَتَّى هُزِلَ^(١) جِسْمُهَا ، وَاصْفَرَّ وَجْهُهَا ، وَعَجَزَتْ
عَنِ الْحَرَكَةِ ، وَلَازَمَتْ الْفِرَاشَ ، وَخِيَمَ عَلَى دَارِهَا سَكُونُ
الْأَسَى^(٢) .

وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الصَّدْمَةُ عَلَى قَلْبِ خُوَيْلِدٍ أَقَلَّ مِنْهَا عَلَى قَلْبِ
خَدِيجَةَ وَأُمِّهَا ، فَبَدَتْ عَلَيْهِ عِلَامَاتُ الْحُزْنِ ، وَأَصْبَحَ يَزُورُ
خَدِيجَةَ فِي بَيْتِهَا كُلَّ يَوْمٍ مُتَجَلِّدًا^(٣) ، مُتَكَلِّفًا أَلَّا يُطْلِعَهَا عَلَى
مَا فِي قَلْبِهِ ، يَتَوَلَّى أَمْرَ مَالِهَا الْكَثِيرِ ، وَيُوجِّهُ تِجَارَةَ زَوْجِهَا
الرَّاحِلِ ، وَيُلَاعِبُ أَبْنَاءَهَا وَيُعَادِيئُهَا الْأَحَادِيثَ الْكَثِيرَةَ
لِيُنْسِيَهَا مَا تَعَانِيهِ^(٤) .

(١) هزال : ضعف .

(٢) الأسى : الحزن .

(٣) متجلدا : صابرا .

(٤) ما تعانيه : ماتقاسيه .

لَكِنَّ حُزْنَ خَدِيجَةَ كَانَ شَدِيدًا ، فَاشْتَدَّ بِهَا الْمَرَضُ حَتَّى خَافَ عَلَيْهَا خُوَيْلِدُ الْهَلَاكِ . فَتَعَاوَنَ هُوَ وَأُمُّهَا عَلَى تَمْرِئِضِهَا ، وَأَخَذَا يُدَلِّجَانِ عَلَيْهَا أَنْ تَرْحَمَ نَفْسَهَا ، وَتَنْسَى شَيْئًا مِمَّا هِيَ فِيهِ مِنْ أَجْلِ أَوْلَادِهَا الصَّغَارِ الَّذِينَ يَحْتَاجُونَ إِلَى قَلْبِ الْأُمِّ وَرِعَايَتِهَا ، تَقُولُ لَهَا أُمُّهَا كُلَّمَا وَجَدَتْ فُرْصَةً لِلْكَلامِ :

— إِنَّ إِخْلَاصَكَ يَا خَدِيجَةُ لِرِزْوَجَيْكَ فَاقَ كُلِّ إِخْلَاصٍ ، لَكِنَّ الْقَدَرَ يَا بُنَيَّتِي قَدْ اخْتَارَكَ لِتَحُلِيَ مَحَلَّهُمَا وَتَنْهَضِي مَكَانَهُمَا ، فَعَلَيْكَ وَاجِبٌ كَبِيرٌ .

عَلَيْكَ تَرْبِيَةٌ هَؤُلَاءِ الْأَبْنَاءِ وَرِعَايَتُهُمْ ، حَتَّى يَطْمَئِنَّ كُلُّ مَنْ زَوْجَيْكَ فِي قَبْرِهِ ، وَتَرْضَى رُوحَهُ عَنْكَ ، كَمَا رَضِيَ كُلُّ مِنْهُمَا عَنْكَ فِي حَيَاتِهِ .

وَمَنْ الَّذِي سَيَرَعَى أَبْنَاءَكَ بَعْدَكَ وَبَعْدَ أَبَوَيْهِمَا ؟

أَيُرْضِيكَ أَنْ يُلْقَوْا إِلَى غَيْرِ أَبِي وَغَيْرِ أُمٍّ ؟

وَلَمْ تَزَلْ بِهَا حَتَّى خَلَقْتُمْ فِي قَلْبِهَا الْإِحْسَاسَ بِأَنَّهَا أَصْبَحَتْ مَكَانَ زَوْجَيْهَا ، وَأَنَّهَا لَا بُدَّ أَنْ تَقُومَ بِرِسَالَتِيهَا الَّتِي أَلْقَيْتَ عَلَى عَاتِقِهَا . فَمَا خَذَتْ تَسْتَعِيدُ بِرُغْهَا شَيْئًا فَشَيْئًا ، حَتَّى اسْتَطَاعَتْ

أَنْ تُعَادِرَ الْفِرَاشَ ، وَخُوَيْلِدٌ يُدِيرُ عَمَلَهَا ، وَيَحُلُّ مَحَلَّ الزَّوْجِ ،
وَلَا يَنْقَطِعُ سَاعَةٌ عَنْ بَيْتِهَا .

لَكِنَّ الشَّيْخُوخَةَ كَانَتْ قَدْ نَالَتْ مِنْهُ ، فَفُجِعَتْ بِهِ خَدِيجَةُ
ذَاتَ يَوْمٍ ، فَكَانَ جُرْحًا ثَالِثًا فِي قَلْبِهَا ، زَادَ أَلَمَهَا أَلَمًا ،
وَحُزْنَهَا حُزْنًا ، وَأَخَذَتْ تُفَكِّرُ فِي أَمْرِهَا ، وَمَاذَا يُرَادُ بِهَا فِي
هَذِهِ الْحَيَاةِ .

وَكَانَ فِي بَيْتٍ قَرِيبٍ مِنْ بَيْتِهَا سَيِّدَةٌ اسْمُهَا آمِنَةُ^(١) بِنْتُ
وَهَبٍ مِثْلُهَا ، مَاتَ زَوْجُهَا بَعْدَ قَلِيلٍ مِنْ عُرْسِهَا ، وَخَلَفَ فِي
جَوْفِهَا وَلَدًا ، فَأَبَتْ أَنْ تَتَزَوَّجَ وَوَهَبَتْ نَفْسَهَا لِابْنِهَا مُحَمَّدٍ ،
وَصَارَتْ حَلِيفَتِ النَّاسِ فِي الْوَفَاءِ ، وَالصَّبْرِ ، وَالْإِخْلَاصِ ،
وَقَدْ بَلَغَ ابْنُهَا هَذَا السَّادِسَةَ ، وَهِيَ مَاضِيَةٌ فِي عَزِيمِهَا عَلَى أَنْ
تَمِيشَ لِابْنِهَا وَحْدَهُ .

فَعَزَمَتْ خَدِيجَةُ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ آمِنَةَ ، الصَّابِرَةِ ، الْمُسْحِيَةِ ،
فَتَمِيشَ لِابْنَانِهَا وَحْدَهُمْ ، فَلَمَّ تَسْتَجِبْ لِمَنْ طَلَبَ يَدَهَا مِنْ
سَادَةِ قُرَيْشٍ وَشَبَابِهَا ، وَأَلْقَتْ مِنْ قَلْبِهَا فِكْرَةَ الزَّوْاجِ ،

(١) آمنة : أم النبي صلى الله عليه وسلم .

وَرَدَّتْ كُلَّ طَالِبٍ ، وَشَمَرَتْ لِتَنْهَضَ بِتِجَارَتِهَا ، وَتُدِيرَ
أَمْرَهَا بِنَفْسِهَا ، وَرَأَتْ مَا يُغْنِيهَا فِي اسْتِجَارِ الرِّجَالِ الَّذِينَ
يُسَافِرُونَ بِتِجَارَتِهَا ، فَسَيَّرَتْ تِجَارَةَ زَوْجِهَا كَمَا كَانَتْ ،
جَاعِلَةً هَمَّهَا أَبْنَاءَهَا ، وَمَالَهَا وَأَعْمَالَهَا الْوَاسِعَةَ .

الأسئلة

(١)

«أصبح «هالة» ابنها ، قرّة عين لهما ، وتوفّرت «خديجة»
على رعايته فأصبحت مضرب المثل بمكة ، في تربية الأبناء ،
كما كانت مضرب المثل في رعاية الأزواج .

(أ) بمن تزوجت «خديجة» بعد وفاة «عتيق» ؟ وما سر
قبولها الزواج منه ؟

(ب) بم ضُرب المثل بالسيدة «خديجة» في مكة ؟
وما دلالة ذلك على شخصيتها ؟

(٢)

«وكلما تدفق الخير ، اشتد بها الخوف ، وقد كانت

تفكر والقدر ينظر ويدبر ، ثم هجم على هذه السعادة ،
وخطف من وسطها «أبا هالة» فجأة ، وخلف خديجة مرة
أخرى دون زوج .

(أ) ما معنى : «تدفق الخير» ؟ وما مظهر تدفقه في بيت
خديجة ؟

(ب) ما أثر موت «أبي هالة» في نفسية «خديجة» ؟ ولماذا ؟

(ج) كان أثر وفاة «أبي هالة» على «خويلد» شديداً . فما
مظهر ذلك ؟

(د) عازمت «خديجة» على أن تكون مثل «آمنة» في
صبرها وتصميمها ، وضح ذلك .

٧، أمل

سارت تجارة خديجة كما كانت تسير تجارة زوجها ،
وكما تسير تجارة قريش ، وأصبح الكثيرون يعملون لديها ،
ولا يجدون غصاصة^(١) في خديجتها ، بل يفتخرون بأنهم
يعملون عند هذه السيدة ، المدبرة العاقلة ، التي فهمت
أصول التجارة ودقائقها ، وعرفت ما يكثر عليه الطلب
في ناحية ، وما يقل عليه الطلب في ناحية .

وصارت ذات رأي في شئون المال ، لا يأنف^(٢) كثير من
التجار أن يستمع إلى توجيهاتها ، ويعمل بها ، لأنهم جربوا
هذه الآراء واقتنوها بنجاحها . .

وأصبح بيت خديجة من البيوت التجارية الكبيرة في
مكة ، وصارت مخازنها من أوسع المخازن وأشهرها ، وأمتاز

(١) غصاصة : منقصة .

(٢) لا يأنف : لا يتكبر .

مَالُهَا وَتِجَارَتُهَا بِالْحَلَالِ وَالْحَقِّ ؛ لَا نُقْصَانَ وَلَا تَطْفِيفَ^(١) فِي
الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ ، وَلَا شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ الْمَالِ فِي طَرِيقِ الرِّبَا^(٢)
الَّذِي شَاعَ فِي ذَلِكَ الْوَسْطِ .

كَمَا أَنَّهَا عَرَفَتْ حَقَّ الْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ ، فَأَخْرَجَتْهُ
رَاضِيَةً النَّفْسِ طَيِّبَةً الْفُؤَادِ ، مَسْرُورَةً بِمَا تُقَدِّمُ ، وَبِمَا تُفَرِّجُ
مِنْ حَاجَةٍ ، وَتُزِيلُ مِنْ كَرْبٍ .

وَقَدْ أَحَسَّتْ بِأَنَّ زِيَادَةَ ذَلِكَ الْمَالِ ، مَرْبُوطَةٌ بِذَلِكَ الْعَطَاءِ ،
فَكُلَّمَا زَادَتْ إِحْسَانًا زَادَتْ ثَرَوَتُهَا نِمْاءً وَبَرَكَهً ، فَأَكْثَرَتْ
مِنَ الْإِحْسَانِ حَتَّى فَاقَتْ الرُّجَالَ ؛ وَالنَّاسُ يُعْجَبُونَ مِنْ أَمْرِهَا ،
وَأَمْرِ تِجَارَتِهَا ، حَتَّى أَرَبَتْ^(٣) عَلَى تِجَارَةٍ كَثِيرِينَ مِنَ الْمَهَرَّةِ
الْمُحْتَكِينَ^(٤) .

وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْلَمْ مِنَ السُّخْرِيَةِ اللَّادِعَةِ ، حِينَ دَخَلَتْ هَذَا
الْمَيْدَانَ الَّذِي يُضْنِي^(٥) الرُّجَالَ .

(١) لَا تَطْفِيفَ : لَا زِيَادَةَ .

(٢) الرِّبَا : الزِّيَادَةُ .

(٣) أَرَبَتْ : زَادَتْ .

(٤) الْمُحْتَكِينَ : الْمَجْرِبِينَ .

(٥) يَضْنِي الرُّجَالَ : يَتَعَبَهُمْ .

وكثيراً ما ذهبَ إليها إخوانها ينصَحُونَهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ رَجُلًا
يَكْفِيهَا ذَلِكَ الْعَنَاءَ ، فَتُحَادِثُهُمْ فِي اسْتِعْدَادِ الرِّجَالِ وَاسْتِعْدَادِ
النِّسَاءِ ، وَتُحَاوِلُ إِقْنَاعَهُمْ بِأَنَّ الْمَرْأَةَ لَهَا قَلْبٌ مِثْلُ قَلْبِ
الرَّجُلِ وَقُوَّةٌ مِثْلُ قُوَّتِهِ ، وَأَنَّهَا إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تَشُقَّ طَرِيقَهَا فِي
الْحَيَاةِ ، وَعَزَمَتْ وَصَمَّمَتْ ، انْفَتَحَ لَهَا الطَّرِيقُ ، وَدَنَا لَهَا
الْبَرِيءُ ، وَذَلِكَ لَهَا الصَّعْبُ ، ثُمَّ تَقُولُ لَهُمْ بِاسْمَةٍ :

— هَوِّنُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَسَوْفَ أَضْرِبُ الْمَثَلَ لِأَوْلَيْكَ
الرِّجَالِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْمَرْأَةَ مَتَاعًا ، وَيَحْدُونَ نَشَاطَهَا ،
وَيَحْبِسُونَ ذَكَاءَهَا ، وَيَقْتُلُونَ مَوَاهِبَهَا بَيْنَ جُدْرَانِ الْبُيُوتِ .

وَسَوْفَ أَضْرِبُ الْمَثَلَ لِأَوْلَيْكَ النِّسَاءِ الْمُتَوَارِيَاتِ خَلْفَ
الْأَسْتَارِ ، يَصْرِفْنَ نَشَاطَهُنَّ وَذَكَاءَهُنَّ فِيمَا لَا يُفِيدُ وَلَا يُجْدِي ^(١) .

وَمَا الْمَرْأَةُ إِلَّا مَخْلُوقٌ اسْتَبَدَّ بِهِ الرِّجَالُ وَأَرَادُوا لَهُ أَنْ يَكُونَ
ضَرْعِيًّا سَجِينًا فِي أَيْدِيهِمْ ، يَأْكُلُ وَيَلِدُ ، كَمَا تَأْكُلُ الْحَيَوَانَاتُ
وَتَلِدُ لِلنَّاسِ .

(١) لا يجدى : لا ينفع .

فَإِذَا أَخْفَقُوا فِي إِقْنَاعِهَا بِمَا يُرِيدُونَ ، انْصَرَفُوا غَاضِبِينَ .
ثُمَّ عَادُوا مَرَّةً أُخْرَى ، حِينَ يَشْتَدُّ عَلَيْهِمْ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنَ النَّاسِ
عَنْ ابْنَةِ خَوَيْلِدٍ الَّتِي تَصْنَعُ مَا يَصْنَعُ الرِّجَالُ .

أَصَمَّتْ خَدِيجَةُ أُذُنَيْهَا عَنْ كَلَامِ النَّاسِ ، وَنَهَضَتْ فِي طَرِيقِهَا
الَّتِي أَحَبَّتْهَا ، وَوَجَدَتْ فِيهَا لَذَّةً صَرَفَتْهَا عَنِ الْأَزْوَاجِ ، وَدَفَعَتْهَا
إِلَى الزِّيَادَةِ وَالْإِفْتِسَانِ .

فَأَخَذَتْ تَكْبِرُ فِي عَيْنِ النَّاسِ ، وَكَلَّمَا مَرَّتْ الْأَيَّامُ زَادُوا
لَهَا اخْتِرَاءً وَتَبْجِيلًا ، وَقَدَرُوا جَهَادَهَا وَقُوَّةَ قَلْبِهَا ، كَمَا قَدَرُوا
طَبِيبَتَهَا ، وَعَظَمَتَهَا ، وَاهْتِمَامَهَا بِأَبْنَائِهَا ، وَالْمُشَارَكَةَ بِمَا لَهَا فِي
كُلِّ مَكْرُمَةٍ ، كَمَا يُشَارِكُ رُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ ، وَفَوْقَ مَا يَبْدُلُونَ .

وَأَخَذَتْ النِّسَاءُ تَفْخَرْنَ بِخَدِيجَةَ عَلَى الْأَزْوَاجِ ، وَتُثْبِتْنَ
لَهُمْ قُدْرَةَ الْمَرْأَةِ وَقُوَّتَهَا ، وَأَنَّهَا لَا تَقِلُّ عَنِ الرَّجُلِ ، وَأَنَّ
الرِّجَالَ لَوْ بَاعَدُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَسَبْجِنَهُنَّ ، لَخَرَجْنَ إِلَى الْحَيَاةِ ،
وَأَثَرِينَ (١) . كَمَا أَثَرَتْ خَدِيجَةُ ، وَأَقْنَعْنَ الرِّجَالَ كَمَا أَقْنَعَتْ .

وَمَعَ تَزَايُدِ هَذَا الثَّرَاءِ ، وَاتِّسَاعِ تِلْكَ الشُّهُرَةِ ، كَانَ طَمَعُ رُؤَسَاءِ

(١) اثْرِينَ : كَثُرَ مَا لَهَا .

مَكَّةَ وَشَبَابِهَا يَتَزَايَدُ فِي الزَّوْاجِ مِنْ خَدِيجَةَ ، يَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهَا وَيَبْدُلُونَ ، لَكِنَّهَا غَدَتْ فِي شُغْلٍ عَنْ هَذَا بِمَا هِيَ فِيهِ ، لَا تُفَكِّرُ فِي الزَّوْاجِ وَلَا تَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَلَا تَسْمَعُ لِأَوْلَئِكَ ، الْمُتَوَسِّلِينَ ، وَكَلَّمَا تَقَدَّمَتْ بِهَا السَّنُّ ، زَادَتْ فِي أَعْيُنِ الرِّجَالِ حِلَاوَةً ، وَزَادَتْ رَغْبَتَهُمْ فِي زَوَاجِهَا .

لَكِنْ هَؤُلَاءِ الطَّائِعِينَ لَمْ يَجْزُوا وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَلَى مُحَادَثَتِهَا فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ ، فَقَدْ كَانَ لَهَا هَيْبَةٌ تَأْخُذُ بِقُأُوبِ الرِّجَالِ وَتَعْقِدُ أَلْسِنَتَهُمْ ، وَكَانَ لَهَا شَخْصِيَّةٌ يَصْغُرُ أَمَامَهَا الْكِبَرَاءُ ، فَيَلْجَأُونَ إِلَى الْوُسْطَاءِ وَالْوَسِيطَاتِ ، لَكِنَّهَا كَانَتْ مَاضِيَةً فِي الطَّرِيقِ الَّتِي رَسَمَتْهَا .

غَيْرَ أَنَّهَا كَانَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ نَائِمَةً فِي فِرَاشِهَا ، بَعْدَ سَهْوَةٍ امْتَدَّتْ إِلَى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، حَسَبَتْ فِيهَا أَثْمَانَ السَّلْعِ الَّتِي أُرْسِلَتْ إِلَى الْيَمَنِ ، وَقَدَّرَتْ مَا يُرْجَى لَهَا مِنَ الرَّبْحِ ، بَعْدَ حِسَابِ النَّفَقَاتِ ، وَمَا يَخْرُجُ مِنَ الصَّدَقَاتِ .

فَإِذَا بِهَا تَرَى السَّمَاءَ الصَّافِيَّةَ ، وَالشَّمْسَ السَّاطِعَةَ ، وَالذُّنُبَا كُلَّهَا جَمِيلَةً حُلْوَةً ، ثُمَّ تَنْظُرُ فَإِذَا بِالشَّمْسِ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ،

قَدْ اَزْدَادَتْ اَشْعَمُهَا ، وَكَبِرَ قُرْصُهَا وَاشْتَدَّ نُورُهَا ضِيَاءً ،
فَتَدْخُلُ دَارَهَا ، وَتَمْلُؤُهَا بِالنُّورِ ، وَتَغْمُرُهَا بِالضِّيَاءِ ، ثُمَّ تَبْعَثُ
النُّورَ إِلَى مَا حَوْلَهَا مِنْ مَكَّةَ ، ثُمَّ تَمْتَدُّ بِهِ إِلَى مَا بَعْدَ مَكَّةَ ،
حَتَّى تَغْمُرَ بِقَاعِ الْأَرْضِ كُلِّهَا .

فَهَبَّتْ مِنْ نَوْمِهَا ، وَفَتَحَتْ عَيْنَيْهَا فِي جَوَانِبِ الدَّارِ ،
فَوَجَدَتْهَا كَمَا هِيَ لَمْ تَتَغَيَّرْ ، وَوَجَدَتْ جَوَارِبَهَا نَائِمَاتٍ ،
مُسْتَغْرِقَاتٍ فِي نَوْمِهِنَّ ، وَالْدُنْيَا سَاكِنَةً ، وَاللَّيْلُ هَادِيَةٌ ،
فَجَلَسَتْ فِي فِرَاشِهَا تُفَكِّرُ فِي تِلْكَ الشَّمْسِ الَّتِي كَانَتْ فِي الدَّارِ ،
حَتَّى بَدَأَتْ تَبَاشِيرُ الصَّبَاحِ ، فَأَرْتَدَّتْ مَلَابِسَهَا ، وَدَعَتْ بَعْضَ
خَدَمِهَا ، وَأَسْرَعَتْ إِلَى بَيْتِ ابْنِ عَمِّهَا وَرَقَّةَ بْنِ نَوْفَلٍ .

قَالَ وَرَقَّةُ فِي دَهْشَةٍ :

— مَاذَا جَاءَ بِكَ يَا خَدِيجَةُ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ الْمُبَكَّرَةِ ، وَمِثْلِكَ
لَا يُوقِظُهُنَّ إِلَّا صُوفَاءُ مَكَّةَ ، حِينَ يَنْتَصِفُ النَّهَارُ ؟
قَالَتْ خَدِيجَةُ ، وَأَثَرُ دَهْشَتِهَا مُرْتَسِمٌ فِي وَجْهِهَا :
— خَيْرًا يَا وَرَقَّةُ ، هَلْ عِنْدَكَ تَأْوِيلُ^(١) الرُّؤْيَا ؟

(١) تأويل الرؤيا : تفسيرها وتعبيرها .

فَأَصْغَى وَرَقَةً إِلَيْهَا وَهِيَ تَقْصُّ عَلَيْهِ قِصَّةَ الشَّمْسِ الْكَبِيرَةِ
الْمُتَلَالِثَةِ (١) ، وَوَجْهَهُ يُشْرِقُ كُلَّمَا تَقَدَّسَتْ فِي قِصَّتِهَا ،
وَأَسَارِيرُهُ تَنْفَرِجُ (٢) كُلَّمَا اقْتَرَبَتْ مِنْ تَمَامِهَا ، حَتَّى انْتَهَتْ ،
فَصَاحَ فِي سُرُورٍ :

— هَنِيئًا يَا خَدِيجَةُ ! سَتَتَزَوَّجِينَ يَا بَنَّةَ عَمِّي !

فَاشْتَدَّتْ بِهَا الدَّهْشَةُ ، وَصَاحَتْ فِي غَضَبٍ :

— عَلِمْتَ يَا وَرَقَةُ أَنْنِي تَرَكْتُ الرُّجَالَ ، وَأَلْتَفْتُ إِلَى مَا هُوَ
أَهَمُّ ! عَرَفْتَ أَنَّنِي وَهَبْتُ نَفْسِي لِأَبْنَائِي وَتِجَارَتِي ، فَهَلْ
تَعْجُدُ ؟ !

أَعِذْ النَّظَرَ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الرُّؤْيَا ، إِذَا كُنْتَ لَا تَمْرَحُ :
فَقَدْ تَهَدَّى إِلَى شَيْءٍ آخَرَ فَإِنِّي لَنْ أَتَزَوَّجَ !

فَزَادَتْ ابْتِسَامَةً وَرَقَةُ انْفِرَاجًا ، ثُمَّ قَالَ فِي رِفْقٍ :

— سَتَتَزَوَّجِينَ يَا خَدِيجَةُ .

لِأَنَّنِي لَا أَحِبُّ الْهَزْلَ ، وَأَنْتِ تَعْرِفِينَنِي وَتَعْرِفِينَ طَرِيقِي .

(١) المتلألئة : اللامعة .

(٢) وأساريره تنفرج : يظهر السرور على وجهه .

— ٦٠ —

إِنَّكَ سَتَتَزَوَّجِينَ الشَّمْسَ الْمُضِيئَةَ الَّتِي سَتَقْشَعُ^(١) الظَّالَمَ
وَتُنِيرُ الدُّنْيَا ، وَتَهْدِي النَّاسَ سِوَاءَ السَّبِيلِ^(٢) بَعْدَ مَا ضَلُّوا
وَعَمُوا^(٣) . .

سَتَتَزَوَّجِينَ يَا خَدِيجَةُ رَجُلًا غَيْرَ الرَّجَالِ !

سَتَتَزَوَّجِينَ نَبِيًّا يَا خَدِيجَةُ !

فَانْتَفَضَتْ خَدِيجَةُ ، كَأَنَّهَا كَانَتْ فِي حُلُمٍ ثُمَّ أَفَاقَتْ مِنْهُ ،
وَلَمْ تَتَكَلَّمْ ، وَاسْتَأْنَفَ وَرَقَةً قَائِلًا :

— سَيُبْعَثُ هَذَا النَّبِيُّ يَاخَدِيجَةُ مِنْ بَيْنِ الْعَرَبِ ، كَمَا جَاءَ
فِي الْكِتَابِ الَّتِي قَرَأْتُهَا ، وَقَدْ قُرِبَ زَمَانُهُ ، وَسَيَخْتَارُ اللَّهُ لَهُ
زَوْجَةً صَالِحَةً تَقُومُ مَعَهُ وَتُعِينُهُ وَتُجَاهِدُ أَعْدَاءَهُ .

أَلَيْدِكَ الْإِسْتِعْدَادُ لِذَلِكَ الْجِهَادِ يَاخَدِيجَةُ ؟ !

أَعِدِّي نَفْسَكَ مِنَ الْيَوْمِ فَرُؤْيَاكِ تُؤَكِّدُ أَنَّكَ زَوْجُ ذَلِكَ
النَّبِيِّ !

(١) سَتَقْشَعُ : سَتَزِيلُ .

(٢) سِوَاءَ السَّبِيلِ : طَرِيقَ الْحَقِّ .

(٣) ضَلُّوا وَعَمُوا : تَاهَوْا عَنْ الْحَقِّ .

فقامتُ خديجةً إلى دارِها ، بَيْنَ المصدِّقةِ والمُكذِّبةِ ،
تَقُولُ لِنَفْسِهَا فِي حَيْرَةٍ :

— قَدْ يَكُونُ مَا قَالَهُ وَرَقَةٌ حَقًّا ، وَقَدْ يَكُونُ قَدْ فَسَّرَ هَذِهِ
الرُّؤْيَا عَلَى مِقْدَارِ اجْتِهَادِهِ .

فَمَا الْعَلَاقَةُ بَيْنَ هَذِهِ الشَّمْسِ الْكَبِيرَةِ ، وَبَيْنَ ذَلِكَ النَّبِيِّ ؟ !
وَكَيْفَ اسْتَطَاعَ وَرَقَةُ أَنْ يُحَدِّدَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ مِنَ الْعَرَبِ ،
وَأَنْنِي سَأَكُونُ زَوْجَهُ ؟ ! !

حَتَّى بَلَغَتْ بَيْتَهَا ، فَانْصَرَفَتْ إِلَى عَمَلِهَا ، وَأَصْبَحَتْ هَذِهِ
الرُّؤْيَا وَذَلِكَ التَّأْوِيلُ شُغْلَهَا الشَّاعِلَ ، وَلِنْ لَمْ تَتَحَدَّثْ بِهِ إِلَى
أَحَدٍ .

— ٦٢ —

الأسئلة

(١)

«أصبح بيت خديجة من البيوت التجارية الكبيرة في مكة ، وصارت مخازنها ، أوسع المخازن وأشهرها ، وامتاز مالها وتجارها بالحلال والحق» .

(أ) ما العوامل التي ساعدت «خديجة» على تحقيق ما تشير إليه العبارة السابقة ؟

(ب) ما موقف الناس من دخول «خديجة» ميدان التجارة ؟
(ج) ماذا فعلت «خديجة» أمام نقد الناقدين ؟ وما دلالة ذلك على شخصيتها ؟

(٢)

ما أثر زيادة مال «خديجة» واتساع شهرتها في نفوس عظماء مكة ؟

(٣)

«أصغى ورقة إليها وهي تقص عليه قصة الشمس الكبيرة

— ٦٣ —

المتألثة ، ووجهه يشرق كلما تقدمت في قصتها ، وأساريه
تنفرج كلما اقتربت من تمامها ، حتى انتهت ، فصاح في
سرور :

هنيئاً يا «خديجة» ستزوجين يابنة عمى !

(أ) ما سر إشراق وجه «ورقة» ؟ وما معنى «أساريه
تنفرج» ؟

(ب) بم أول «ورقة الرؤيا» ؟

(ج) ما موقف «خديجة» من هذا التأويل ؟ ولماذا ؟

* * *

٨، عرض

اقْتَرَبَ مَوْعِدُ قَافِلَةِ الْيَمَنِ ، وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلٍ أَقْبَلَ
الْبَشِيرُ يُعْلِنُ وُرُودَ الْعَمِيرِ ^(١) فَزَادَتْ الْحَرَكَةُ فِي دَارِ
خَدِيدِجَةَ ، وَاسْتَعَدَّتْ الْمَخَازِنُ لِاسْتِقْبَالِ السِّلْعِ الْجَدِيدَةِ ،
وَوَفَدَ عَلَى الدَّارِ الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ اعْتَادُوا أَنْ يَزُورُوا خَدِيدِجَةَ
إِذَا أَقْبَلَتِ الْقَافِلَةُ ، لِيَسْأَلُوا مَا تَتَفَضَّلُ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَنَشِطَتْ
الْجَوَارِي ، تُذَكِّرُهَا كُلُّ مِنْهُنَّ بِمَا وَعَدَتْ مِنْ تَخَفَةِ
تَجْمِينَةِ مِنَ نَسِيجِ الْيَمَنِ الْمُرَرَّكَشِ ^(٢) .

فَلَمَّا أَقْبَلَتِ الْقَافِلَةُ ، نُقِلَتْ سِلْعُ خَدِيدِجَةَ إِلَى مَخَازِنِهَا ،
كَمَا نُقِلَتْ سِلْعُ كُلِّ تَاجِرٍ إِلَى مَخَازِنِهِ ، وَجَلَسَتْ إِلَى
رِجَالِهَا تَسْمَعُ مِنْهُمْ أَخْبَارَ الرُّحْلَةِ وَأَخْبَارَ الْمَالِ ، تَسْأَلُهُمْ

(١) ورود العمير : قدوم إبل ، التجارة .

(٢) المزركش : المزخرف .

وَيُجِيبُونَ ، ثُمَّ يُبَلِّغُونَهَا تَحِيَّاتِ عُمَّلَائِهَا الْمُعْجَبِينَ بِهَا ،
الَّذِينَ يَتَمَنَّوْنَ رُؤْيَيْتَهَا ، وَهِيَ بِاسِمَةٍ لَّمَّا تَسْمَعُ .

فَلَمَّا أَتَمَّ عُمَّالُهَا أَحَادِيثَهُمْ ، وَوَقَفَتْ مِنْهُمْ عَلَى مَا
أَرَادَتْ ، مَنَحَتْهُمْ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنَ الْأَجْرِ ، وَمَا اشْتَرِطَ
لَهُمْ مِنْ نَصِيبٍ فِي الْأَرْبَاحِ ، لَمْ تَبْخَسْ ^(١) أَحَدًا شَيْئًا مِنْ
حَقِّهِ ، بَلْ زَادَتْ ، عَلَى مَا اشْتَرَطُوا ، فَخَرَجُوا مَسْرُورِينَ ،
شَاكِرِينَ لَهَا كَرَمَهَا وَحُسْنَ مُعَامَلَتِهَا .

ثُمَّ ذَهَبَتْ إِلَى مَخَازِنِهَا ، وَأَلْقَتْ نَظْرَةً عَلَى السِّلْعِ ،
وَأَخَذَتْ بَعْضًا مِنَ التَّحَفِ وَأَهْلَتْهَا إِلَى جَوَارِيهَا ، فَرَقَصْنَ
طَرَبًا ، ثُمَّ جَلَسَتْ كُلُّ مِنْهُنَّ إِلَى الْأُخْرَى تُرِيهَا نَسِيجَهَا ،
وَنَقْشَهُ ، وَمَا يَمْتَّازُ بِهِ مِنْ لَوْنٍ أَبْيَضٍ نَاصِعٍ ^(٢) الْبَيَاضِ ،
أَوْ أَحْمَرَ شَدِيدِ الْحُمْرَةِ ، تَخْلُقُ كُلُّ وَاحِدَةٍ فِي هَدِيَّتِهَا
مِيزَةً وَإِنْ كَانَتْ الْهَدَايَا كُلُّهَا مُتَسَاوِيَةً الْجُودَةِ .

ثُمَّ أَخَذَتْ خَدِيجَةً تَسْتَعِدُّ لِرِحْلَةِ الصَّيْفِ الَّتِي تَسِيرُ

(١) لم تبخس : لم تنقص .

(٢) ناصع : شديد البياض .

بمُتَاجِرِ الْيَمَنِ إِلَى الشَّامِ ، وَوَفَدَ عَلَيْهَا الرِّجَالُ يَعْزِضُونَ
خَدَمَاتِهِمْ ، وَيَسْأَلُونَهَا أَنْ تُرْسِلَهُمْ فِي تِجَارَتِهَا .

وَأَخَذَ الْعُمَّالُ يَحْزِمُونَ السَّلَعَ ، وَيُعِدُّونَ الْجِمَالَ ،
وَقَرَّبَ الْمَاءَ ، وَأَوْعِيَةَ الزَّادِ وَهِيَ تُشْرِفُ بِنَفْسِهَا عَلَى كُلِّ
صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ . وَتَوَجَّهَ إِلَى مَا يَجِبُ أَنْ يُؤْخَذَ ، وَمَا يَجِبُ
أَنْ يُتْرَكَ .

فَلَمَّا اقْتَرَبَ مَوْعِدُ الرَّحِيلِ ، ذَهَبَ إِلَيْهَا أَبُو طَالِبٍ
ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، ابْنُ هَاشِمٍ سَيِّدُ مَكَّةَ ، فَقَابَلَتْهُ
بِاخْتِرَامٍ ، وَجَلَسَا يَتَحَدَّثَانِ فِي أُمُورِ الْقَافِلَةِ وَالتَّجَارَةِ ،
وَالرَّيْحِ وَالْخُسَارَةِ ، وَمَا يُؤَدِّيهِ الْعُمَّالُ الْمُجِدُّونَ مِنْ
جَهْدٍ يُفِيدُ ، وَمَا يَجْلِبُهُ الْمُهْمِلُونَ عَلَى السَّلَعِ مِنْ بَوَارٍ^(١)

وَتَحَدَّثَتْ خَدِيجَةُ بِطَلَاقٍ عَنْ عُمَّالِهَا وَتِجَارَتِهَا . وَعَنْ
كَثِيرِينَ مِنْ يُعَاوِنُونَهَا ، وَمِقْدَارِ إِخْلَاصِ كُلِّ مِنْهُمْ
فِي عَمَلِهِ وَآثَرِ هَذَا الْإِخْلَاصِ فِي رَوَاجِ التَّجَارَةِ وَكَثْرَةِ
الْأَرْبَاحِ ، وَفِيمَا يَخْصُلُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرِ وَمُكَافَأَةٍ ،

(١) بوار : كساد .

وَأَبُو طَالِبٍ شَدِيدُ السُّرُورِ بِفَهْمِهَا لِدَقَائِقِ الْأُمُورِ ، وَبَصَرِهَا ^(١)
بِمَوَاطِنِ النَّفْعِ وَالضَّرَرِ ، يَمْدَحُ عَمَلَهَا ، وَرِعَايَتَهَا لِعَمَالِهَا ،
وَحُسْنَ اخْتِيَارِهَا لِلرُّجَالِ الَّذِينَ تَكِلُ ^(٢) إِلَيْهِمْ مَالَهَا .

وَتَشَعَّبَ الْحَدِيثُ وَدَارَ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَى نَاحِيَةٍ ، وَمِنْ
نَوْعٍ مِنَ السَّلْعِ إِلَى نَوْعٍ ، وَمِنْ رَجُلٍ إِلَى رَجُلٍ ، حَتَّى
وَجَدَ أَبُو طَالِبٍ الْفُرْصَةَ ^(٣) لِلْحَدِيثِ فِيمَا جَاءَ مِنْ
أَجْلِهِ .

وَكَانَ ابْنُ أَخِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَدْ بَلَغَ الْخَامِسَةَ
وَالْعِشْرِينَ وَلَمْ يَتَزَوَّجْ ، لِأَنَّهُ لَا مَالَ لَهُ يُعِينُهُ عَلَى
الزَّوْاجِ ، وَكَانَ يَرْغَى الْغَنَمَ لِأَهْلِ مَكَّةَ لِأَنَّهُ نَشَأَ فَقِيرًا ،
وَلِنْ كَانَ أَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ سَيِّدَ مَكَّةَ .

فَفَكَّرَ عَمَّهُ فِي أَنْ يَجِدَ لَهُ عَمَلًا مُرَبِحًا أَكْثَرَ مِنْ
رَغْبَى الْغَنَمِ ، يَسْتَعِينُ بِفَضْلِهِ عَلَى الزَّوْاجِ وَبِنَاءِ أُسْرَةٍ

(١) بصرها : معرفتها .

(٢) تكل اليهم : تسلمهم .

(٣) الفرصة : الوقت المناسب .

جَدِيدَةً ، فَذَهَبَ إِلَى خَدِيجَةَ يَسْأَلُهَا عَمَلًا لَهُ ، فَلَمَّا وَجَدَ
الْفُرْصَةَ لِلْحَدِيثِ عَنْ قَصْدِهِ ، قَالَ بَايِمًا :

- وَمَا رَأَيْتُكَ يَا خَدِيجَةُ فِي مُحَمَّدٍ بَنِي عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَخِي ؟
أَتَرَيْنَاهُ يَصْلُحُ لِلْقِيَامِ بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ فِي قَافِلَةِ الشَّامِ ،
الَّتِي تَتَأَهَّبُ^(١) لِلرَّحِيلِ ؟

فَدَقَّ قَلْبُ خَدِيجَةَ ، وَأَحْسَتْ بِوَقْعِ هَذَا الْأَسْمِ عَلَى
فُؤَادِهَا ، وَكَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ مَلَأَ الْأَسْمَاعَ بِأَمَانَتِهِ ، وَصِدْقِهِ ،
وَإِخْلَاصِهِ ، فِي عَمَلِهِ ، وَبُعْدِهِ عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي يَسِيرُ فِيهَا
شَبَابُ مَكَّةَ ، وَلَمْ يَصْرِفْهُ حُسْنُهُ وَقُوَّتُهُ إِلَى مَا يَنْصَرِفُ
إِلَيْهِ أَمْثَالُهُ ، فَكَانَ مِثَالَ الْعِفَّةِ وَالطَّهَارَةِ . فَقَالَتْ
خَدِيجَةُ بِاسْمَةٍ :

مِثْلُ مُحَمَّدٍ تَلْقَى إِلَيْهِ الْأَمَانَاتُ وَيُوثِقُ بِهِ . لَكِنَّهُ
لَمْ يُجَرِّبِ الطَّرِيقَ مِنْ قَبْلُ !

فَطَمَأَنَّاها أَبُو طَالِبٍ إِلَى مَعْرِفَتِهِ بِالطَّرِيقِ ، لِأَنَّهُ صَاحِبُهَا
فِيهَا حِينَ كَانَ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ سِنِّهِ ، وَأَنَّهُ أَذْرَكَهَا

(١) تَتَأَهَّبُ : تَسْتَعِدُّ .

وَوَعَاَهَا^(١) . أَكْثَرَ مِمَّا يُدْرِكُهُ غَيْرُهُ مِمَّنْ يَكْبُرُونَهُ ، وَهُوَ قَوِيٌّ قَادِرٌ عَلَى مُقَاوَمَةِ السَّفَرِ وَعَنَائِهِ . وَلَهُ خَبْرَةٌ بِالتَّجَارَةِ وَأُمُورِهَا . حَاسِبٌ مَاهِرٌ ، وَمُدَبِّرٌ مُفَكِّرٌ ، قَدْ عَوَّدَهُ رَحْمَى الْغَنَمِ الدَّقَّةَ وَالصَّبْرَ ، وَحُسْنَ تَصْرِيفِ الْأُمُورِ .

كَانَتْ خَدِيجَةُ تَسْتَمِيعُ لِأَبِي طَالِبٍ ، وَذَهْنُهَا سَابِحٌ مَعَ الْأَيَّامِ ، تَتَذَكَّرُ يَوْمَ وُلِدَ مُحَمَّدٌ ، وَفَرَحَةَ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ . وَاشْتِرَاكَهَا مَعَ مَكَّةَ فِي هَذِهِ الْفَرَحَةِ حِينَ كَانَتْ فِي الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ .

ثُمَّ تَرَى مَكَّةَ وَهِيَ تُرُدُّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ عَنْ ذَبْحِ ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَتَتَذَكَّرُ مِنْ بَعِيدٍ يَوْمَ الذَّبْحِ وَالْفِدَاءِ الْكَبِيرِ

ثُمَّ تَرَى لَيْلَةَ زَفَافِهَا الَّتِي اخْتَفَلَتْ مَكَّةُ بِهَا وَقَدْ كَانَتْ مِنْ قَبْلُ لَا تُقِيمُ الْأَفْرَاحَ مُشَارَكَةً لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِي حُزْنِهِ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ ، حَتَّى كَانَتْ لَيْلَةَ زَفَافِهَا ، وَعَبْدُ الْمُطَّلِبِ مَسْرُورٌ لِمِيلَادِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ .

(١) وعَاها : حفظها .

تَذَكَّرْتُ كَيْفَ نَشَأَ مُحَمَّدٌ يَتِيمًا ، وَكَيْفَ فَقَدَ أُمَّهُ
صَغِيرًا بَعْدَ أَبِيهِ ، وَكَيْفَ سَارَ فِي الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ
مَعَ أَنَّهُ يَتِيمٌ الْآبِ وَالْأُمِّ ، فَوَجَدْتُ شَفَتَيْهَا تُرَدِّدَانِ
فِي سُورٍ :

— رَضِيتُ يَا أَبَا طَالِبٍ ، وَلَوْ طَلَبْتَ هَذَا لِلْبَعِيدِ
لَأَجَبْنَا ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْحَبِيبِ الْقَرِيبِ ؟ !

فَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُ أَبِي طَالِبٍ ، وَصَمَتَ قَلِيلًا ، وَنَظَرَ
إِلَى خَدِيدَجَةَ شَاكِرًا ، ثُمَّ حَاوَلَ الْكَلَامَ ، فَفَهِمَتْ مَا يَوَدُّ
أَنْ يَقُولَ ، فَأَسْرَعَتْ بِاسِمَةٍ :

— سَأُحَقِّقُ رَغْبَتَكَ يَا أَبَا طَالِبٍ .

لَنْ أَجْعَلَ أَجْرَ مُحَمَّدٍ كَأَجْرِ مِثْلِهِ مِنْ يَذْهَبُونَ فِي
تِجَارَتِي ، سَأُعْطِيهِ ضِعْفَ مَا يَأْخُذُونَ ، فَلَيْسَ قَدْرُ
مُحَمَّدٍ كَأَقْدَارِ النَّاسِ ، فَمُحَمَّدٌ عِنْدَ النَّاسِ كَبِيرٌ ،
وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَجْرُهُ كِفَاءً^(١) بِمَنْزِلَتِهِ .

(١) كفاء منزلته : مقدار ما يساوى مكانته .

— ٧١ —

فَكَرَّرَ أَبُو طَالِبٍ شُكْرَهَا ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَهَا فِي الْإِنْصِرَافِ
لِيَزِفَ الْخَبَرَ لِابْنِ أَخِيهِ ، وَذَهَبَ مُسْرِعًا إِلَى بَيْتِ مُحَمَّدٍ
ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ .

الأسئلة

(١)

« ثم ذهبت إلى مخازنها ، وألقت نظرة على السلع ،
وأخذت بعضها من التحف ، وأهدتها إلى جوارها ، فرقصن
طربا ، ثم جلست كل منهن إلى الأخرى تريها نسيجها ،
ونقشها ، وما يمتاز به . »

(أ) ضع مفرد « التحف » في جملة توضح معناها .

(ب) لماذا ذهبت خديجة إلى مخازنها ؟ وماذا فعلت ؟

(ج) ماذا صنعت الجوارى بعد أخذ الهدايا ؟

(٢)

« لن أجعل أجر « محمد » كآجر مثله ممن يلهيون
في تجارتى ، سأعطيهم ضعف ما يأخذون ، فليس قدر

— ٧٢ —

محمد كَمَا قَدَّارِ النَّاسِ ، « فَمُحَمَّدٌ » عِنْدَ النَّاسِ كَبِيرٌ ، وَلَا بَدَّ
أَنْ يَكُونَ أَجْرُهُ ، كَفَاءَ مَنْزِلَتِهِ .

(أ) مِنْ الْقَائِلِ ؟ وَمَا الْمُنَاسِبَةُ ؟

(ب) مَا مَعْنَى (قَدَّرَ مُحَمَّدٌ) ؟ اذْكُرْ مِنْ هَذَا الْفَصْلِ
مَا يَدُلُّ عَلَى قَدْرِهِ .

(ج) (لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ أَجْرُهُ كَفَاءَ مَنْزِلَتِهِ ،) - وَضَحْ
مَعْنَى الْجُمْلَةِ ، وَاذْكُرْ دَلَالَتَهَا عَلَى مَنْ قِيلَتْ فِيهِ « .

* * *

(٩) لقاء

سُرَّ مُحَمَّدٌ بِمَا نَقَلَ إِلَيْهِ عَنْهُ مِنْ حَدِيثِ خَدِيجَةَ ،
وَأَشَارَ عَلَيْهِ عَنْهُ بِالذَّهَابِ إِلَى بَيْتِهَا ، لِيَنْظُرَ مَا تَسَاهَرُ
بِهِ ، فَذَهَبَ إِلَيْهَا .

وَجَدَ دَارًا فَسِيحَةً الْجَنَابَاتِ ذَاتَ طَائِقِينَ كَبِيرِينَ ،
لَهَا بَابٌ وَاسِعٌ يُوحِي إِلَى مَنْ يَرَاهُ بِعَظَمَةِ الدَّارِ ، وَعَظَمَةِ
أَصْحَابِهَا ، وَوَجَدَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَدْخُلُونَ وَيَخْرُجُونَ ،
مِنْهُمْ الْكَبِيرُ ، وَمِنْهُمْ الصَّغِيرُ ، وَمِنْهُمْ النِّسَاءُ ، وَمِنْهُمْ
الرِّجَالُ ، مِنْهُمْ مَنْ يَحْمِلُ شَيْئًا ، وَمَنْ لَا يَحْمِلُ شَيْئًا ،
وَالْجَوَارِي وَالْخَدَمُ يَذْهَبُونَ وَيَجِيئُونَ فِي حَرَكَةٍ دَائِبَةٍ ،
مَلَابِسُهُمْ نَظِيفَةٌ ، وَوُجُوهُهُمْ مُشْرِقَةٌ ، فَاسْتَأْذَنَ عَلَى
خَدِيجَةَ فَأَذْنَتْ لَهُ .

دَخَلَ مِنَ الْبَابِ الْوَاسِعِ إِلَى الْفِنَاءِ الْكَبِيرِ ، ثُمَّ سَارَ
بِهِ ، الْخَادِمُ إِلَى غُرْفَةٍ مِنَ الْغُرَفِ ، وَتَقَدَّمَتْهُ إِلَيْهَا ، فَوَجَدَ .

غرفةً فسيحةً مفروشةً بالبُسطِ الثمينةِ . عليها ألوانٌ من
الطُنافيسِ البديعةِ ، وفوقَ جدرانِها نقوشٌ دقيقةٌ ،
وتصاويرٌ جميلةٌ ، فجلسَ في جانبٍ من جوانبِ الحجْرةِ
يَنْتَظِرُ .

ولمَ يَطلُ بِهِ المُقَامُ ، حتَّى دَخَلَتْ عليهِ امرأةٌ مُستديرةُ
الوجهِ ، واسعةُ العَيْنَيْنِ ، طويلةُ الشَّعرِ نافِذةُ النَّظَرَاتِ ،
بَيضاءَ البَشَرَةِ ، تَكْسُو شَفَتَيْهَا ابْتِسَامَةٌ ، عَرِيضَةٌ ، تَرْتَدِي
ثَوْبًا مِنَ الحَرِيرِ الخَالِصِ ، المُطَرَّزِ بالنُّقُوشِ الجَمِيلَةِ ،
وفي قَدَمَيْهَا خُفَّانِ مِنَ الجُلُودِ الغَالِيَةِ ، يُحِيطُ عُنُقُهَا
عِقْدٌ مِنَ الجَوْهَرِ ، وَيَتَدَلَّى مِنْ أُذُنَيْهَا قُرْطٌ مِنَ الدُّرِّ .

فَوَقَّفَ وَحْيَاهَا ، وَرَدَّ تَحِيَّتَهَا ، ثُمَّ أَذِنَتْ لَهُ بِالْجُؤِوسِ ،
وَجَلَسَتْ بَعِيدًا مِنْهُ ، وَكَانَتْ قَدْ نَسِيَتْ — أَوْ كَادَتْ (١) —
حُلْمَهَا الَّذِي رَأَتْهُ مِنْذُ سَنَوَاتٍ ، وَفَسَّرَهُ ابْنُ عَمِّهَا وَرَقَّةُ
بْنُ نُوْفَلٍ بِأَنَّهَا سَتَتَزَوَّجُ وَأَنَّ زَوْجَهَا سَيَكُونُ نَبِيًّا .

لَكِنَّهَا حِينَ رَأَتْ مُحَمَّدًا تَذَكَّرَتْ ذَلِكَ الحُلْمَ ، وَأَحْسَتْ

(١) كادت : قريت .

أَنَّهُا تَعِيشُ فِيهِ ، وَكَأَنَّهَا ، نَائِمَةٌ تَرَى تِلْكَ الشَّمْسَ
الَّتِي دَخَلَتْ بَيْتَهَا ، وَذَلِكَ النُّورَ الَّذِي غَمَرَ الْبَيْتَ ،
وَفَاضَ عَلَى مَا حَوْلَهُ ، وَأَخَذَ يَمْتَدُّ حَتَّى غَمَرَ الْعَالَمَ كُلَّهُ .

وَأَحْسَتْ أَنَّهَا أَمَامَ فَتَى ذِي هَيْبَةٍ ، وَجَلالٍ ، وَقُوَّةٍ
نَفْسٍ ، فَمَلَكْتَ شُعُورَهَا ، وَأَخَذَتْ تُحَدِّثُهُ عَنِ الْقَافِلَةِ ،
وَالتَّجَارَةِ ، وَالسَّلْعِ ، وَمَا يُنْتَظَرُ مِنَ الرُّبْحِ ، وَعَنِ الطَّرِيقِ ،
وَأَمْنِهَا ، وَخَوْفِهَا . وَمَا اسْتَفَادَتْ مِنْ رِحَالِ عُمَّالِهَا
السَّابِقِينَ ، وَتَعُدُّ لَهُ الْمَرَا حِلَّ^(١) الَّتِي تَقْطَعُهَا الْجِمَالُ فِي
طَرِيقِهَا ، وَالْمَوَاقِفَ الَّتِي تَقِفُ عِنْدَهَا وَتَتَزَوَّدُ مِنْهَا ،
وَالْقِبَائِلَ الَّتِي تَتَجَرَّعُ مَعَهَا عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ ، وَعُمَّالَهَا^(٢)
الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ تِجَارَتَهَا فِي الشَّامِ وَيُقْبِلُونَ عَلَيْهَا .

وَهُوَ مُطَرِّقٌ يَسْتَمِيعُ إِلَى حَدِيثِهَا ، وَيَدْعُ لَهَا أَنْ تَتَكَلَّمَ ،
حَتَّى انْتَهَتْ فَقَامَ وَحِيَّاهَا ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ ،
وَبَقِيَتْ تُفَكِّرُ فِيهَا رَأَتْ ، فَتَجِدُ أَنَّ مُحَمَّدًا كَمَا يَصِفُهُ

(١) المراحل : جمع مرحلة وهى ما يقطعه المسافر فى يوم .

(٢) عملاءها : من يتجرون معها .

النَّاسُ ، وَفَوْقَ مَا كَانَتْ تَسْمَعُهُ ، ثُمَّ تَجِدُ فِي قَلْبِهَا
مَحَبَّةً لَهُ ، وَعُطْفًا عَلَيْهِ .

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الرَّحِيلِ ، سَلَّمَتْهُ مَالَهَا ، وَزَوَّدَتْهُ بِنَصَائِحِهَا ،
وَبَعَثَتْ مَعَهُ غُلَامًا لَهَا اسْمُهُ مَيْسَرَةَ ، وَأَمَرَتْ هَذَا الْغُلَامَ
أَنْ يُطِيعَهُ وَيُنْفِذَ أَمْرَهُ ، وَوَدَّعَتْهُ كَمَا وَدَّعَتْ غَيْرَهُ مِنْ
الرَّاحِلِينَ ، ثُمَّ وَقَفَتْ تَنْظُرُ الْقَافِلَةَ وَهِيَ تَبْتَعِدُ حَتَّى
غَابَتْ عَنِ الْأَنْظَارِ ، مُنْطَلِقَةً إِلَى الشَّامِ ، وَمُحَمَّدٌ عَلَى
بَعِيرِهِ ، وَمَيْسَرَةُ بِجَانِبِهِ عَلَى بَعِيرٍ آخَرَ .

كَانَتْ الْقَافِلَةُ تَشُقُّ طَرِيقَهَا بَيْنَ الْجِبَالِ وَالرَّمَالِ ،
وَمُحَمَّدٌ فَرِحَ بِذَلِكَ الرَّحِيلِ ، يَقْضِي لَيْلَهُ نَازِرًا إِلَى
السَّمَاءِ . مُتَّامِلًا فِي صُنْعِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَنِظَامِ هَذِهِ الرُّقْعَةِ
الْفَسِيحَةِ ، وَمَا فِيهَا مِنْ مَصَابِيحَ تَتَلَأَلُ هُنَا وَهُنَا ،
كَأَنَّهَا عُيُونٌ يَنْظُرُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ .

وَيَقْضِي نَهَارَهُ مُتَّامِلًا فِي تِلْكَ الصَّحْرَاءِ الْفَسِيحَةِ ،
وَرِمَالِهَا الدَّقِيقَةِ ، وَجِبَالِهَا الرَّاسِيَةِ حَوْلَ الطَّرِيقِ كَأَنَّهَا ،
حُرَاسٌ ضَخَامٌ يَحْفَظُونَ الْأَرْضَ أَنْ تَتَحَرَّكَ .

كَانَ الرَّكْبُ يُسْرِعُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى غَايَتِهِ^(١) وَخَلِيجُهُ
تُفَكِّرُ فِي تِلْكَ الشَّمْسِ الَّتِي رَأَتْهَا فِي رُؤْيَاها مُنْذُ بَعِيدٍ
تَدْخُلُ دَارَهَا . وَتُعِيدُ تَأْوِيلَ «وَرَقَّة» ابْنِ عَمِّهَا ، وَمَا
وَصَفَ بِهِ ذَلِكَ النَّبِيَّ مِنْ صِفَاءِ النَّفْسِ وَقُوَّتِهَا ، وَطِيبَةِ
الْقَلْبِ ، وَالشَّهَامَةِ ، وَالصُّدُقِ ، وَالْأَمَانَةِ ، فَتَجِدُ كُلَّ
ذَلِكَ فِي مُحَمَّدٍ ، تَحَقِّقَتُهُ مُنْذُ رَأَتْهُ ، كَأَنَّهُ الشَّمْسُ الَّتِي
ظَهَرَتْ لَهَا فِي مَنَامِهَا .

فَخَلَّتْ إِلَى نَفْسِهَا سَاعَاتٍ ، وَكَادَتْ تُسْرِئُ بِمَا فِي قَلْبِهَا
لَاأُحْدَى صَفِيَّاتِهَا ، ثُمَّ آثَرَتْ^(٢) أَنْ تَصْبِرَ حَتَّى تَنْجَلِيَ^(٣)
صِفَاتُ هَذَا الرَّجُلِ ، لَكِنَّ مَيْلَهَا إِلَيْهِ يَزْدَادُ . وَإِحْسَاسُهَا
بِمَحَبَّتِهِ يَكْبُرُ كُلَّمَا تَقَدَّمَتِ الْقَافِلَةُ فِي طَرِيقِهَا ، وَوَجَدَتْ
نَفْسَهَا تُحَدِّثُهَا فِي حَيْرَةٍ :

— مَاذَا بِكَ يَا خَلِيجَةُ ؟ ! صَدَدَتْ^(٤) عَنِ الرُّجَالِ ،
وَانْصَرَفَتْ عَنِ الزَّوْجِ ، وَطَابَتْ لَكَ حَيَاتُكَ ، وَرَفُضْتَ

(١) غايته : مقصده .

(٢) آثرت : فضلت .

(٣) تنجلي : تنكشف .

(٤) صددت : أعرضت .

رُؤَسَاءُ مَكَّةَ وَسَادَتَهَا وَأَغْنِيَاءُهَا ، فَمَالِكُ تَمِيلِينَ إِلَى هَذَا
الْفَتَى ١١٩

فَرَجَعَتْ إِلَى نَفْسِهَا تَخْتَبِرُ هَذَا الْمَيْلَ ، فَوَجَدَتْهُ غَيْرَ
مَا تَعَهَّدُهُ النِّسَاءُ : مَيْلًا إِلَى صِفَاتِ النَّفْسِ وَجَلَالِهَا (١) ،
وَالِى صِفَاءِ الرُّوحِ وَمَعْنَاهَا ، وَانْجِدَابًا إِلَى ذَلِكَ الْفَتَى
بِدَافِعٍ قَوِيٍّ دَافِيٍّ (٢) لَا تَعْرِفُ مَصْدَرَهُ (٣) ، وَإِنْ كَانَتْ
تَذْكُرُ أَنَّ ابْنَ عَمِّهَا وَرَقَةَ أَكَّدَ لَهَا أَنَّهَا سَتَتَزَوَّجُ ، وَأَنَّ
زَوْجَهَا سَيَكُونُ نَبِيًّا ، فَأَنَحَذَتْ تَسْأَلُ نَفْسَهَا فِي دَهْشَةٍ :

— أَحَقِّيقَةُ أَنْنِي سَأَتَزَوَّجُ ، وَأَنَّ زَوْجِي سَيَكُونُ نَبِيًّا ؟
ثُمَّ تَسْتَرْسِلُ (٤) فِي أَسْئَلِهَا :

— أَيْكُونُ هَذَا الْفَتَى هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ وَرَقَةُ ؟
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُوَ فَمَنْ غَيْرُهُ سَيَكُونُ ؟

وَحَاوَلَتْ أَنْ تَصْرِفَ عَنْهَا هَذِهِ الْخَوَاطِرَ ، مُسْتَبْعِدَةً

-
- (١) جلالها : عظمتها .
 - (٢) دافق : شديد .
 - (٣) مصدره : سببه .
 - (٤) تسترسل : تستمر .

أَنْ تَرْضَى الزَّوْاجَ وَقَدْ رَفَضَتْهُ عِشْرِينَ عَامًا ، لَكِنَّهَا
كَانَتْ إِذَا تَحَوَّلَتْ عَنْ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ ، انْصَرَفَتْ إِلَى الْقَافِلَةِ
وَمَا فِيهَا وَمَنْ فِيهَا . فَتَعُودُ إِلَيْهَا تِلْكَ الْخَوَاطِرُ أَشَدَّ مِمَّا
كَانَتْ ، حِينَ يَصِلُ تَفْكِيرُهَا إِلَى مُحَمَّدٍ ، وَمَا يَأْتِي
وَمَا يَدَعُ^(١) ، بَلْ غَدَتْ تُفَكِّرُ فِيمَا سَتَفْعَلُهُ إِذَا عَادَ ...

الأسئلة

(١)

« تَذَكَّرْتُ حِينَ رَأَيْتُ « مُحَمَّدًا » ذَلِكَ الْحُلُمَ ، وَأَحْسَتُ
أَنَّهَا تَعِيشُ فِيهِ ، وَكَأَنَّهَا نَائِمَةٌ ، تَرَى تِلْكَ الشَّمْسَ الَّتِي
دَخَلَتْ بَيْتَهَا ، وَذَلِكَ النُّورَ الَّذِي غَمَرَ الْبَيْتَ ، وَفَاضَ عَلَى
مَا حَوْلَهُ وَأَخَذَ يَمْتَدُّ حَتَّى غَمَرَ الْعَالَمَ كُلَّهُ .

وَأَحْسَتُ أَنَّهَا أَمَامَ فَتَى ذِي هَيْبَةٍ وَجَلَالٍ وَقُوَّةٍ نَفْسٍ »

(١) بِمَاذَا تَفَرَّقَ بَيْنَ : « الْحُلُمِ » بِضَمِّ الْحَاءِ وَ (الْحِلْمِ)
بِكَسْرِ الْحَاءِ .

(١) يدع : يترك .

— ٨٠ —

(ب) أوجد فرقا بين : (غمر البيت) و (فاض على ما حوله) ؟ وضح .

(ج) من التي تذكرت ذلك الحلم ؟ وما سبب تذكرها له ؟
(د) بين معنى : (هيبة - جلال)

(٢)

« وحاولت أن تصرف عنها هذه الخواطر مستعيدة أن ترضى بالزواج ، وقد رفضته عشرين عاما ، لكنها كانت إذا تحولت عن هذه الخواطر انصرفت إلى القافلة وما فيها ومن فيها ، فتعود إليها الخواطر أشد مما كانت » .

(١) ما سر استبعاد : « خديجة » أن ترضى بالزواج ؟

(ب) (ما فيها - من فيها) ما الفرق بين التعبيرين ؟

(ج) ما أثر انصرافها إلى القافلة في نفسها ؟ وبم تعلل ذلك ؟

(١٠) عزم

اقتربت عود القافلة ، ونهضت مكة تستعيد لاستيقابها ،
وأخذت خديجة تفكر في مالها وتجاريتها من بين الأفكار
المزدحمة في صدرها .

فلما جاء البشير يعلن اقتراب القافلة من مكة زاد اهتمام
الناس ، وكثرت الحركة في البيوت : استعداد في بيوت
التجار لاستقبال متاجرهم ، وحساب أرباحهم أو خسائرهم ،
واستعداد في بيوت الحمالين الذين ينقلون هذه المتاجر
بالأجر ، وفي بيوت العاجزين والفُقراء الذين اعتادوا
أن ينالهم خير في مثل هذه المناسبة ، وأن يتفضل عليهم
ذوو القلوب الرحيمة ، حين تعود تجارتهم رابحة .

واشتدت لفة الأمهات على أبنائهن ، ولفة الزوجات
على أزواجهن ، فلا يعلم أحد من سيعود ، ومن أراد له
القدر أن لا يعود .

حتى إذا كان صباح الغد ، علا الصَّجيجُ في الشوارع ،
واشتدَّت الحركةُ في البيوتِ ، وخرجَ الكثيرون إلى ظاهر
مكة ، وخديجةٌ تستعِدُّ كما يستعِدُّ الناسُ ، وجوارها
فرِحَاتٌ يُحدِّثُ بعضهنَّ بعضًا بما وعدتُ سيّدتهن من
الهدايا لمن إذا عادت تجارُتها رابعةً ، وعادَ جميعُ من
فيها سالمين .

فلَمَّا انتصفَ النهارُ واقتربَ الوقتُ من العصرِ ، صعدتُ
خديجةً معَ بعضِ جوارها إلى الطابقِ الثاني من بيتها وأخذتُ
تَرْقُبُ الطريقَ في لهفةٍ ، وجوارها يُحدِّدُن البصرَ
ليُبشِّرَنها بما يسرُّها ، ويسبقُن إلى تهنئتها ، حتى لاحت^(١)
القافلةُ من بعيدٍ ، مُسرَّعةً إلى مكة ، فأحسَّتْ خديجةُ
بدقاتِ قلبها تتغيَّرُ وتُسرعُ ، وببصرِها يُحاولُ أن يمتدَّ
فوقَ طاقتِه^(٢) ، والجمالُ تكبُّرُ في عينيها شيئاً فشيئاً ،
ومعالِمُ القافلةِ تتضحُ شيئاً فشيئاً ، ثم صاحتُ إحدى
جوارها في فرحٍ .

(١) لاحت : ظهرت .

(٢) فوق طاقتِه : أعلى من قدرته .

— مُحَمَّدُ يَا سَيِّدَتِي ، مُحَمَّدٌ وَبِجَانِبِهِ مَيْسَرَةٌ ؟

كَانَ مُحَمَّدٌ عَلَى بَعِيرِهِ ، وَمَيْسَرَةٌ بِجَانِبِهِ عَلَى بَعِيرِهِ ؛
وَحَدَّثَهُمَا الْجِمَالُ الْأُخْرَى تَحْمِلُ الْمَتَاجِرَ . لَكِنَّ خَدِيجَةَ
رَأَتْ عَجَبًا .

كَانَتْ الْقَافِلَةُ كُلُّهَا تَسِيرُ تَحْتَ أَشْجَةِ الشَّمْسِ الْمُحْرِقَةِ ،
مَا عَدَا مُحَمَّدًا فَقَدْ كَانَ يَسِيرُ وَحْدَهُ فِي الظِّلِّ .

كَانَ فَوْقَهُ سَحَابَةٌ تَخُصُّهُ وَحْدَهُ بِظِلِّهَا الطَّيْلُ ، لَا تُشْرِكُ
مَعَهُ أَحَدًا ، حَتَّى مَيْسَرَةَ ! وَقَدْ ظَنَنْتْ خَدِيجَةُ أَنَّهَا تَرَى
هَذِهِ السَّحَابَةَ وَحْدَهَا ، فَإِذَا بِجَارِيَتِهَا تَصْبِيحُ فِي دَهْشَةٍ :

— أَتَرَيْنَ يَا سَيِّدَتِي !؟

مُحَمَّدٌ فِي الظِّلِّ وَالنَّاسُ جَمِيعًا فِي الشَّمْسِ !!

إِنَّهَا تَتَحَوَّلُ يَا سَيِّدَتِي حَيْثُ يَتَحَوَّلُ ، وَتَمِيلُ حَيْثُ
يَمِيلُ بِهِ الْبَعِيرُ !! فَلَمْ تُجِبْ خَدِيجَةُ ، وَظَلَّتْ نَازِرَةً
إِلَى الْقَافِلَةِ حَتَّى بَلَغَتْ مَكَّةَ ، ثُمَّ وَقَفَتْ ، وَأَخَذَتْ
الْجِمَالُ تَبْرُكُ ، وَأَسْرَعَ النَّاسُ إِلَى أَبْنَائِهِمْ وَأَبَائِهِمْ

وإِخْوَاتِهِمْ ، يُطْفِئُونَ نَارَ الشُّوقِ ، وَيَسْأَلُونَ عَمَّنْ عَادَ
وَمَنْ تَخَلَّفَ .

وسارَ مُحَمَّدٌ ، وَمَيْسَرَةُ إِلَى دَارِ خَدِيجَةَ ، فاستقبلته
بِبَشَاشَةٍ وَلُطْفٍ ، لَكِنَّهُ حِينَ اقْتَرَبَ أَخَذَتْهَا الدَّهْشَةُ .
فَقَدْ وَجَدَتْ فِي وَجْهِهِ تَلَكَّ الشَّمْسِ الْمَشْرِقَةِ الَّتِي رَأَتْهَا
فِي حُلُمِهَا ، وَرَأَتْ هَذَا النُّورَ يَغْمُرُ بَيْتَهَا مِثْلَ ذَلِكَ النُّورِ ،
ثُمَّ يَفِيضُ عَلَى مَا حَوْلَهُ ، ثُمَّ يَمْتَدُّ إِلَى مَا بَعْدَهُ ، فَحَيْثُ ،
وَحْيَاها ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى بَيْتِهِ ، وَجَلَسَ يَسْتَقْبِلُ أَعْمَامَهُ ،
وَأَقَارِبَهُ ، وَمُحِبِّيهِ .

أَمَّا خَدِيجَةُ فَذَهَبَتْ إِلَى مَخَازِنِهَا ، وَفَحَصَتْ تِجَارَتَهَا ،
ثُمَّ وَقَفَتْ تَنْظُرُ فِي دَهْشَةٍ .

ما هَذَا الرَّبْحُ الْوَفِيرُ الَّذِي عَادَ بِهِ مُحَمَّدٌ ؟ !

وما هَذِهِ السَّلْعُ الْكَثِيرَةُ الَّتِي رَجَعَ بِهَا ؟ !

كَيْفَ اشْتَرَى هَذِهِ السَّلْعَ كُلَّهَا ؟ ! وَبِأَيِّ مَالٍ ؟ !

أَدَّهَشَتْهَا أَنْوَاعُ السَّلْعِ وَقِيَمَتُهَا ، فَصَاحَتْ بِمَيْسَرَةَ :

— مَاذَا فَعَلْتُمْ يَا مَيْسَرَةُ ؟ !

ما هذا الرِّبْحُ الوافرُ ؟! وكيف حَصَلْتُمْ عَلَيْهِ ؟

فَأَسْرَعَ مَيْسِرَةً بِاسْمَا :

— بَرَكَتُهُ مُحَمَّدٌ يَا سَيِّدَتِي !

لم نَكَدْ نَصِلْ إِلَى مَدِينَةِ « بُصْرَى »^(١) وَنَدْخُلُ السُّوقَ
مَعَ الْقَافِلَةِ ، حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَيْنَا الْمُشْتَرُونَ . قَدْ رَأَيْتُ^(٢)
سِلْعَنَا فِي أَعْيُنِهِمْ ، كَأَنَّ السُّوقَ لَيْسَ فِيهَا غَيْرُهَا أَوْ
مَثِيلُهَا !

وَقَدْ أَظْهَرَ مُحَمَّدٌ مَهَارَةً وَحِدَقًا^(٣) فِي الْبَيْعِ ، حَتَّى فَرَّغْنَا
مِنْ بَضَاعَتِنَا فِي وَقْتٍ قَصِيرٍ ، وَالتُّجَّارَ مِنْ حَوْلِنَا يَنْظُرُونَ
فِي عَجَبٍ ، بَلْ إِنَّ بَعْضَهُمْ أَخَذَ يَصِيحُ فِي دَهْشَةٍ :

— ما هذا يَا مَيْسِرَةُ ؟!

سِلْعٌ غَيْرُ سِلْعِنَا أَمْ طُرُقٌ غَيْرُ طُرُقِنَا ؟ أَمْ اتَّفَاقٌ مِنْ
قَبْلِ أَنْ تَصِلَ ؟!

(١) بصرى : موضع بالشام .

(٢) رَأَيْتُ : حسنت .

(٣) حِدَقًا : براعة .

فَقَالَتْ خَدِيجَةُ فِي عَجَبٍ :

— لَكِنَّ أَلَمَانَ سِلْعِنَا الَّتِي بَعْتُمُوهَا ، لَا تَقِي بِأَثْمَانِ
مَا اشْتَرَيْتُمُوهُ ، وَلَوْ بَعْتُمْ بِضِعْفِ الثَّمَنِ ، أَوْ بِثَلَاثَةِ
أَضْعَافٍ ، أَوْ أَرْبَعَةٍ ! !

فَأَجَابَ مَيْسِرَةُ فِي زَهْوٍ :

— بَرَكَتُهُ مُحَمَّدٌ يَا سَيِّدَتِي !

كَانَ اللَّهُ مَعَهُ فِي الشَّرَاءِ ، كَمَا كَانَ مَعَهُ فِي الْبَيْعِ ،
فَلَمْ يَدْخُلِ السُّوقَ شَارِيًّا ، حَتَّى دَعَاهُ الْبَائِعُونَ ، وَبَدَّلُوا
لَهُ سِلْعَتَهُمْ ، وَكَانَهُمْ أَحَبُّوهُ أَنْ يُقَدِّمُوا إِلَيْهِ بِغَيْرِ ثَمَنٍ .
فَلَمْ يَعْزِضْ قِيَمَةً إِلَّا قَبِلُوهَا . وَالنَّاسُ فِي حَيْرَةٍ ، يَتَسَاءَلُونَ
عَنْ هَذَا التَّاجِرِ الَّذِي سَبَقَ الثُّجَّارَ ، وَصَاحِبِ الْوَجْهِ الَّذِي
جَذَبَ الْقُلُوبَ .

وَتُجَارْنَا فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ الَّذِي بَاعَ غَالِيًّا ،
وَاشْتَرَى رَخِيصًا ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ فِي دَهْشَةٍ :

— مَاذَا جَرَى يَا مَيْسِرَةُ ؟ !

قُلْنَا إِنَّكُمْ أَتَمَقْتُمْ مَعَ الْمُشْتَرِينَ قَبْلَ وُضُولِنَا فَهَلْ
أَتَمَقْتُمْ كَذَلِكَ مَعَ الْبَائِعِينَ ؟

فازداد سرورُ خديجة ، وقالتَ لِمَيْسَرَةَ في رَفْقٍ :

— حَدِّثْنِي يَا مَيْسَرَةُ حَدِيثَكُمْ فِي الذَّهَابِ وَالْإِيَابِ ،
لَا تَتْرُكْ شَيْئًا إِلَّا أَخْبَرْتَنِي عَنْهُ ، فَقَدْ رَأَيْتُكَ شَدِيدَ
الِإِعْجَابِ بِهِ مُحَمَّدٍ !

قالَ مَيْسَرَةُ بَاهِمًا :

— شَأْنُ مُحَمَّدٍ عَجِيبٌ يَا سَيِّدَتِي !

حَدَّثْتُكَ عَنِ الْبَيْعِ وَالشَّرَاءِ ، وَمَا نَالَ فِيهِمَا مِنْ
تَوْفِيقٍ ، وَقَدْ يَقُولُ النَّاسُ إِنَّ ذَلِكَ حَظٌّ يَتَدَفَّقُ أحيانًا
عَلَى بَعْضِ النَّاسِ ، وَقَدْ يَقُولُونَ إِنَّهَا مَهَارَةٌ اسْتَطَاعَ
اسْتِخْدَامُهَا فِي جَوْ مُهَيٍّ^(١) لَهَا ، فَمَا رَأَيْتُكَ يَا سَيِّدَتِي فِي عَجِيبَةِ
السَّمَاءِ ؟

كَانَ الْجَوُّ حَارًّا مُحْرِقًا ، وَكَانَتْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ كَشَطَايَا^(٢)

(١) مُهَيٍّ : مُنَاسِبٌ .

(٢) كَشَطَايَا : أَجْزَاءٌ .

مِنَ اللَّهَبِ ، فَمَا تَرَكْنَا مَكَّةَ حَتَّى اخْتَمَيْنَا مِنْهَا بِالْعَمَائِمِ
ضَاعَفْنَاهَا ، وَبِمَا اسْتَطَعْنَا مِنْ مِظَلَّاتٍ تَقِي رُءُوسَنَا
وَحَدَّهَا .

أَمَّا مُحَمَّدٌ فَقَدْ أَظْلَتُهُ السَّمَاءُ وَنَشَرَتْ عَلَيْهِ وَعَلَى بَعِيرِهِ
سَحَابَةٌ ظَلِيلَةٌ سَارَتْ حَيْثُ تَسِيرُ الْقَافِلَةُ وَلَمْ تُفَارِقْنَا
حَتَّى بَلَّغْنَا الشَّامَ ، تَنَعَّقِدُ عَلَيْهِ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى الْمَسَاءِ ،
ثُمَّ تَنَعَّقِدُ عَلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى إِذَا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ مِنْ
جَلِيدٍ .

وَصَمَتَ مَيَسَّرَةٌ قَلِيلًا ، وَنَظَرَ إِلَى سَيِّدَتِهِ الْغَارِقَةِ فِي
دَهْشَتِهَا ، ثُمَّ قَالَ فِي عَجَبٍ :

— كَانَ النَّاسُ فِي دَهْشَةٍ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ السَّحَابَةِ الَّتِي
اخْتَصَّتْ مُحَمَّدًا بِظِلِّهَا : إِذَا تَحَرَّكُوا إِلَيْهَا لِيَسْتَظِلُّوا بِهَا
بُعِدَتْ عَنْهُمْ ، وَإِذَا تَحَرَّكَ مُحَمَّدٌ تَحَرَّكَتْ مَعَهُ !

وَمُحَمَّدٌ مُنْصَرِفٌ عَنِ النَّاسِ إِلَى تَفْكِيرٍ عَمِيقٍ ،
لَا يَتَحَدَّثُ إِلَّا إِذَا سُئِلَ ، وَلَا يَشْتَرِكُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَرَحِ
الَّذِي كَانَ يَصْنَعُهُ بَعْضُ الْمُسَافِرِينَ ، لِيُخَفِّفُوا بِهِ وَخْشَةَ
الطَّرِيقِ ، وَمَشَقَّةَ السَّفَرِ .

ثم انتبَهَتْ خديجةُ من تفكيرِها ، وقالتْ لِميسرةَ
باسمةً :

— وماذا صنعَ محمدٌ ببلادِ الشامِ ؟

أسرتهُ أشجارها ، وبساتينُها ، وجوهُ الرقيقِ ، وأهلُها
ومنُ فيها ؟
فأسرعَ ميسرةُ :

— لم يُشاركِ محمدٌ فيما صنَّعه التجارُ هناك ، ولم
يسْتَهْوِهِ^(١) شيءٌ مما استهوى الناسُ ، بلْ كانَ يَعْجَبُ
منْ خَلَقِ اللهُ ، وما صنَّعَ للإنسانِ ، وما أَلْقَى في الأرضِ
منْ نباتٍ يانعٍ^(٢) ، وشجرٍ باسِقٍ^(٣) ، وما أَجْرَى فيها مِنْ
مِيَاهٍ وَأَنْهَارٍ ، وكيفَ خَلَقَ بلادَنَا صحراءَ لا نباتَ فيها
ولا ماءً وَخَلَقَ في الشامِ جَنَّاتٍ أَلْفافاً^(٤) ، وحَبّاً وَعِنَباً ،
وزَيْتُوناً ونَخَلاً ، وحَدائقَ واسعةً .

(١) الم يستهوه : الم يستمله .

(٢) يانع : ناضج الثمر .

(٣) باسق : طويل .

(٤) ألفافا : متشايكة الأغصان .

— ٩٠ —

وَكَيْفَ رَقَّ هَوَاؤُهَا وَاحْتَرَقَ هَوَاؤُنَا ، وَلَطُفَتْ حَرَارَتُهَا ،
وَاشْتَدَّتْ حَرَارَتُنَا ، وَكَيْفَ يَعِيشُ النَّاسُ هُنَا . وَكَيْفَ
يَعِيشُونَ هُنَاكَ .

كَانَ يَا سَيِّدَتِي دَائِمَ التَّفَكُّيرِ ، تَرَكَ النَّاسَ يَذْهَبُونَ
حَيْثُ يَشَاءُونَ ، وَأَقَامَ حَيْثُ نَزَلْنَا ، يَتَأَمَّلُ وَيُفَكِّرُ حَتَّى
انْقَضَى الْوَقْتُ ، وَتَاهَبْنَا لِلرَّحِيلِ .

وَصِمْتَ مَيَسَّرَةً قَلِيلًا ، وَخَدِيجَةُ سَابِغَةً فِي أَفْكَارِهَا ،
ثُمَّ قَالَ فِي دَهْشَةٍ أَشَدٍّ :

— هَلْ تُصَدِّقِينَ يَا سَيِّدَتِي أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ يَكُونُ
هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ النَّاسُ ، وَيَقُولُونَ إِنَّهُ قَدْ حَانَ
حِينُهُ (١) ، وَجَاءَ أَوَانُهُ ؟ !

فَانْتَبَهَتْ خَدِيجَةُ وَقَالَتْ فِي دَهْشَةٍ :
مَاذَا تَقُولُ يَا مَيَسَّرَةُ ؟ وَكَيْفَ وَصَلْتَ إِلَى هَذَا الرَّأْيِ ؟ !
فَاسْتَأْنَفَ مَيَسَّرَةُ قَائِلًا فِي عَجَبٍ :

(١) حَانَ حِينُهُ : اقْتَرَبَ أَوَانُ ظَهْوَرِهِ .

— ٩١ —

— نَزَلْنَا يَا سَيِّدَتِي بِبُصْرَى ، فَجَلَسَ مُحَمَّدٌ تَحْتَ شَجَرَةٍ مِنَ الْأَشْجَارِ ، لَا تَمْتَازُ بِشَيْءٍ مِنْ بَاقِي الشَّجَرِ الَّذِي نَرَاهُ ، وَبِالْقُرْبِ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ صَوْمَعَةُ رَاهِبٍ مِنَ الرُّهْبَانِ ، فَإِذَا بِذَلِكَ الرَّاهِبِ يُطْلِعُ رَأْسَهُ مِنْ نَافِذَةِ صَوْمَعَتِهِ ، فَلَمَّا رَأَى مُحَمَّدًا أَسْرَعَ إِلَى وَسَالَتِي فِي لَهْفَةٍ : مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي يَجْلِسُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ؟ فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَصَاحَ فِي لَهْفَةٍ :

— أَبِيعْتَ هَذَا الرَّجُلُ ؟

فَقَدْتُ فِي دَهْشَةٍ :

— مَاذَا تُرِيدُ ؟ وَمَاذَا تَعْنِي بِهَذَا الْبُعْثِ ؟

فَقَالَ بِلَهْجَةِ الْوَائِقِ :

— إِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الرَّجُلُ قَدْ بُعِثَ ، فَسَوْفَ يُبْعَثُ بِرِسَالَةِ اللَّهِ لِلنَّاسِ ، فَمَا جَلَسَ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا نَبِيٌّ !!

فَاشْتَدَّتْ حَيْرَةُ خَدِيجَةَ ، وَاسْتَعَادَتْ حُلْمَهَا مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ ، وَاسْتَعَادَتْ تَأْوِيلَ ابْنِ عَمِّهَا وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ



الراهب ينسأل ميسرة

لِرُؤْيَاها . كما اسْتَعَادَتْ صُورَةَ مُحَمَّدٍ ، وأنْطَبَاقَها على ما يَتَحَدَّثُ به النَّاسُ عَنْ صُورَةِ النَّبِيِّ الَّذِي قَرَّبَ زَمَانُهُ ، ثُمَّ قَالَتْ لِنَفْسِهَا فِي تَأْكِيدٍ :

— إِذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي يَتَحَدَّثُونَ عَنْهُ فَمَنْ يَكُونُ ؟ ! .

ثُمَّ عَادَتْ مِنْ مَخَازِنِهَا ، وَارْتَدَّتْ مَلَاحِظُ الْخُرُوجِ ، وَأَسْرَعَتْ إِلَى ابْنِ عَمِّهَا وَرَقَّةَ بْنِ نَوْفَلٍ ، وَقَصَّتْ عَلَيْهِ مَا رَأَتْ وَمَا سَمِعَتْ ، فَصَاحَ فِي دَهْشَةٍ :

• — لَيْسَ هَذَا رَجُلًا مِثْلَ الرَّجَالِ يَا خَلْدِيجَةُ !

فَقَالَتْ فِي لَهْفَةٍ :

— أَيْنَتَظَرُ أَنْ يَكُونَ هُوَ النَّبِيُّ يَا وَرَقَةُ ؟ !

فَأَجَابَ وَرَقَةُ بِاسْمَا :

— قَدْ يَكُونُ يَا خَلْدِيجَةُ !

إِنْ صِفَاتِهِ تَنْطَبِقُ عَلَى مَا أَعْرِفُ مِنْ كُتُبٍ مُقَدَّسَةٍ ، وَلَكِنْ مَنْ يَدْرِي مَا يَصْنَعُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَخْتَصُّهُ بِكَرَامَتِهِ وَفَضْلِهِ ، وَيَرْفَعُهُ فَوْقَ النَّاسِ !

— ٩٤ —

فَعَادَتْ خَدِيجَةً إِلَى مَنْزِلِهَا عَازِمَةً عَلَى الْآلِ يَفُوتُهَا شَرَفُ
النُّبُوَّةِ الَّتِي تُوَكِّدُ الدَّلَائِلُ أَنَّهَا لِمُحَمَّدٍ ، وَأَنْ تَنْزَوِّجَ
هَذَا الْفَتَى الشَّرِيفَ ، الَّذِي يُرْجَى لَهُ مَا لَا يُرْجَى لِغَيْرِهِ
مِنَ النَّاسِ .

الأسئلة

(١)

كيف كان أهل مكة يستقبلون القوافل ؟

(٢)

يقول ميسرة : « لم نكد نصل إلى مدينة بصرى ، وندخل
السوق مع القافلة حتى اجتمع علينا المُشْتَرُونَ ، قد راقَت
سلعتنا في أعينهم كأنَّ السوق ليس فيها غيرها أو مثلها
وقد أظهر « محمد » مهارة وحذاقاً في البيع ، حتى فرغنا
من بضاعتنا في وقت قصير . »

(١) ما معنى : « راقَت سلعتنا في أعينهم » ؟ وما سر
ذلك في نظر ميسرة ؟

— ٩٥ —

- (ب) ما مظهر رواج التجارة كما فهمت من العبارة ؟
(ج) ما موقف التجار من ذلك الرواج لتجارة « محمد » ؟
(د) من أى شئ تعجبت خديجة حين رأت البضاعة
التي اشتراها « محمد » ؟

(٣)

لَحْضُ ما تحدث به « ميسرة » لخديجة عن صفات
« محمد » .

(٤)

ما أثر حديث « ميسرة » في نفس خديجة ؟ وما مظهر
ذلك ؟

* * *

(١١) تفكير

أَخَذَتْ خَدِيدَةٌ تُفَكِّرُ فِي ذَلِكَ النَّبِيِّ الَّذِي سُبِّعَتْ فَيَمَلَأُ
الْأَرْضَ عَدْلًا ، وَيَقْضِي عَلَى مَا شَاعَ مِنَ الْفَسَادِ ، وَيُسَاوِي بَيْنَ
النَّاسِ ، وَيُنْقِذُ الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ ، وَيَرُدُّ لِبَيْتِ اللَّهِ الْأَمْنَ
وَالْطَّمَأْنِينَةَ ، وَيُنْظِفُ مَا حَوْلَهُ مِنَ الشُّرُورِ .

وَقَدْ اطمأنَّ قَلْبُهَا إِلَى اقْتِرَابِ بَعْثِ ذَلِكَ النَّبِيِّ ، وَإِلَى أَنَّ
مُحَمَّدًا قَدْ اخْتُصَّ بِهَذَا الْفَضْلِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الشَّمْسُ الَّتِي دَخَلَتْ
بَيْتَهَا وَأَصَاعَتُهُ ثُمَّ امْتَدَّتْ إِلَى مَا حَوْلَهُ .

وَتَجَلَّى^(١) لَهَا ذَلِكَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ، الَّذِي سَخَّصَ بِهِ
مَنْ تَتَزَوَّجُهُ ، وَتُعِينُهُ عَلَى التَّفَرُّغِ لِرِسَالَةِ رَبِّهِ ، وَمَا سَيَنَالُهَا
مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ ، إِذَا اذْتَشَرَتْ دَعْوَةَ اللَّهِ ، وَانْتَصَرَ نَبِيُّ اللَّهِ .

وَهَانَ مَالُهَا وَتَجَارَتْهَا أَمَامَ هَذَا الْفَضْلِ ، الَّذِي سَتَنَالُهُ إِذَا

(١) تجلى : ظهر .

قُدِّرَ لها أَنْ تكونَ زَوْجَ ذَلِكَ النَّبِيِّ ، وَسَمَتْ^(١) رَوْحُهَا عَنْ
عَرَضِ^(٢) الدُّنْيَا ، وَلَمْ تُعُدْ تُفَكِّرُ فِي غَيْرِ النَّبِيِّ وَنُبُوَّتِهِ ،
وَمُحَمَّدٍ وَمَا يُنْتَظَرُ لَهُ .

وَلَكِنْ ، كَيْفَ تَعْرِضُ عَلَيْهِ الزَّوْاجَ ؟ !
إِنَّ لَهُ هَيْبَةً ، وَجَلَالًا ، وَقُوَّةَ نَفْسٍ لَمْ تَسْتَطِيعَ مَعَهَا أَنْ
تُطِيلَ مَعَهُ الْحَدِيثَ .

فَكَيْفَ تَحَدِّثُهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ ؟

وَمَاذَا تَصْنَعُ إِذَا رَفَضَ ؟ !

وَمَاذَا يَقُولُ النَّاسُ عَنْهَا ، إِذَا عَرَفُوا أَنَّهَا عَرَضَتْ عَلَيْهِ
الزَّوْاجَ فَنَافَى ، وَقَدْ أَبَتْ هِيَ سَادَةَ قُرَيْشٍ وَأَغْنِيَاءَهَا مِنْ قَبْلُ ؟
وَمَا زَالَتْ تُفَكِّرُ حَتَّى اهْتَدَتْ إِلَى حَلٍّ .

دَعَتْ امْرَأَةً مُخْلِصَةً لَهَا أَمِينَةً عَلَى السِّرِّ ، لَا يَنْفَرِجُ صَدْرُهَا
يَوْمًا عَمَّا أُودِعَ فِيهِ ، وَقَالَتْ لَهَا فِي رَفْقٍ ، بَعْدَمَا قَدِمَتْ إِلَيْهَا
هَدِيَّةٌ مِنَ التُّخَفِ الَّتِي اشْتَرَاهَا مُحَمَّدٌ مِنَ الشَّامِ :

— مَا رَأَيْتُكَ يَا نَفِيسَةً فِي هَذِهِ الْهَدِيَّةِ ؟ —

— ٩٨ —

فَنَظَرَتْ نَفِيسَةً إِلَى تِلْكَ الْهَدِيَّةِ فِي دَهْشَةٍ ، وَقَلَّبَتْ فِيهَا
النَّظَرَ ، ثُمَّ صَاحَتْ فِي عَجَبٍ :

— شَيْءٌ لَمْ نَرَهُ مِنْ قَبْلُ يَا سَيِّدَتِي ! مَا أَحْسَنَهَا ! وَمَا أَبْدَعَ
ذَوْقٌ مِنْ اشْتَرَاهَا !

قَالَتْ خَدِيجَةُ بِاسْمَةٍ :

— تَدُلُّ عَلَى ذَوْقٍ جَمِيلٍ يَا نَفِيسَةُ !

قَالَتْ نَفِيسَةُ وَقَدْ زَادَتْ دَهْشَتُهَا :

— أَجْمَلُ ذَوْقٍ ، وَأَبْدَعُ اخْتِيَارٍ !

ثُمَّ التَفَتَتْ إِلَى خَدِيجَةَ ، وَقَالَتْ بِاسْمَةٍ :

— ذَوْقُ مُحَمَّدٍ يَا سَيِّدَتِي ! أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ ! إِنَّهُ جَمِيلٌ
يُحِبُّ الْجَمِيلَ !

فَاسْرَعَتْ خَدِيجَةُ :

— لَكِنَّهُ عَفْ يَا نَفِيسَةُ !

فَاسْرَعَتْ نَفِيسَةُ :

— مَا جَرَّبْتُ عَلَيْهِ مَكَّةُ نَزْعَةً^(١) مِنْ نَزَعَاتِ الشَّبَابِ ، وَلَمْ يُعْرِفْ عَنْهُ غَيْرُ الْأَمَانَةِ وَالصُّدْقِ ، وَكُلُّ صِفَاتِ الشَّهَامَةِ .

أَلَيْسَ هُوَ الْأَمِينُ ، مَعَ شَبَابِهِ ، وَقُوَّتِهِ ، وَجَمَالِهِ ، وَحَسَبِهِ ، وَنَسَبِهِ ، فِي وَسْطِ شَيَاطِينِ مَكَّةَ ؟ !

وَصَمَّتْ قَلِيلًا ، ثُمَّ نَظَرَتْ إِلَى خَدِيجَةَ ، وَقَالَتْ بِاسْمَةٍ :

— مَا أَجْمَلَ يَا سَيِّدَتِي لَوْ اسْتَمَرَّ فِي تِجَارَتِكَ ! إِنَّهُ فَتَى مَيِّمُونَ^(٢) مُبَارَكٌ ، مُؤَهَّلٌ^(٣) لِأَنْ يَأْخُذَ مَكَانَهُ بَيْنَ السَّادَةِ وَالرُّؤَسَاءِ ، وَيَا حَظَّ مَنْ تَتَزَوَّجُهُ ! !

فَأَحْسَتْ خَدِيجَةُ بِدَقَّاتِ قَلْبِهَا تَزْدَادُ ، فَقَالَتْ بِاسْمَةٍ :

— زَوْجٌ صَالِحٌ يَأْنَفِيسُهُ !

فَاسْرَعَتْ الْمَرْأَةُ ، وَقَدْ أَحْسَتْ مَا فِي صَدْرِ خَدِيجَةَ :

— كُلُّ فَتَاةٍ تَتَمَنَّى أَنْ تَكُونَ زَوْجًا لَهُ ، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا الْيَوْمَ فَفِي يَدِ مِثْلِهِ الْغِنَى وَالثَّرْوَةُ ، فَهُوَ نَشِيطٌ ، مُجِدُّ عَاقِلٌ ، بَعِيدٌ عَنِ الشُّرُورِ ، وَمِثْلُ هَذِهِ الصِّفَاتِ تُؤَهِّلُ لِلثَّرْوَةِ وَالرِّيَاسَةِ .

(١) نزعة : ميلا .

(٢) ميمون : مبارك .

(٣) مؤهل : معد .

وصممت قليلاً ، ثم نظرت إلى خديجة ، وقالت في أمل :

— هل فكرت يا سيدتي في هذا الفتى ؟

لعله انتظر دون زواجٍ إلى اليوم ، لأنه لم يجد الزوجة الصالحة التي يرجوها ، أو لعله موجهٌ يعمل بإشارة ربه ، ولعله يجد ما ينشده^(١) في خديجة خير نساء مكة : جمال ، وغنى ، وسيرة كالمسك ، وذكاء ، وصبر ، وكرم . ماذا يريد غير ذلك ؟ !

وصممت المرأة لحظةً ، ثم عادت تقول في رفق :

— محمد يا سيدتي لا يفكر في الزواج كما يفكر غيره من الناس ، وليس دافعه إليه ما يدفعهم . إنه كبير القلب ، يفكر في زوجة كبيرة القلب .

فأسرعت خديجة :

— كبيرة أو صغيرة يا نفيسة ؟ !

فأسرعت نفيسة :

(١) ما ينشده : ما يبحث عنه .

— ١٠١ —

— لَا يَهُمُّ مُحَمَّدًا فَارِقُ السَّنِّ يَاسِيدَتِي ، لَا يَهُمُّهُ إِلَّا الْقَلْبُ
الْحَنُونُ ، وَالنَّفْسُ الرَّاضِيَةُ .

وَمَاذَا تَرَيْنَ مِنْ فَارِقٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ؟

— خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا !!

إِنَّ النِّسَاءَ لَا تُقَاسُ بِكِبَرِ السَّنِّ أَوْ صِغَرِهِ ، فَمِنْهُنَّ الصَّغِيرَةُ
الْمُحَطَّمَةُ الذَّابِلَةُ ، الَّتِي تَعْمِشُ فِي شَيْخُوخَتِهَا مِنْذُ دَرَجَتْ (١)
عَلَى الْأَرْضِ ، وَمِنْهُنَّ الْمُحْتَفِظَةُ بِجَمَالِهَا وَحُسْنِهَا ، وَلِنْ
امْتَدَّتْ بِهَا الْأَيَّامُ ..

وَصَمَتَتْ لِحِظَةٍ ، ثُمَّ قَالَتْ فِي ثِقَةٍ :

— وَلَا أَظُنُّ مُحَمَّدًا لَمْ يُفَكِّرْ فِي خَدِيجَةَ حِينَ رَأَاهَا ! فَهَلَّا
عَرَضْنَا عَلَيْهِ الزَّوْاجَ فِي سِتْرِ مِنَ النَّاسِ ، فَإِنْ رَضِيَ فَقَدْ أَرَادَ
اللَّهُ الْخَيْرَ ، وَإِنْ لَمْ يَرْضَ فَلَمْ يَعْلَمْ أَحَدٌ ، وَلَكِنْ نَحْصَرَ شَيْئًا .

فَزَادَ تَنْفُسُ خَدِيجَةَ ، وَنَظَرَتْ إِلَى نَفِيسَةٍ تَفْحَصُهَا بَعِينِيهَا ،
ثُمَّ قَالَتْ فِي رِفْقٍ :

(١) منذ درجت : منذ نشأت .

— ١٠٢ —

— وَمَنْ يَقُومُ بِذَلِكَ يَا نَفِيسَةُ ؟ !

فأسرعت المرأة في سرور :

— أنا يا سيدتي ، أنا كفيلة بهذا الأمر .

فسرت خديجة ، ووافقت على أن تقوم هذه المرأة بعرض الأمر على محمد .

وليثتا تتحدثان حتى المساء ، وخديجة تقص عليها رؤياها ، وتصف لها الشمس الكبيرة التي دخلت بيتها ، وتخيرها بتأويل « ورقة » وما رآه ميسرة في رحلته مع محمد ، ثم تلقى على سمعها أرقاما كبيرة لأرباح تلك الرحلة .

ونفيسة تؤكد لها أن محمدا سيكون النبي الذي يتحدث عنه الناس ، وأن الله سيوفقها في مهمتها ، وتعود إليها بالبشرى السارة .

— ١٠٣ —

الأسئلة

(١)

«وتجلى لها ذلك الفضل الكبير الذى سَخَّصَ به من تتزوجه ، وتعينه على التفرغ لرسالة ربه ، وما سينالها من رضوان الله ، إذا انتشرت دعوة الله ، وانتصر نبي الله» .

(١) ما معنى : «تجلى» ؟ ومتى تجلّى لخديجة ذلك الفضل الكبير ؟

(ب) ما الذى جعل هذا المخاطر يزداد عند السيدة خديجة ؟
(ج) ما الذى فكرت فيه (خديجة) لتنال هذا الشرف ؟

(٢)

دار حديث بين : خديجة ونفيسة . لخص مضمونه .

(٣)

على أى شىء استقر رأى خديجة ونفيسة ؟ وما دلالة ذلك بالنسبة لشخصية السيدة «خديجة» رضى الله عنها .

* * *

١٢، اتفاق

الْتَمَعْتُ نَفِيسَةً بِرِذَاءِ اللَّيْلِ ، وَسَارَتْ مِنْ بَيْتِ خَدِيجَةَ إِلَى
بَيْتِ مُحَمَّدٍ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنْتُ ، وَدَخَلْتُ ، فَوَجَدْتُهُ مُطَرِّقًا يُفَكِّرُ ،
وَبَدَأَ لَهَا وَكَأَنَّهَا لَمْ تَرَهُ مِنْ قَبْلُ .

رَأَتْ رَجُلًا وَسِيمًا ^(١) ، رُبْعَةً ^(٢) ، لَيْسَ بِالْقَصِيرِ وَلَا بِالطَّوِيلِ ،
ضَخَمَ الرَّأْسِ ، مُرَجَّلٌ ^(٣) الشَّعْرَ شَدِيدَ سَوَادِهِ ، مَبْسُوطٌ ،
الْحَاجِبِينَ ، وَاسِعَ الْعَيْنَيْنِ ، يُشْعِلُ مِنْ وَجْهِهِ نُورٌ مُتَلَالِيٌّ .
فَحَبِيتُهُ ، فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ إِلَيْهَا فَأَخَذَتْ بِجَلَالِهِ وَهَبَّتِهِ ،
ثُمَّ حَيَّاهَا وَقَالَ فِي رَفْقٍ :

- خَيْرًا يَا نَفِيسَةَ ! مَاذَا جَاءَ بِكَ السَّاعَةَ ؟ !

قَالَتْ بِاسْمَةٍ :

-
- (١) وسيمًا : حسن الوجه .
(٢) ربيعة : معتدل الجسم .
(٣) مرجل الشعر : مبسوطه .

— جِئْتُ أَهْنُئُكَ بِسَلَامَةِ الْعُودَةِ .

ثم تَلَفَّتَتْ حَوْلَهَا فلم تجدْ في الدَّارِ غيرَ أُمِّ أَيْمَنَ ، مَشْغُولَةً
بِأَعْمَالِ الْبَيْتِ ، فَقَالَتْ وَهِيَ تَشِيرُ إِلَيْهَا :

— أَلَا تُحِسُّ بِالْوَحْشَةِ (١) يَا مُحَمَّدُ ؟ ! أَنْتَ وَأُمُّ أَيْمَنَ !!

فابْتَسَمَ ، ثُمَّ قَالَ فِي رَفْقٍ :

— وَكَيْفَ أَدْفَعُ هَذِهِ الْوَحْشَةَ يَا نَفِيسَةُ ؟ !

إِنِّي فَقِيرٌ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُحَقِّقَ مَا تَرْمِينِ إِلَيْهِ ، وَلَيْسَتْ
كُلُّ امْرَأَةٍ تَصْلُحُ زَوْجَةً يَا نَفِيسَةُ ، وَلَيْسَ الزَّوْاجُ لُعْبَةً ، بَلْ
هُوَ مُهِمَّةٌ لَا تَتَحَقَّقُ أَغْرَاضُهَا إِلَّا إِذَا تَوَفَّرَتْ وَسَائِلُهَا ، وَحَتَّى
يُقَدِّرُنِي اللَّهُ عَلَى مَهْرٍ الصَّالِحَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ، أَفَعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَاشْتَدَّ سُرُورُ نَفِيسَةَ ، لِأَنَّهَا أَحَسَّتْ بِاِقْتِرَابِهَا مِنْ غَرَضِهَا
سَرِيعًا ، قَالَتْ فِي أَمَلٍ :

— وَإِذَا كَانَتْ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ مُسْتَقِيمَةً شَرِيفَةً ، وَكَانَتْ

ذَاتَ ثَرَاءٍ كَبِيرٍ !

(١) الوحشة : الضيق .

فَأَسْرَعَ بِاسْمَا :

— يَزِيدُ الْمَهْرُ يَا نَفِيسَةَ . وَأَنْتِ تَعْرِفِينَ مَهْوَرَ الْأَغْنِيَاءِ ،
وَتَعْلَمِينَ أَنَّهَا تُثْقِلُ الْأَزْوَاجَ ، وَتُعْجِزُ الْكَثِيرِينَ ، وَأَيْنَ لِي
بِمِثْلِهِ ؟ ١١

فَازْدَادَ سُرُورُ نَفِيسَةَ ، وَأَحْسَتْ بِأَنَّ الْهَدَفَ (١) دَنَا أَكْثَرَ
مِنْ ذِي قَبْلُ ، وَقَالَتْ وَهِيَ تَتَكَلَّفُ الْهُدُوءَ :

— وَإِذَا يُسِّرْتُ لَكَ الْمَرْأَةَ الْجَمِيلَةَ ، الْغَنِيَّةَ ، الشَّرِيفَةَ ،
الصَّالِحَةَ ، دُونَ أَنْ تَتَكَلَّفَ ذَلِكَ الْمَهْرَ الْكَبِيرَ ، فَمَاذَا تَرَى ؟
قَالَ بِاسْمَا :

— لَيْتَ يَأْنِفِيسَةُ ! مَنْ تَكُونُ هَذِهِ ؟ ١٢

فَجَمَعَتُ الْمَرْأَةَ قُوَّتَهَا ، وَقَالَتْ فِي صَوْتٍ مُنْخَفِضٍ :

— خَدِيجَةُ يَا مُحَمَّدُ ! خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ !

فَنَظَرَ مُحَمَّدٌ إِلَى نَفِيسَةَ نَظْرَةً طَوِيلَةً ، وَكَانَ قَدْ أَحْسَنَ مِنْ
قَلْبِهِ مَيْلًا إِلَى خَدِيجَةَ ، وَوَدَّ لَوْ كَانَ غَنِيًّا فَعَرَضَ عَلَيْهَا

(١) الهدف : الغرض .

الرَّوَّاجَ ، فَقَدْ وَجَدَ رُوحَهُ تَجَذَّبُ إِلَيْهَا ، وَرَأَى صِفَاتِهَا
تَكْبُرُ فِي نَفْسِهِ ، ثُمَّ قَالَ فِي أَمَلٍ :

— وَمَنْ لِي بِذَلِكَ يَانْفَيْسَةُ ؟ !

فَاسْرَعْتُ الْمَرْأَةَ فِي سُرُورٍ :

أَنَا يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّكَ خَيْرُ زَوْجٍ لِحِثْلِ خَدِيدَجَةَ ، سَأُقْنِعُهَا ،
وَأَصْرِفُهَا عَمَّا اعْتَزَمَتْهُ مِنْ رَفْضِ الرَّوَّاجِ .

عَلَى تَحْوِيلِهَا عَنْ رَأْيِهَا ، وَلَا أَظُنُّ أَنَّهَا تَرَفُضُ إِذَا بَلَّغْتُهَا
رَغْبَتَكَ .

ثُمَّ انْصَرَفْتُ مُسْرِعَةً ، وَدَخَلْتُ عَلَى خَدِيدَجَةَ فَرِحَةً ، وَزَفَّتْ
إِلَيْهَا الْبُشْرَى بِقَبُولِ مُحَمَّدٍ ، فَقَبَّلَتْهَا خَدِيدَجَةُ ، وَنَهَضَتْ إِلَى
مَخَازِنِهَا وَاخْتَارَتْ بَعْضَ الْهَدَايَا الثَّمِينَةِ وَقَدَّمَتْهَا إِلَيْهَا ،
وَأَعْطَتْ جَوَارِيَهَا ، وَقَضَتْ لَيْلَتَهَا فِي سُرُورٍ ، تُفَكِّرُ فِي
هَذِهِ النُّعْمَةِ الَّتِي سَيَخُصُّهَا اللَّهُ بِهَا ، وَذَلِكَ الْفَضْلُ الَّذِي
سَيَخْتَارُهَا لَهُ .

وَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ ، أُرْسِلَتْ إِلَى عَمِّهَا ، فَلَمَّا حَضَرَ
وَاسْتَقَرَّ بِهِ الْمَجْلِسُ ، قَالَتْ بِاسْمَةٍ :

— ١٠٨ —

— مَا رَأَيْكَ يَا عَمِّي فِيمَا عَزَمْتُ عَلَيْهِ ؟

قَالَ الرَّجُلُ مُهْتَمًّا :

— لَسْتُ أَرَاهُ رَأْيًا يَا خَدِيجَةُ ! وَمَا كَانَ خَوِيلِدُ أَبُولُكَ يَرَاهُ
لَوْ كَانَ حَيًّا .

امْرَأَةٌ فِي مِثْلِ سِنَّكَ وَثُرْوَتِكَ ، تَصْرِفُ نَفْسَهَا عَنِ الزَّوْاجِ ،
وَتَعِيشُ وَحِيدَةً ، وَتَأْبَى سَادَةَ مَكَّةَ ، وَتَكِدُّ مُفَكَّرَةً لَيْلَهَا
وَنَهَارَهَا ، وَكَانَ يُغْنِيهَا عَنْ هَذَا كُلِّهِ رَجُلٌ ! !

فَاسْتَمَعَتْ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَمَّ حَدِيثَهُ : ثُمَّ قَالَتْ فِي ابْتِسَامَةٍ
لَطِيفَةٍ :

— وَمَا رَأَيْكَ لَوْ كَانَتْ خَدِيجَةُ اقْتَدَعَتْ ، وَعَزَمَتْ عَلَى
الزَّوْاجِ ؟ !

فَنَظَرَ الرَّجُلُ إِلَيْهَا مِنْ رَأْسِهَا إِلَى قَدَمَيْهَا ، ثُمَّ قَالَ فِي
دَهْشَةٍ :

— تَكُونُ قَدْ أَحْسَنْتِ ، وَعَادَتْ إِلَى الصُّوَابِ !

وَلَكِنْ يَبْقَى الزَّوْجُ الَّذِي يَلِيْقُ يَا خَدِيجَةُ !

— ١٠٩ —

بَقِيَ أَنْ تَخْتَارِي مَا يُنَاسِبُ مَنْزِلَتِكَ فِي قُرَيْشٍ .
فَسَأَلْتَهُ عَنْ أَصْلَحِ رِجَالِ مَكَّةَ ، فَفَكَّرَ قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ فِي
حَدِّ :

— كُلُّهُمْ طَامِعٌ يَأْخُذُ بِحَدِيدَةٍ ، سَتَجِدِينَ رِجَالًا جَاوَزُوا^(١)
الشَّبَابَ ، وَفَتَيَانًا فِي أَوَّلِ مَرَاكِحِهِ ، وَآخَرِينَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ،
كُلُّهُمْ سَيَطْرُقُونَ بِأَبْكَ وَيُلِحُّونَ^(٢) عَلَيْكَ ، وَيَرْتَمُونَ تَحْتَ
قَدَمَيْكَ . وَلَكِنَّ الزَّوْجَ الَّذِي يُكْرِمُ زَوْجَتَهُ ، وَيَعِيشُ لِأُسْرَتِهِ ،
وَيَنْتَهُمُ مَعْنَى الزَّوْاجِ ، رَجُلٌ نَادِرٌ فِي مَكَّةَ ، فَإِذَا كَانَ ، فَارْتَيْسِ
مِنْ هَؤُلَاءِ الرُّؤَسَاءِ .

فَقَالَتْ خَدِيجَةُ بِاسْمَةٍ :

— وَإِذَا كَانَ رَجُلًا يَفْهَمُ مَعْنَى الزَّوْاجِ ، وَيُقَدِّرُ الْأُسْرَةَ ،
لَكِنَّهُ فَقِيرٌ ، فَمَاذَا تَرَى ؟

فَصَاحَ الرَّجُلُ :

— فَقِيرٌ ! فَقِيرٌ !

(١) جَاوَزُوا الشَّبَابَ : تَعَدَّوْهُ وَفَارَقُوهُ .

(٢) يُلِحُّونَ : يَكْتَرُونَ الطَّلِبَ .

— ١١٠ —

وصمت قليلاً ، ثم قال مُوافقاً :

— مادامَ رَجُلًا يَفْهَمُ تلكَ المعاني ، وَيُقَدِّرُ الزَّوْجَةَ ، وَيُعْطِيهَا حَقَّهَا ، فلا مانعَ من قَبُولِهِ ، أَمَّا الْغِنَى وَالْفَقْرُ فَيَبِيدُ اللَّهُ ، وَالرَّجُلُ الْعَاقِلُ الْمُجِدُّ إِذَا وَاصَلَ جِدَّهُ ، بَلَغَ الْغِنَى وَالثَّرْوَةَ .

وَأَنْتِ بِحَمْدِ اللَّهِ وَاسِعَةُ الثَّرَاءِ ، فَمَنْ ذَلِكَ الَّذِي تَعْنِينَهُ ؟
قالتُ بِاسْمَةِ :

— وَمَا رَأَيْكَ فِي مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ؟

فصاحَ الرجلُ مُسْرِعاً :

— عَظِيمٌ ! عَظِيمٌ !

خَيْرُ زَوْجٍ يَا خَدِيجَةُ ، وَمَا كَانَ لَكَ أَنْ تَرْفُضِي هَذَا الزَّوْاجَ ،
وَمَا كَانَ لَكَ أَنْ تَنْتَظِرِي هَذِهِ الْمُدَّةَ الطَّوِيلَةَ !

فأسرعتُ فَرِحَةً :

— قَدْ أَرْسَلَ اللَّيْلَةَ يَعْزُضُ هَذَا الزَّوْاجَ ، فَهَلْ رَضِيتَ
ياعَمِّي ؟ مَا كُنْتَ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى أَرَى رَأْيَكَ .

فاشْتَدَّ بِالرَّجُلِ التَّأَثُّرُ ، وَقَالَ فِي حَنَانٍ :

— عَوْضَكَ اللَّهُ خَيْرًا يَا خَدِيجَةُ ! صَرَفَكَ ^(١) هذه المدة
الطَّوِيلَةَ عَنْ الزَّوْاجِ ، لِيَمْنَحَكَ أَكْبَرَ فَضْلٍ ، وَيَخُصَّكَ بِأَمْنٍ
هَدِيَةٍ ، فَمِثْلُ مُحَمَّدٍ فِي الرُّجَالِ قَلِيلٌ ، وَيَالَيْتَ أَبَاكَ كَانَ
حَيًّا يَشْهَدُ هَذِهِ النُّعْمَةَ الَّتِي أَتَمَّهَا اللَّهُ عَلَيْكَ ، فَعَلَى بَرَكَتِهِ اللَّهُ
يَا خَدِيجَةُ !

مُؤَافَقٌ ، مُؤَافَقٌ !

وَكَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ نَهَضَ فِي الصُّبْحِ إِلَى بَيْتِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ ،
وَحَدَّثَهُ عَنْ رَغْبَتِهِ فِي الزَّوْاجِ مِنْ خَدِيجَةَ فَصَاحَ عَمُّهُ فِي
دَهْشَةٍ :

— وَتَرَضَى خَدِيجَةُ يَا مُحَمَّدُ ؟ !

قَالَ مُحَمَّدٌ بِاسْمًا :

— رَضِيتُ يَا عَمَّاهُ !

رَضِيتُ بِالْفَقِيرِ زَوْجًا لَهَا ، بَعْدَمَا صَرَفْتُ كِبَارَ الْأَغْنِيَاءِ ،
وَرَفَضْتُ أَوْلَئِكَ الرُّؤَسَاءَ .

(١) صرفك : منعك .

فَهَزَّ أَبُو طَالِبٍ رَأْسَهُ ، ثُمَّ قَالَ فِي ثِقَةٍ :

إِنَّهَا امْرَأَةٌ عَاقِلَةٌ حَازِمَةٌ^(١) ، تَعْرِفُ مَقَادِيرَ الرِّجَالِ ، فَلَمْ
تَجِدْكَ فَقِيرًا ، بَلْ أَدْرَكْتَ أَنَّكَ غَنِيٌّ النَّفْسِ ، ثَرِيٌّ الْفُؤَادِ ،
وَتَوَسَّعَتْ^(٢) ذَلِكَ ! !

وَأَخَذَ يَهْنِئُهُ بِزَوَاجِ خَدِيجَةَ ، وَنِعْمَةَ اللَّهِ الَّتِي ادَّخَرَهَا لَهُ ،
وَمُحَمَّدٌ فَرِحٌ يَشْكُرُ فَضْلَ اللَّهِ .

ثُمَّ طَارَ الْخَبَرُ فِي مَكَّةَ ، وَأَصْبَحَ هَذَا الزَّوْاجُ حَدِيثَ النَّاسِ ،
وَمَوْضِعَ دَهْشَتِهِمْ وَعَجَبِهِمْ ، وَخَدِيجَةُ فَرِحَتْ تَعِدُّ لِهَذَا الزَّوْاجِ ،
حَتَّى كَانَ الْيَوْمُ الْمَضْرُوبُ لِعَقْدِ الْعَقْدِ .

(١) حازمة : سديدة الرأي .

(٢) توسعت : توقعته .

— ١١٣ —

الأسئلة

(١)

«وكيف أدفع هذه الوحشة يا نفيسة ؟ اِإِنِّى فقير
لا أستطيع أَنْ أُحقق ما تَرمين إِلَيهِ ، وليست كُلُّ امرأة
تصلح زوجة يا نفيسة ، وليس الزواج لُعبة ، بل هو مهمة
لا تتحقق أغراضها إِلَّا إِذَا توفرت وسائلها ...

(أ) ما معنى «الوحشة» وما الذى كانت ترمى إِلَيهِ
«نفيسة» ؟

(ب) ما أثر وقع هذا الجواب من «محمد» فى نفس
«نفيسة» ، ولماذا ؟

(ج) كانت «نفيسة» بارعة فى الوصول إِلَى تحقيق
رسالتها . وضح .

(٢)

قال عم «خديجة» :

مادام رجلا يفهم تلك المعانى ويقدر الزوجة ، ويعطيها

— ١١٤ —

حقها فلا مانع من قبوله ، أما الغنى والفقر فبيد الله ، والرجل
العاقل المجتهد وإذا واصل جده بلغ الغنى والثروة . . .

قالت « خديجة » باسمه : وما رأيك في محمد بن عبد الله ؟
فصاح الرجل مسرعا : عظيم عظيم ؟ خير زوج يا خديجة .

(١) متى دار هذا الحوار بين خديجة وعمها ؟ وما هدفها
منه ؟

(ب) علام يدل تكرار كلمة عظيم في العبارة السابقة ؟

(ج) ماذا صنع « محمد » بعد أن عرضت عليه « نفيسة »
أن يتزوج من « خديجة » ؟

١٣، الزواج

اسْتَعَدَّتْ دَارُ خَدِيجَةَ لِاسْتِقْبَالِ الْيَوْمِ السَّعِيدِ ، كَمَا اسْتَعَدَّ
بَنُو أَسَدٍ قَوْمَهَا ، لِيُظْهِرُوا بِالْمُظْهِرِ اللَّائِقِ أَمَامَ بَنِي هَاشِمٍ قَوْمَ
مُحَمَّدٍ ، وَدَعَا كُلُّ مِنْهُمَا الْأَصْحَابَ وَالْأَحْبَابَ .

وَفِي مَسَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، كَانَ بَنُو أَسَدٍ وَبَنُو هَاشِمٍ فِي دَارِ
خَدِيجَةَ ، يَجْلِسُونَ فِي فِنَاءٍ وَاسِعٍ ، مُدَّتْ عَلَيْهِ أَلْوَانُ الْبُسْطِ
الْجَمِيلَةِ ، عَلَيْهَا الْوَسَائِدُ الْبَدِيعَةُ النَّقِيشُ ، قَدْ ارْتَدَوُا الْعِبَاءَاتِ
الْمُزْرَعَةَ ، وَلَفُّوا عَلَى رُءُوسِهِمُ الْعِمَائِمَ الْكَبِيرَةَ ، وَبَدَأَ
شُبُوحُهُمْ فِي وَقَارٍ (١) الْمُلُوكِ ذَوِي التَّيْجَانِ ، يَتَكَلَّمُونَ بِقَدَرِ
وَحُكْمَةٍ ، وَيَتَحَدَّثُونَ فِي رَزَانَةٍ وَتَرْتِيبٍ ، أَمَامَهُمْ مَجَامِرُ (٢) الذَّهَبِ
وَالْفِضَّةِ ، يَنْبَعِثُ مِنْهَا دُخَانُ النَّدِّ (٣) وَالْعَنْبَرِ .

(١) وقار : رزانة وثبات .

(٢) مجامر : مباخر .

(٣) الند : نوع من الطيب .

وَحَوَّلَهُمْ أَبْنَاؤُهُمْ وَإِخْوَانُهُمْ بِأَشْيَنْ ، يُرْسِلُونَ الْفَكَاهَاتِ
الْعَذْبَةَ وَيَتَنَدَّرُونَ^(١) ، وَيَتَحَدَّثُونَ فِي فَرَحٍ ، وَمُحَمَّدٌ فِي وَسْطِهِمْ
مُتَلَاتِلٌ الْوَجْهِ مُضِيءُ الْقَسَمَاتِ^(٢) ، وَعَمَّهُ أَبُو طَالِبٍ يَتَقَبَّلُ
التَّحِيَّاتِ وَالتَّهْنِئَاتِ ، وَيَرُدُّ عَلَيْهَا بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، وَعَمَّ خَدِيجَةُ
فَرِحٌ بِأَشْ ، يُوزَعُ بِسَمَاتِهِ وَتَحِيَّاتِهِ عَلَى الْجَمِيعِ .

وَقَدْ انْبَعَثَ مِنْ جَوَانِبِ الدَّارِ غِنَاءٌ رَفِيقٌ ، أَجَادَتُهُ جَوَارِي
خَدِيجَةَ وَمُحَبَّاتُهَا ، وَمَنْ فَرِحْنَ لَهَا مِنَ الْفَقِيرَاتِ اللَّاتِي
يَعِيشْنَ فِي نِعَمَتِهَا وَإِحْسَانِهَا .

ثُمَّ دَارَتْ أَكْوَابُ الشَّرَابِ ، وَأَطْبَاقُ الْفَاكِهَةِ ، فَتَنَاوَلَ
الْقَوْمُ مِنْهَا مَا لَدَّ وَطَابَ ، وَتَنَدَّرَ الشُّبَّانُ بِمَا حَلَا لَهُمْ مِنَ
النَّوَادِرِ الْمُضْحِكَةِ ، وَدَاعَبَهُمْ بَعْضُ الشُّيُوخِ بِفُكَاهَاتٍ رَائِقَةٍ .
فَلَمَّا اكْتَمَلَ الْمَجْلِسُ ، اسْتَوَى أَبُو طَالِبٍ فِي جِلْسَتِهِ ،
وَنَظَرَ إِلَى الْقَوْمِ فِي وَقَارٍ ، ثُمَّ قَالَ فِي سُرُورٍ :

— « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَزَرَعَ

(١) ويتندرون : يرسلون النوادر والفكاهات .

(٢) القسمات : جمع قسمة وهي ما فوق الحاجب من الوجه .

إِسْمَاعِيلَ ، حَفْظَةَ بَيْتِهِ الْحَرَامِ ، وَسَدَنَةَ^(١) حَرَمِهِ الْإِمِينِ :
وَأَتَانَا الْحُكْمَ بِالْحَقِّ وَالْأَمَانَةِ .

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ! هَذَا ابْنُ أَخِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، لَهُ
رَغْبَةٌ فِي خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ ، وَلَهَا فِيهِ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَهُوَ وَإِنْ
كَانَ قُلًّا فِي الْمَالِ ، فَإِنَّ الْمَالَ أَمْرٌ حَائِلٌ^(٢) وَوَدِيعَةٌ مُسْتَرَدَّةٌ ،
وَمَا يُوزَنُ مُحَمَّدٌ بِرَجُلٍ إِلَّا رَجَحَ بِهِ شَرْفًا وَعَقْلًا . . . » .

وَالْجَمِيعُ مُنْصِتُونَ إِلَى كَلَامِهِ ، يَهْزُونَ رُءُوسَهُمْ مُوَافِقِينَ ،
يَنْظُرُونَ إِلَى مُحَمَّدٍ بِاسْمِينَ ، وَعَيُونُهُمْ تَنْطِقُ بِالتَّهْنِئَةِ .

حَتَّى أَتَمَّ أَبُو طَالِبٍ خُطْبَتَهُ ، فَاعْتَدَلَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ ،
وَرَدَّ عَلَى هَذِهِ الْخُطْبَةِ بِلِسَانِ بَنِي أَسَدٍ ، مَادِحًا مُثْنِيًّا عَلَى مُحَمَّدٍ
وَصِفَاتِهِ ، ثُمَّ اعْتَدَلَ عَمْرُو بْنُ أَسَدٍ عَمَّ خَدِيجَةَ ، وَأَعْلَنَ فِي
سُرُورٍ أَنَّهُ زَوْجُ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ ابْنَةِ
أَخِيهِ .

فَانْطَلَقَتْ الزَّغَارِيدُ مِنَ الدَّارِ ، وَرَفَعَتْ الْجَوَارِي أَصْوَاتَهُنَّ

(١) سدنة : خدام الكعبة .

(٢) أمر حائل : شيء زائل .

بَأَعْدَبِ الْأَلْحَانِ ، ثُمَّ دَارَتْ عَلَى الْجَمِيعِ كُثُوسُ الشَّرَابِ ،
فَشَرِبُوا ، وَمُدَّتِ السُّمُطُ^(١) فَطَعِمُوا .

وَأَخَذَتْ خَدِيجَةُ تُوزِّعُ الصَّدَقَاتِ وَتَنْشُرُ الْمَالَ عَلَى الْفُقَرَاءِ ،
كَمَا تُوزِّعُ بَسَمَاتِهَا الرَّقِيقَةَ عَلَى صَدِيقَاتِهَا وَمُحَبَّاتِهَا ، الْأَلَاقِ
امْتَلَأَتْ بِهِنَّ الدَّارُ .

وَلَمَّا انْتَهَى الْعَقْدُ وَالسَّمَرُ ، انْصَرَفَ رِجَالُ مَكَّةَ وَنِسَاؤُهَا
إِلَى بُيُوتِهِمْ ، يَتَحَدَّثُونَ عَنْ مُحَمَّدٍ وَخَدِيجَةَ .

ثُمَّ انْتَقَلَ مُحَمَّدٌ إِلَى دَارِ خَدِيجَةَ ، وَاسْتَأْنَفَتْ الدَّارُ حَيَاتَهَا
كَمَا كَانَتْ ، وَبَدَأَ مُحَمَّدٌ يُسْتَعِدُّ لِيُعِينَ خَدِيجَةَ فِي تِجَارَتِهَا ،
وَيُدَبِّرُ أَمْرَ مَالِهَا .

لَكِنَّهَا أَحَسَّتْ بِأَنَّ مُحَمَّدًا خُلِقَ لِرِسَالَةٍ أَكْبَرَ مِنَ الْمَالِ
وَمِنَ التِّجَارَةِ ، وَأَنَسَتْ^(٢) مِنْ صَفَاءِ رُوحِهِ ، أَنَّهُ يُعَدُّ لِدَوْرٍ
كَبِيرٍ ، يُؤَدِّيهِ لِلْبَشَرِ لَا لِخَدِيجَةَ وَمَالِهَا ، وَلَا لِقُرَيْشٍ
وَحَدَّهَا .

(١) السُّمُطُ : جمع سميط وهو ما يمد عليه الطعام .

(٢) أَنَسَتْ : وجدت وعرفت .

فَأَصْبَحَتْ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ نَاهِضٌ إِلَى الْمَخَازِنِ ، لِيُلبِّيَ (١)
حَاجَةَ بَعْضِ الْعُمَّالِ ، وَنَظَرَتْ إِلَى وَجْهِهِ ، وَأَطَالَتْ النَّظَرَ
فِي عَيْنَيْهِ الْوَاسِعَتَيْنِ ، ثُمَّ قَالَتْ بِاسْمَةٍ :

— إِلَى آيْنِ يَا مُحَمَّدُ ، وَمَكَّةُ لَا تَزَالُ نَائِمَةً ؟ !

قَضَيْتَ شَطْرًا كَبِيرًا مِنَ اللَّيْلِ تَتأملُ السَّمَاءَ وَتَنْظُرُ فِي
النُّجُومِ ، فَهَلْ اسْتَرَحْتَ حَتَّى يَنْهَضَ سَادَةُ قُرَيْشٍ ؟ !

فَابْتَسَمَ مُحَمَّدٌ ابْتِسَامَةً زَادَتْ وَجْهَهُ إِشْرَاقًا ، ثُمَّ قَالَ فِي
صَوْتٍ رَقِيقٍ :

— لَا بُدَّ مِنَ النَّشَاطِ وَالْعَمَلِ يَا خَدِيجَةُ ، عَلَى الْمَوَدَّ أَنْ يَسْعَى ،
وَعَلَى اللَّهِ التَّوْفِيقُ !

قَالَتْ خَدِيجَةُ ، وَعَلَى شَفَتَيْهَا بِسْمَةٌ رَقِيقَةٌ :

— لَا عَلَيْكَ (٣) يَا بَنَ عَمِّي ، فَاَلْمَالُ مَوْفُورٌ ، وَنَحْنُ بِحَمْدِ
اللَّهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ ثَرَوَةً ، وَأَوْسَعِهِمْ غِنًى !

(١) ليلبي : ليجيب .
(٢) شطرا : جزءا .
(٣) لا عليك : لا تهتم .

فَأَجَابَ فِي رَفْقٍ :

— لَا أُرِيدُ الْمَالَ يَا خَدِيجَةُ ، وَلَكِنِّي أُرِيدُ الْعَمَلَ ؛ لَا بُدَّ أَنْ
يُؤَدَّى الْمَرْءُ فِي الْحَيَاةِ عَمَلًا وَإِنْ كَانَ الْمَالُ مُيسَّرًا لَهُ ، لَا بُدَّ أَنْ
يَسْعَى وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا ، لَا بُدَّ أَنْ يُنْفِقَ الصَّحَّةَ الَّتِي مَنَّ اللَّهُ بِهَا
عَلَيْهِ فِيمَا خُلِقَتْ لَهُ .

وَالْمَالُ لَا يَبْقَى يَا خَدِيجَةُ ، فَلَا بُدَّ مِنْ زِيَادَةِ تَعَوُّضٍ مَا يُنْفَقُ
مِنْهُ ، وَلَا بُدَّ مِنْ مَكْسَبٍ جَدِيدٍ عَلَيْهِ ، يُعْطَى مِنْهُ حَقُّ الْفَقِيرِ
وَالْمُسْكِينِ .

حَتَمَ عَلَيْنَا أَنْ نَسْعَى مِنْ أَجْلِ هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءِ ، الَّذِينَ رَبَطَ
اللَّهُ حَيَاتَهُمْ بِالْأَقْوِيَاءِ .

قَالَتْ خَدِيجَةُ فِي جِدِّ :

— لَنْ تَعْمَلَ بِبَيْدِكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَإِنَّمَا تُشِيرُ أَنْتَ ، وَالْخَدَمُ
يُنْفِذُونَ ، وَهُمْ كَثِيرٌ كَمَا تَرَى ، وَالْكُلُّ رَهْنٌ إِشَارَتِكَ ^(١) ،
وَسَوْفَ يَسِيرُ غَيْرُكَ بِالتَّجَارَةِ إِلَى بِلَادِ اللَّهِ الْبَعِيدَةِ ، فَلَكَ فِي
مَكَّةَ مِنَ الْعَمَلِ مَا لَا يَدَعُ وَقْتًا لِلرَّحِيلِ !

(١) الرهن : ما وضع عندك لينوب مناب ما أخذ منك
والمراد : خاضعون لأمرك وإشارتك .

— ١٢١ —

فَسَأَلَهَا مُحَمَّدٌ بِاسْمٍ :

— أَيْ عَمَلٍ تَعْنِينَ يَا بَنَّةَ الْعَمِّ ؟ !

قَالَتْ فِي رِفْقٍ :

— مَكَّةُ كُلُّهَا تَتَطَلَّعُ إِلَى رَأْيِكَ وَمَشُورَتِكَ ، وَمَكَانُ الرِّيَاسَةِ فِيهَا يُنَادِيكَ ، وَيَفْتَحُ ذِرَاعَيْهِ لَكَ ، وَرِجَالُ مَكَّةَ سَيَفْسَحُونَ^(١) لَكَ ، لِنَتَّخِذَ ذَلِكَ الْمَكَانَ الَّذِي خُلِقَتْ لَهُ .

قَالَ بِاسْمًا ، وَهُوَ يَهْمُّ بِالسَّيْرِ إِلَى الْمَخَازِنِ :

— سَأُفَكِّرُ يَا بَنَّةَ الْعَمِّ ، وَإِنْ كَانَ الْأَوَانُ لَمْ يَجِزْ ، فِدَا زُلْنَا فِي أَوَّلِ الطَّرِيقِ يَأْخُذُ بِيَدِي .

(١) سَيَفْسَحُونَ لَكَ : يَوْسَعُونَ وَيَفْرَجُونَ لَكَ عَنْ مَكَانٍ يَسْعَكَ .

الأسئلة

(١)

كيف تمت خطبة السيدة « خديجة » لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

(٢)

ماذا فعلت « خديجة » رضى الله عنها - بعد أن تمت الخطبة ؟ وما دلالة ذلك بالنسبة لشخصيتها ؟

(٣)

كيف تمّ زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة رضى الله عنها ؟

(٤)

ماذا فعل صلى الله عليه وسلم بعد انتقاله إلى دار « خديجة » ؟

* * *

١٤، ابوالقاسم

سَارَتْ الْآيَّامُ ، وَالزَّوْجَانِ يَزْدَادَانِ مَحَبَّةً ، وَيَشْتَدُّ تَعْلُقُ كُلِّ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ .

وَقَدْ أَفْسَحَ رَجَالُ مَكَّةَ لِمَحْمَدٍ مَكَانًا بَيْنَهُمْ ، وَأَصْبَحُوا يَسْتَشِيرُونَهُ فِي أَشَدِّ أُمُورِهِمْ تَعْقِيدًا ، وَيَجْعَلُونَهُ مَوْطِنَ أَسْرَارِهِمْ وَمُسْتَوْدَعَ أَمَانَتِهِمْ .

إِذَا جَلَسُوا لِلْأَمْرِ الْعَظِيمِ دَعَوْهُ ، وَإِذَا قَامُوا لِمَكْرَمَةٍ لَمْ يَفْتَهُهُمْ رَأْيُهُ . وَكُلَّمَا انْفَسَحَ لَهُ مَكَانٌ فِي وَسْطِ الرُّؤَسَاءِ ، أَحَسَّتْ خَدِيجَةُ بِالْعِزَّةِ وَتَمَنَّتْ أَنْ يُفْسَحَ لَهُ مَكَانٌ أَرْفَعَ مِنْهُ ، حَتَّى يَكُونَ سَيِّدَ مَكَّةَ كُلِّهَا .

وَقَدْ حَرَصَتْ عَلَى أَنْ تُوفَّرَ لَهُ الْهُدُوءُ وَالسَّكِينَةُ ، وَلَا تَشْغَلُهُ بِصَغَائِرِ الْأُمُورِ ، وَلَا تُسْمِعَهُ مَا يَشْغَلُهُ عَنِ الْعِظَائِمِ ، تَتَمَنَّى أَنْ تُوثِقَ الْآيَّامَ مَا بَيْنَهُمَا بِوَلَدٍ ، يَشُدُّ أَوَاصِرَ^(١) هَذِهِ الْأُفْقَةِ ،

(١) أواصر : روابط .

وَيُقَوِّى رَوَابِطَ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ ، وَالْأَيَّامُ تَسِيرُ عَلَى خَيْرٍ مَا يُرِيدُ
زَوْجَانِ مِنَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي .

فَلَمَّا انْقَضَى الْعَامُ الثَّانِي عَلَى زَوَاجِهِمَا ، حَقَّقَ اللَّهُ مَا تَمَنَّتُهُ
خَدِيجَةُ ، وَكَانَ « الْقَاسِمُ » فِي فِرَاشِهِ الصَّغِيرِ يَمْلَأُ الدَّارَ بِصِيَاحِهِ
وَيُحَرِّكُ رِجْلَيْهِ فِي مَهْدِهِ ، وَيُدِيرُ عَيْنَيْهِ يَمِينًا وَيَسَارًا ، فَيَمْلَأُ
قَلْبَ مُحَمَّدٍ فَرَحًا بِالْعَقَبِ^(١) الَّذِي تَحْرِصُ عَلَيْهِ الْعَرَبُ ،
وَتُكْثِرُ الزَّوْاجَ مِنْ أَجْلِهِ ، وَيَمْلَأُ قَلْبَ خَدِيجَةَ غِبْطَةً^(٢) بِهَذَا
الرِّبَاطِ الْمَتِينِ ، الَّذِي رَبَطَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ، وَسَرَّ قَلْبَهُ
وَاكْتَمَلَتْ بِهِ سَعَادَتُهُ وَسَعَادَتُهَا .

وَعَدَتْ خَدِيجَةُ تُنَادِي مُحَمَّدًا « أَبَا الْقَاسِمِ » فَيَطْرَبُ لِيَهْدِيهِ
الْكُنْيَةَ^(٣) الْجَدِيدَةَ ، كَمَا أَصْبَحَ النَّاسُ يُنَادُونَهُ بِهَا ،
فَيَطْرَبُ لَهَا .

وَصَارَتْ هَذِهِ الْكُنْيَةُ فِي أُذُنِ خَدِيجَةَ مُوسِيقًا عَذْبَةً النَّعْمَاتِ ،
يَتَمَتَّعُ قَلْبُهَا لِلْحَيَاةِ كُلَّمَا سَمِعَتْ النَّاسَ يَدْعُونَ زَوْجَهَا بِهَا ،

(١) العقب : الولد الذكر .

(٢) غبطة : سرور .

(٣) الكنية : ما صدرت بأب أو أم فيقال أبو فلان ، وأم فلان ، مثل
أبو حسن ، وأم سعد .

فالقاسمُ ابْنُهُما ، والثَّمَرَةُ الأولى لَهُدِهِ الْمَحَبَّةُ وَذَلِكَ الْإِخْلَاصُ .
وَكُلَّمَا مَرَّ يَوْمُ زَادَ مُحَمَّدٌ فِي مَكَّةَ عَظْمَةً ، وَزَادَ التِّفَافُ
النَّاسَ بِهِ ، وَتَقْدِيرُهُمْ لَهُ .

وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُو يَوْمٌ مِنْ مُشْكَلَةٍ يَحُلُّهَا ، أَوْ رَأَى سِدِيدٍ ^(١) ،
يُسَدِّدُهُ ^(٢) ، يَجْلِسُ فِي دَارِ النَّدْوَةِ ^(٣) مَعَ الْعَجَالِسِينَ ، لَكِنَّهُ
يُكْثِرُ الصَّمْتَ ، وَيَلْتَزِمُ الْوَقَارَ ، وَيَمِيلُ إِلَى الْمَظْلُومِ عَلَى
الظَّالِمِ ، وَيَنْصُرُ الْحَقَّ وَيَخْذُلُ الْبَاطِلَ ، وَلَا يُجَامِلُ أَحَدًا ،
وَلَا يُحَابِي قَرِيبًا وَلَا صَاحِبًا ، وَلَا تَعْرِضُ مَكْرَمَةٌ إِلَّا سَعَى فِي
تَحْقِيقِهَا ، وَشَجَعَ النَّاسَ عَلَيْهَا .

وَلَمْ يَنْقُصْ عَامٌّ عَلَى مَوْلِدِ الْقَاسِمِ ، حَتَّى كَانَتْ «زَيْنَبُ»
فِي مَهْلِهِا تَبْتَسِمُ إِلَى أَبَوَيْهَا ، وَتُسَاعِيهِمَا ، وَتَنْظُرُ إِلَيْهِمَا
بِعَيْنَيْهَا الصَّغِيرَتَيْنِ الْبَرِيئَتَيْنِ ، وَخَدِيجَةُ مُسْرُورَةٌ ، لِأَنَّهَا
أَنْجَبَتْ لِمُحَمَّدٍ الْوَلَدَ وَأُنْجِبَتْ لَهُ الْبَنَتُ .

(١) سديد : صواب موفق .

(٢) يسديه : يقدمه .

(٣) دار الندوة : دار اجتماع قريش .

لكنَّ القاسِمَ لَزِمَ الْفِرَاشَ ذَاتَ يَوْمٍ ، يَشْكُو مَرَضًا أَلَمَ بِهِ ،
فَأَسْرَعَتْ خَدِيجَةُ تَمَرُّضُهُ ، وَتَسْتَعِينُ بِنَ يَذَرُونَ فِي عِلَاجِ
الْأَمْرَاضِ وَوَصَفِ الدَّوَاءِ ، وَمُحَمَّدٌ بِجَانِبِهَا ، يُعِينُهَا ، وَيَنْظُرُ
حَزِينًا إِلَى هَذَا الصَّغِيرِ الَّذِي يَشْتَدُّ عَلَيْهِ الدَّاءُ وَلَا يُجْدِي (١) ،
فِيهِ الدَّوَاءُ .

وَحَدِيجَةُ حَائِرَةٌ ، تَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ ، وَتُفَكِّرُ فِي هَذَا الصَّغِيرِ
الَّذِي يَذْوَى أَمَامَهَا ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُنْقِذَهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ ،
وَهُوَ يُسْرِعُ إِلَى النِّهَايَةِ ، وَمَالُهَا كُلُّهُ عَاجِزٌ عَنْ رَدِّ مَا نَزَلَ بِهِ .
اسْتَفْغَاتٌ بِمَا يُؤْكَلُ ، وَمَا يُشْرَبُ ، وَمَا يُعْلَقُ مِنْ
التَّمَائِمِ (٢) ، وَبِالرُّقَاةِ ، وَنُطْطِيسِ (٣) الْأَطْيَاءِ ، وَبَذَلَتْ لِمَنْ يَشْفِي
الْقَاسِمَ مَا يُرِيدُ مِنَ الْمَالِ .

وَكُلَّمَا نَظَرَتْ إِلَى صَغِيرِهَا ، وَهُوَ يَذْوَى كَغُصْنِ الشَّجَرَةِ ،
الَّتِي حُبِسَ عَنْهَا الْمَاءُ وَاشْتَدَّ بِهَا الْحَرُّ ، كَادَ قَلْبُهَا يَنْفَجِرُ ،
ثُمَّ يَشْتَدُّ بِهَا الْأَسَى حِينَ تَنْظُرُ إِلَى زَوْجِهَا ، فَتَرَاهُ حَزِينًا ،

(١) لَا يُجْدِي : لَا يَفِيدُ .

(٢) التَّمَائِمُ : مَا كَانَ يُعْلَقُ فِي الْعُنُقِ مِنْ خُرْزَةِ أَوْ غَيْرِهَا لِيَمْنَعَ
الْعَيْنَ وَيَشْفِيَ الْمَرِيضَ كَمَا كَانُوا يُعْتَقِدُونَ .

(٣) نُطْطِيسُ : مَهْرَةٌ .

مُشْفِقًا عَلَى الصَّغِيرِ مِنَ النَّهَائَةِ الَّتِي تَقْتَرِبُ مِنْهُ ، تَوَدُّ لَوْ أَنَّهَا
تَحَمَّلَتْ الصَّدْمَةَ وَحَدَّهَا دُونَهُ ، أَوْ أَنَّ مُعْجَزَةً تُنْجِي هَذَا
الصَّغِيرَ مِنْ مَخَالِبِ الْمَوْتِ .

لَكِنَّ قَضَاءَ اللَّهِ فَوْقَ كُلِّ يَدٍ ، وَقُدْرَتُهُ فَوْقَ كُلِّ قُدْرَةٍ ،
فَلَمْ يُجِدْ فِي عِلَاجِ الْقَاسِمِ دَوَاءً ، وَتَلَا حَقَّتْ أَنْفَاسُهُ ، وَفَتَحَ
عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ أَغْلَقَهُمَا ، وَأَسْلَمَ أَنْفَاسُهُ ، فَأَنْفَلَقَ قَلْبُ خَدِيجَةَ
نِصْفَيْنِ ، وَدَارَتْ بِهَا الْأَرْضُ ، وَتَذَكَّرَتْ زَوْجَهَا ، فَتَجَلَّدَتْ
لِيَتَجَلَّدَ ، وَحَبَسَتْ دُمُوعَهَا فِي عَيْنَيْهَا ،

لَكِنَّهَا رَأَتْ عَيْنَيْهِ تَدْمَعَانِ ، فَدَمَعَتْ عَيْنَاهَا ، وَقَالَتْ وَهِيَ
تَنْظُرُ إِلَيْهِ :

— قَضَاءُ اللَّهِ يَا مُحَمَّدُ ، وَلَا رَادَّ لِمَا قَضَى اللَّهُ !

مَا بَعِثْنَا بِجُهْدٍ وَلَا مَالٍ ، وَهَلْ كَانَ فِي يَدِنَا أَنْ نَرُدَّ الْقَاسِمَ ،
وَقَدْ اخْتَارَهُ اللَّهُ ؟ !

ثُمَّ قَامَا ، وَلَفَّ الصَّغِيرَ فِي كَفَنِهِ ، وَحَمَلَاهُ ، وَأَوْدَعَاهُ قَبْرَهُ ،
وَعَادَا إِلَى الْبَيْتِ ، وَخَدِيجَةُ تَتَوَسَّلُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يُعَوِّضَهَا مِنْ

الْقَاسِمِ وَلَدًا يُخَفِّفُ مَا فِي قَلْبِ خَدِيجَةَ وَمُحَمَّدَ مِنَ الْأَمْسَى ،
وَيُذْهِبُ مَا بِهِ مِنَ الْحُزَنِ .

وَكُلَّمَا قَرَبْتُ أَيَّامَ وَضْعِهَا ، تَوَسَّلْتُ إِلَى رَبِّهَا ، أَنْ يَرْزُقَهَا
وَلَدًا ، حَتَّى جَاءَهَا الْمَخَاضُ ، فَزَادَ تَوَسُّلُهَا إِلَى رَبِّهَا ، لَكِنَّهَا
وَلَدَتْ «رُقِيَّةَ» فَرَجَمَتْ رَبِّهَا أَنْ تَلِدَ بَعْدَهَا الْوَلَدَ ، فَوَلَدَتْ
«أُمَّ كُلْثُومٍ» فَتَوَسَّلْتُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَرْزُقَهَا وَلَدًا ، فَرَزَقَهَا
«فَاطِمَةَ» !!

حَزَّ (١) ذَلِكَ فِي قَلْبِهَا ، وَأَخَذَتْ تَنْظُرُ إِلَى مُحَمَّدٍ شَدِيدَةَ
الْأَمْسَى ، بَادِيَةً (٢) الْحُزَنِ ، لَكِنَّهَا رَأَتْهُ شَدِيدَ الْعَنَايَةِ بِبَنَاتِهِ ،
شَدِيدَ الْمَحَبَّةِ لَهُنَّ ، فَخَفَّفَ ذَلِكَ بَعْضَ مَا تَجِدُ .

وَلَمْ تَلِدْ بَعْدَ ذَلِكَ بِنْتًا وَلَا وَلَدًا ، وَلَمْ تَعُدْ تُفَكِّرُ فِي
الْبِنْتِ وَلَا فِي الْوَلَدِ ، فَقَدْ رَأَتْ زَوْجَهَا يَشْتَدُّ بِرَّهُ بِهَا ، وَعَظْفُهُ
عَلَيْهَا ، وَتَقْدِيرُهُ لَهَا .

وَوَجَدْتُهُ مُهِتَمًا بِالتَّفَكُّيرِ وَالتَّادُّبِ فِي صُنْعِ اللَّهِ ، فَشَغَلَ
قَلْبَهُ بِالْمَلَأِ (٣) الْأَعْلَى وَمَا فِيهِ ، وَشَغَلَ وَقْتَهُ بِخَلْقِ اللَّهِ ، يُوَارِي

(١) حَزَّ ذَلِكَ : أَثَرُ .

(٢) بَادِيَةٌ : ظَاهِرَةٌ .

(٣) الْمَلَأُ الْأَعْلَى : السَّمَاءُ .

الضعفاء^(١) ، وَالْمَسَاكِينَ ، وَيَفْتَحُ قَلْبَهُ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ .
وَيُدَافِعُ عَنِ الْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ يَسْتَعْبِدُهُمُ النَّاسُ ، وَيَسْعَى
فِي الْخَيْرِ ، وَالْمَحَبَّةِ وَالسَّلَامِ .

ثُمَّ رَأَتْهُ يَمِيلُ إِلَى الْعُزْلَةِ ، وَالانْقِطَاعِ عَنِ النَّاسِ ، فَهَيَّأَتْ
لَهُ الْهُدُوءَ وَالسَّكِينَةَ ، فَكَانَ لَهُ فِي الْبَيْتِ وَحْدَهُ حُجْرَةٌ خَاصَّةٌ
بِهِ ، وَنَابَتْ عَنْهُ ، فَقَضَمَتِ الْحَاجَاتِ ، وَوَأَسَتْ الْمُصَابِينَ .

وَعَاشَتْ هَذِهِ الدَّارَ الْكَبِيرَةَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ عَامًا ، فِي هُدُوءٍ
وَسُكُونٍ ، لَا يَتَرَدَّدُ فِيهَا لَغْوٌ^(٢) ، وَلَا قَوْلٌ نَافِرٌ ، وَلَا يُسْمَعُ
فِيهَا غَيْرُ التَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ ، وَغَيْرُ نَعَمٍ ، وَأَهْلًا ، وَأَصْوَاتٍ
مُزْتَفِعَةٍ إِلَى السَّمَاءِ ، تَدْعُو لِأَهْلِهَا بِالْعِزِّ ، وَدَوَامِ النُّعْمَةِ .

وَكُلَّمَا اقْتَرَبَ مُحَمَّدٌ مِنَ الْأَرْبَعِينَ ، رَأَتْ خُلْدِيحَةَ فِي وَجْهِهِ
عَلَامَاتِ النَّبُوَّةِ تَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَفِي قَوْلِهِ دَلَائِلُ الرِّسَالَةِ ،
تَنْمُو يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَأَصْبَحَ إِذَا اسْتَيْقَظَ ، أَخْبَرَهَا بِرُؤْيَاهَا
فِي نَوْمِهِ ، فَلَا يَمُضِي يَوْمٌ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ ، حَتَّى تَتَحَقَّقَ هَذِهِ
الرُّؤْيَا كُلُّهَا كَمَا رَأَاهَا ، كَأَنَّهُا تُعِيدُ نَفْسَهَا حَرْفًا حَرْفًا .

(١) يُوَاسِي الضَّعْفَاءَ : يَخْفِفُ عَنْهُمْ .

(٢) اللَّغْوُ : قَوْلٌ بَاطِلٌ .

فَتَزْدَادُ خَدِيجَةُ سُرُورًا ، وَيَزْدَادُ أَمْلُهَا فِي نُبُوءِ زَوْجِهَا ،
وَتَشْتَدُّ عِنَايَةً بِهِ ، وَتَوْفِيرًا لِرَاحَتِهِ .

كَانَ يُحْسِنُ أَنَّ صَفَاءَ نَفْسِهِ يَزْدَادُ ، وَكَانَتْ هِيَ تُحْسِنُ
ذَلِكَ الصَّفَاءَ وَالْإِشْرَاقَ الَّذِي يَبْدُو فِي قَسَمَاتِهِ ، وَتُسَرُّ كُلَّمَا
رَأَتْهُ يُجَاهِدُ نَفْسَهُ وَيُحَاسِبُهَا ، وَقَدْ اخْتَارَ جَبَلًا مِنْ جِبَالِ
مَكَّةَ صَعْبَ الْمُرْتَقَى ، يُسَمَّى جَبَلَ حِرَاءَ ، عَلَى بُعْدِ فَرَسَخَيْنِ (١) ،
لِيَنْقَطِعَ فِيهِ شَهْرًا كَامِلًا كُلَّ عَامٍ .

فَإِذَا أَقْبَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ ، أَعَدَّ زَادَهُ الْقَلِيلَ ، مِنْ الشَّعِيرِ
وَالْمِلْحِ وَالزَّيْتِ ، أَوْ التَّمْرِ ، وَمَا يَكْفِيهِ مِنَ الْمَاءِ ، ثُمَّ سَارَ
إِلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ ، وَصَعِدَ فِي طَرِيقٍ وَغَرَّ (٢) إِلَى قِمَّتِهِ ، حَتَّى
يَبْلُغَ غَارًا فِي تِلْكَ الْقِمَّةِ الْعَالِيَةِ فَيَأْوِي إِلَيْهِ ، مُنْقَطِعًا عَنِ
النَّاسِ ، يَحْيَا فِيهِ زَاهِدًا (٣) نَاطِرًا إِلَى اللَّهِ ، بَعِيدًا عَنِ الدُّنْيَا
وَضُوضَائِهَا ، وَعَنِ النَّاسِ ، وَكَذِبِهِمْ ، وَغَشَّهِمْ ، وَخِدَاعِهِمْ ،
وَكُذُوبِهِمْ ، وَعَنِ كُلِّ مَا يَصْرِفُ الْمَرْءَ عَنِ اللَّهِ ، وَالتَّفَكُّيرِ فِي
صُنْعِهِ .

(١) الفرسخ = ثلاثة أميال ، والميل : ١٦٠٩ مترا تقريبا .

(٢) وعر : صعب .

(٣) زاهدا : بعيدا عن زخرف الدنيا .

فَإِذَا انْقَضَى رَمَضَانُ ، عَادَ إِلَى خَدِيجَةٍ ، وَقَدْ نَالَ مِنْهُ
الْجَهْدُ^(١) ، وَأَخَذَ مِنْهُ التَّعَبُ ، فَيَجِدُ فِي قَلْبِهَا الْحُزْنَ دِفْئًا
يُذْهِبُ مَا بِهِ مِنَ الْأَلَمِ ، وَيُعِيدُهُ إِلَى قُوَّتِهِ ، وَيَهْوُنُ عَلَيْهِ
مَا وَجَدَ مِنَ الْعَنَاءِ .

تَمَسَّحَ بِكَلِمَاتِهَا الرَّقِيقَةِ هَمَّهُ ، وَتَزِيلُ بِبَسْمَتِهَا الصَّافِيَةَ
الرَّاضِيَةَ عَنَاءَهُ ، وَتُسَجِّعُهُ عَلَى مَا هُوَ مُنْدَفِعٌ إِلَيْهِ ، وَتُهَوِّنُ
هَذَا الْعَنَاءَ فِي عَيْنَيْهِ .

وَتَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهَا كَانَتْ مَعَهُ ، تَنْظُرُ مِنْ فَوْقِ حِرَاءٍ إِلَى قِمَمِ
الْجِبَالِ الْعَالِيَةِ ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ طُرُقٍ ضَيِّقَةٍ ، وَتَرَى السَّمَاءَ
وَنُجُومَهَا وَصَفَاءَهَا ، وَتَتَمَتَّعُ بِالْهُدُوءِ وَالسَّكُونِ ، بَعِيدًا عَنْ
ضَوْضَاءِ مَكَّةَ وَصَحْبِهَا^(٢) ، وَتَقْضِي شَهْرًا كَامِلًا فِي هَذِهِ الْمُتَنَعَةِ
الرُّوحِيَّةِ الَّتِي يَعِيشُ فِيهَا .

حَتَّى إِذَا انْقَضَى الْعَامُ وَاقْتَرَبَ شَهْرُ رَمَضَانَ ، قَامَتْ تُعِدُّ لَهُ
مَا يُرِيدُ لِذَلِكَ السَّفَرِ ، وَأَبْدَتْ لَهُ مِنَ السُّرُورِ مَا يُشْجِعُهُ ،

(١) الجهد : التعب .

(٢) صحبها : ضوضائها .

فَيَسِيرُ إِلَى حِرَاءٍ كَمَا سَارَ قَبْلُ ، وَقَدْ تَزَوَّدَ مَعَ زَاوِيهِ كَثِيرًا مِنْ
كَلِمَاتِهَا اللَّطِيفَةِ ، وَحَنَانِهَا وَبِرِّهَا .

وَكَانَتْ كَلِمًا تَقْدِمُتُ الْأَيَّامُ ، اِزْدَادَ قَلْبُهَا انْشِرَاحًا ،
وَاقْتَرَبَ مِنْ نَفْسِهَا الْأَمَلُ الَّذِي تَنْتَظِرُهُ وَتَهْوَاهُ ، وَفَاضَ بِهَا
السُّرُورُ حِينَ تَرَى دَلَائِلَ النُّبُوَّةِ تَزْدَادُ ظُهُورًا عَلَى زَوْجِهَا ،
وَتُشْرِقُ فِي وَجْهِهِ ، وَكَلِمَاتِهِ ، وَإِشَارَاتِهِ ، وَتَرْجُو اللَّهَ أَنْ تَعِيشَ
حَتَّى تَرَى ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي يَأْذُنُ اللَّهُ لَهَا فِيهِ بِأَنْ تَكُونَ زَوْجَ
النَّبِيِّ .

— ١٣٣ —

الأسئلة

(١)

ما مكانة (محمد) في مكة قبل البعثة النبوية ؟ وما
مظهر ذلك ؟

(٢)

«وغدت خديجة تنادي «محمدا» أبا القاسم ، فيطرب لهذه
الكنية الجديدة ، كما أصبح الناس ينادونه بها ، فيطرب
لها ، وصارت هذه الكنية في أذن «خديجة» موسيقا عذبة
النعيمات .»

(١) ما معنى «الكنية» ؟ وما أثر ما كنى به «محمد»

صلى الله عليه وسلم في نفسه ؟

(ب) « صارت هذه الكنية في أذن «خديجة» موسيقا

عذبة النعيمات » اشرح .

(ج) كان «محمد» صلى الله عليه وسلم قبل البعثة يشارك

في حل المشكلات . وضع .

— ١٣٤ —

(٣)

«وأصبح إذا استيقظ أخبرها برؤياها في نومه ، فلا يمضي يوم أو بعض يوم حتى تتحقق هذه الرؤيا كلها كما رآها ، كأنها نفسها حرفاً حرفاً» .

(١) علام يدل ذلك ؟

(ب) رأت «خديجة» - «محمداً» يميل إلى العزلة . فماذا صنعت وعلام يدل ذلك بالنسبة لها ؟

(ج) ماذا كان يصنع صلوات الله وسلامه عليه في شهر رمضان قبل البعثة ؟

* * *

١٥٠، ايمان

أَصْبَحَتْ خَدِيجَةُ فِي شُغْلِ بِمُحَمَّدٍ ، وَمَا هُوَ مُقَدِّمٌ عَلَيْهِ ،
تُدَبِّرُ تَجَارَتَهَا وَمَالَهَا ، وَتُدَبِّرُ لَهُ مَا يُعِينُهُ عَلَى تَصْفِيَةِ نَفْسِهِ ،
وَتُوَهِّلُ نَفْسَهَا لِدَلِّكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ الَّذِي اقْتَرَبَ .

وَكَانَتْ تُحَدِّثُ ابْنَ عَمِّهَا وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ بِمَا تَرَاهُ مِنْ مُحَمَّدٍ ،
فَيُبَشِّرُهَا ، وَيُؤَكِّدُ لَهَا أَنَّ كُلَّ مَا تَرَاهُ مِنَ الدَّلَائِلِ بِشِيرِ النَّبُوَّةِ .

فَإِذَا اطْمَأَنَّ قَلْبُهَا إِلَى أَمَلِهَا ، بَدَأَ أَمَامَهَا مَا يُحَدِّثُهَا بِهِ
« وَرَقَةُ » مِنْ الْجِهَادِ وَالْعَنَاءِ ، الَّذِي سَيَلْقِيهِ ذَلِكَ النَّبِيُّ ،
فَتُحَسِّنُ بِقُوَّةِ نَفْسِهَا ، وَتَوَثِّبُهَا لِلْعَمَلِ ، وَمُلَاقَاةِ الصُّعَابِ ،
وَتَسْتَمْنِي لَوْ تَمَّ هَذَا الْأَمْرُ ، وَشَمَرَتْ مَعَ مُحَمَّدٍ لِلنُّضَالِ^(١) !

أَصْبَحَ قَلْبُهَا مُعَلِّقًا بِمُحَمَّدٍ ، فِي الْبَيْتِ ، أَوْ فِي الْغَارِ ،
أَوْ بَيْنَ سَادَةِ مَكَّةَ .

(١) النضال : الكفاح .

فإذا كَانَ فِي الْغَارِ أَحْسَتْ بِدَافِعٍ يَدْفَعُهَا إِلَيْهِ ، فَسَارَتْ فِي ذَلِكَ الطَّرِيقِ الْوَعْرِ ، وَصَعِدَتْ إِلَى أَعْلَى الْجَبَلِ ، وَاطْمَأَنَّتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ عَادَتْ ، فَيُحْسِنُ مُحَمَّدٌ مِنْ هَذَا الْقَلْبِ الرَّحِيمِ عَطْفًا يُعِينُهُ عَلَى مَا هُوَ فِيهِ .

وَكَانَ قَدْ حَدَّثَهَا بِمَخَاوِفِهِ ، وَأَخْبَرَهَا أَنَّهُ يَسْمَعُ أَصْوَاتًا فِي جَوْفِ الصَّحَرَاءِ ، فَيَضْطَرُّ قَلْبُهُ حِينَ تَبْلُغُ أُذُنِيهِ ، فَاشْتَدَّ خَوْفُهَا عَلَيْهِ فَكَانَتْ إِذَا تَأَخَّرَ عَنِ الْبَيْتِ قَلِيلًا ، بَعَثَتْ بَعْضَ خَدَمِهَا لِيَطْمَئِنُّوا عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَعُودُوا لِيُطْمَئِنُّوَهَا .

حَتَّى كَانَتْ لَيْلَةً مِنْ لَيَالِي رَمَضَانَ ، وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءَ ، وَكَانَ الظَّلَامُ يَلْفُ الْجِبَالَ وَالْوَهَادَ^(١) بِرِدَائِهِ قَاتِمٍ^(٢) ، وَالنُّجُومُ تُطِلُّ مِنْ وَسْطِهِ ، كَأَنَّهَا عُيُونٌ تَنْظُرُ مِنْ عَلَيَّائِهَا إِلَى الْأَرْضِ ، وَرُءُوسُ الْجِبَالِ قَدْ بَدَتْ فِي ضَوْءِ النُّجُومِ الْخَافِتِ أَشْبَاحًا وَاقِفَةً ، يَنْظُرُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَاللَّيْلُ سَاكِنٌ هَادِيٌّ ، لَا يَقْطَعُهُ إِلَّا زَيْبُرُ الْوُحُوشِ الْمُتَنَقِّلَةِ بَيْنَ الْجِبَالِ تَتَحَسَّسُ فَرَائِسَهَا هُنَا وَهُنَا ، وَقَدْ اخْتَفَتْ مَكَّةُ فِي وَسْطِ الظَّلَامِ ، فَلَا

(١) الوهاد : الامكنة المنخفضة .

(٢) قاتم : شديد السواد .

يُرى مِنْهَا سِوَى نُورٍ ضَمِيلٍ يَنْبَعِثُ مِنْ بَعْضِ الْمَصَابِيحِ ،
كَأَنَّهُ نُجُومٌ وَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ .

وَمُحَمَّدٌ فِي الْغَارِ عَلَى قِمَّةِ جِرَاءٍ ، يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ وَاللَّيْلِ ،
قَدْ أَحَسَّ بِالصَّفَاءِ ، وَانْفَتَحَ قَلْبُهُ لِلسَّمَاءِ .

وَحَدِيدَةٌ فِي بَيْتِهَا ، لَمْ يُخْمَضْ لَهَا جَفْنٌ ، وَلَمْ تَنْطَبِقْ لَهَا
عَيْنٌ ، يَحْدِثُهَا قَلْبُهَا شَتَّى ^(١) الْأَحَادِيثِ ، وَيَصُورُ لَهَا تِلْكَ
الْأَشْبَاحَ الَّتِي تُحِيطُ بِمُحَمَّدٍ ، وَتِلْكَ الْأَصْوَاتَ الَّتِي يَسْمَعُهَا
مِنْ بَيْنِ الْجِبَالِ ، حَتَّى ازْدَحَمَ الْخَوْفُ فِي قَلْبِهَا ، فَلَمْ تَضِيرْ
حَتَّى يُشْرِقَ الصَّبَاحُ وَسَارَتْ مَعَ بَعْضِ خَدَّيْهَا إِلَى الْغَارِ .

وَأَسْرَعَتْ تَتَسَلَّقُ الْجَبَلَ ، غَيْرَ عَابِثَةٍ بِتِلْكَ الصُّخُورِ النَّائِثَةِ
الَّتِي تَضْرِبُ قَدَمَيْهَا فَتَشُقُّهُمَا ، وَلَا بَأْنَفَاسِهَا الْمُتَلَحِّقَةَ مِنْ
شِدَّةِ الْجَهْدِ ، حَتَّى بَلَغَتْ الْغَارَ وَنَظَرَتْ فِيهِ فَلَمْ تَجِدْ مُحَمَّدًا ،
فَارْتَدَّتْ خَائِفَةً مُرْتَعِدَةً ، وَتَلَفَّتْ صَائِحَةً :

— أَيْنَ ذَهَبَ ؟ ! الْمَكَانُ كُلُّهُ خَالٍ ، فَأَيْنَ هُوَ ؟ ! !

ثُمَّ أَسْرَعَتْ هَابِطَةً ، وَالْخَدَمُ يَسْبِقُونَهَا إِلَى الْوَادِي ،

(١) شتى الأحاديث : مختلف الأحاديث .

وَأَنْطَلَقُوا يَبْحَثُونَ عَنْ مُحَمَّدٍ ، وَأَسْرَعَتْ هِيَ إِلَى الْبَيْتِ عَلَيْهَا
تَجِدُهُ هُنَاكَ .

لَكِنَّهَا لَمْ تَجِدْهُ فِي الْبَيْتِ ، فَاشْتَدَّ بِهَا الْقَلْقُ ، وَوَقَّعَتْ
حَايِرَةً ، تُفَكِّرُ فِيهَا يَكُونُ قَدْ حَدَثَ ، تَسْأَلُ نَفْسَهَا :

— أَيْنَ يَكُونُ قَدْ ذَهَبَ ؟ ! لَيْسَ فِي الْغَارِ وَلَا فِي الْبَيْتِ !!

ثُمَّ أَخَذَتْ تُطْمِئِنُّ نَفْسَهَا قَائِلَةً :

— قَدْ يَكُونُ فِي الْوَادِي !

لَكِنَّ الْخَدَمَ أَقْبَلُوا ، تَرْتَسِمُ عَلَى وُجُوهِهِمْ دَلَائِلُ الْإِخْفَاقِ^(١)
وَالْأَلَمِ ، وَأَخْبَرُوهَا بِأَنَّهُمْ لَمْ يَتْرَكُوا قِطْعَةً فِي جَوَانِبِ الْوَادِي ،
فَلَمْ يَعْمُرُوا لَهُ عَلَى أَثَرٍ .

فَكَادَتْ الصَّرِيخَةُ تَنْطَلِقُ مِنْ فِيهَا ، مُدَوِّيَّةً ، تَشْقُ سَكُونُ
الَّيْلِ ، تَسْتَفْهِمُ بِالنَّاسِ ، لَكِنَّهَا صَمَخَتْ فِي خَدَمِهَا ، لِيَعُودُوا
إِلَى الْجَبَلِ وَالسَّهْلِ ، يَبْحَثُونَ ، وَيُفْتَتِّشُونَ .

فَانْطَلَقُوا ، وَوَقَّعَتْ تَرْتَجِفُ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ ، وَالْأَشْبَاحِ

(١) الاخفاق : عدم التوفيق .

تَتَرَاقِصُ أَمَامَ عَيْنَيْهَا ، بِمَخَالِبِهَا الْحَادَّةِ ، وَأَنْيَابِهَا الْقَوِيَّةِ ،
وَأَفْوَاهِهَا الْوَاسِعَةِ ، وَوُثْبَتِهَا الْقَاتِلَةِ ، وَيَبْدُو مُحَمَّدٌ أَمَامَهَا
يُدَافِعُ تِلْكَ الْأَشْبَاحَ وَيَرُدُّهَا ، فَيَفْتُرُ ثَغْرَهَا (١) حِينَ تَرَى
مُحَمَّدًا الْقَوِيَّ الْمَاهِرَ فِي الطُّغْنِ وَالضَّرْبِ ، قَدْ هَجَمَ عَلَى تِلْكَ
الْأَشْبَاحِ فَرَدُّهَا وَأَخَافَهَا .

ثُمَّ يَعْجَسُ وَجْهَهَا ، حِينَ تَبْدُو لَهَا تِلْكَ الْأَشْبَاحُ كَبِيرَةً ،
يُنَادِي بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَتَقْبِلُ مُسْرِعَةً ، تَقْفِزُ مِنْ جَبَلٍ إِلَى
جَبَلٍ ، وَتَتَجَمَّعُ ثُمَّ تُحِيطُ بِمُحَمَّدٍ وَتَخْطِفُهُ كَمَا خَطَفَتْ غَيْرَهُ
مَنْ تَرَوِي مَكَّةَ قِصَصَهُمْ وَأَخْبَارَهُمْ .

وَهَمَّتْ أَنْ تَعُودَ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الْغَارِ ، لَكِنَّهَا أَحْسَتْ وَقَعَ
أَقْدَامُ ، ثُمَّ رَأَتْ مُحَمَّدًا يَدْخُلُ الدَّارَ مُرْتَعِدًا ، نَخَافًا ،
يَصِيحُ :

— زَمِّلُونِي (٢) ، زَمِّلُونِي !

فَاسْرَعَتْ إِلَيْهِ ، وَعَاوَنَتْهُ حَتَّى أَبْلَغَتْهُ فِرَاشَهُ ، وَقَلْبُهَا

(١) يشتر ثغرها : تبتسم .

(٢) زملوني : غطوني .

يَرْتَعِدُ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَهُ رَقْدَ فِيهِ ، وَغَطَّتْهُ كَمَا أَمَرَ ، ثُمَّ وَقَفَتْ
بِجَانِبِهِ صَامِتَةً ، تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَتُرْهِفُ سَمْعَهَا إِلَى أَنْفَاسِهِ ،
فَتَتَطَمَّئِنُّ حِينَ تَسْمَعُهَا تَتَرَدَّدُ فِي صَدْرِهِ .

وَلَمْ تُغَادِرْ سَرِيرَهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ^(١) ، وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ ،
فَعَاوَنَتْهُ عَلَى النُّهُوضِ ، وَكَشَفَتْ عَنْهُ الْغِطَاءَ ، وَبَدَلَتْ مَلَابِسَهُ
الَّتِي بَلَّلَهَا الْعَرَقُ الْغَزِيرُ ، وَجَلَسَتْ بِجَانِبِهِ ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ
نَظْرَةً مَمْلُوءَةً بِالْحَنَانِ ، ثُمَّ قَالَتْ بِأَسْمَةٍ :

— أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ؟ ! شَغَلَتْ قُلُوبُنَا عَلَيْكَ !

قَنَظَرَ إِلَى أَعْلَى الْحُجْرَةِ ، ثُمَّ قَالَ فِي خَوْفٍ :

— لَا أَذْرِي يَا خَدِيجَةُ مَا سَيَكُونُ ! !

إِنِّي خَائِفٌ عَلَى نَفْسِي ، فَقَدْ رَأَيْتُ عَجَبًا !

أَخَافُ يَا خَدِيجَةُ أَنْ أَتَحَدَّثَ بِمَا رَأَيْتُ ، فَيَقُولَ النَّاسُ إِنَّ
عَقْلِي قَدْ ذَهَبَ ، فَقَدْ رَأَيْتُ مَا لَا يُصَدِّقُهُ الْعَقْلُ !

فَابْتَسَمَتْ خَدِيجَةُ ، ثُمَّ قَالَتْ فِي حَنَانٍ :

(١) الروع : الفزع .

— وكيف يا أبا القاسم ؟ ! والله ما يُخزِيكَ رَبُّكَ أَبَدًا !

وكيف يُخزِيكَ رَبُّكَ وَأَنْتَ وَاصِلٌ لِلرَّحْمِ ، مُسَاعِدٌ لِلضَّعِيفِ ،
تَقْرِي^(١) الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ ، وَتَقِفُ فِي
جَانِبِ الْحَقِّ ، لَعَلَّكَ رَأَيْتَ الْخَيْرَ يَا مُحَمَّدُ !

قَالَ فِي اهْتِمَامٍ :

— كُنْتُ فِي الْغَارِ أَنْظُرُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ،
نَفْسِي مُشْرِقَةٌ ، وَقَلْبِي فَرِحٌ ، وَقَدْ طَابَ لِيَ النَّظَرُ ، وَحَلَا لِيَ
الْوُقُوفُ ، فَرَأَيْتُ جِسْمًا لَطِيفًا لَيْسَ مِثْلَ النَّاسِ ، فَارْتَعَدْتُ
فَرَائِصِي^(٢) ، وَاهْتَزَّ جِسْمِي ، فَمَا عَهِدْتُ أَحَدًا يَتَسَلَّقُ هَذَا
الْجِبَلَ غَيْرَكَ أَنْتَ .

وَعَلَّقْتُ عَيْنِي بِهَذَا الْجِسْمِ ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَصِيحَ بِهِ ، فَسَمِعْتُ
صَوْتًا قَوِيًّا ، مَلِكٌ عَلَى سَمْعِي ، وَهَزَّ جِسْمِي ، وَنَادَى صَائِحِي :

— اقْرَأْ يَا مُحَمَّدُ !

(١) تقرى : تكرم .

(٢) فرائصي : عروق رقبتى .

— ١٤٢ —

قُلْتُ وَأَنَا فِي يَدِ الْخَوْفِ ، كَمَا تَتَحَرَّكُ الرِّيشَةُ الْخَفِيفَةُ
فِي مَهَبِّ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ :

— مَا أَنَا بِقَارِي^(١) ! .

فَصَاحَ فِي قُوَّةٍ زَادَتْ بِيْ خَوْفًا ، وَزَادَتْ بِجِسْمِيْ اهْتِزَازًا ،
وَرَدَّدَ قَائِلًا :

— اقْرَأْ يَا مُحَمَّدُ !

قُلْتُ فِي رِعْدَةٍ شَدِيدَةٍ :

— مَا أَنَا بِقَارِي .

فَاشْتَدَّ صَوْتُهُ ، حَتَّى كَذَبْتُ أَذُنُ بِيْ مِنْ شِدَّتِهِ ، وَرَدَّدَ قَائِلًا :

— اقْرَأْ !

فَلَمْ أَجِدْ مَقْرَأً مِنْ أَنْ أَجَارِيَهُ ، فَقُلْتُ فِي صَوْتٍ مُّرْتَعِدٍ

— وَمَاذَا اقْرَأْ ؟ !

فَقَالَ فِي صَوْتٍ رَقِيقٍ يَلُوبُ حَلَاوَةً :

(١) مَا أَنَا بِقَارِيء : لَا أَصْرِفُ الْقِرَاءَةَ .

— « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ^(١) .
اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ
يَعْلَمْ » .

فلما قَرَأْتُ مَا قَالَ ، انْصَرَفَ عَنِّي وَتَرَكَنِي حَائِراً خَائِفاً ،
حَتَّى ^(٢) اسْتَعَدْتُ قُوْنِي ، فَأَسْرَعْتُ نَازِلاً مِنْ الْجَبَلِ مُيَمِّماً
شَطْرَ الْبَيْتِ ^(٣) .

قَالَتْ خَدِيجَةُ فِي طَرَبٍ :

— مَا أَحَلَّى هَذَا الْكَلَامَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ! ! إِنَّ لَهُ لَمَعْلَاوَةً ،
وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً ^(٤) !

لَيْسَ هَذَا قَوْلَ الْبَشَرِ يَا أَبَا الْقَاسِمِ !

وَعَلَّقَتْ عَيْنَيْهَا بِوَجْهِهِ ، وَقَدْ تَفَتَّحَتْ نَفْسُهَا وَأَشْرَقَتْ ، ثُمَّ
قَالَتْ فِي صَوْتٍ رَفِيقٍ :

— وَآيْنَ ذَهَبَ هَذَا الرَّجُلُ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ؟ !

(١) علق : دم متجمد .

(٢) من سورة اقرأ الآيات من ١ الى ٥ .

(٣) ميمها شطر البيت : متجها ناحية البيت الحرام .

(٤) لطلاوة : لحسن .

قَالَ فِي اهْتِمَامٍ :

— تَجَلَّى^(١) لِي يَا خَدِيجَةُ فِي السَّمَاءِ مَرَّةً أُخْرَى ، وَسَمِعْتُ
صَوْتَهُ يَقُولُ فِي قُوَّةٍ :

— أَنَا جِبْرِيلُ يَا مُحَمَّدُ ، وَأَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ !
فَهْتَفْتُ خَدِيجَةُ مِنْ قَلْبِهَا :

— تَبَارَكَ اللَّهُ ! تَبَارَكَ اللَّهُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ^(٢) !

ثُمَّ ضَمَّتْ مُحَمَّدًا إِلَى صَدْرِهَا ، وَقَبَّلَتْ رَأْسَهُ ، وَهِيَ تَقُولُ
فِي سُرُورٍ :

— أَبْشِرْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ! أَبْشِرْ فَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ الَّذِي بَشَّرَ
بِهِ النَّاسُ ، وَارْتَقَبُوهُ^(٣) طُولَ الزَّمَانِ .

ثُمَّ رَجَعَتْهُ أَنْ يَنَامَ ، لِيَأْخُذَ قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ بَعْدَ هَذَا الْعَنَاءِ ،
وَوَقَفْتُ بِجَانِبِ سِرِيرِهِ حَتَّى أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ أَسْرَعْتُ إِلَى

(١) تجلى : ظهر .

(٢) الكبير المتعال : المرتفع الشأن .

(٣) انتظروه : ارتقبوه .

مَلَايِسَهَا فَأَرْتَدَّتْهَا وَذَهَبَتْ إِلَى ابْنِ عَمَّهَا وَرَقَّةَ بْنِ نَوْفَلٍ ،
وَقَصَّتْ عَلَيْهِ الْخَبَرَ كُلَّهُ ، فَصَاحَ مُهْلَلًا :

— قُدُّوسٌ (١) ! قُدُّوسٌ !

زَوْجُكَ هُوَ النَّبِيُّ يَا خَدِيجَةُ ! جَاءَهُ جِبْرِيلُ كَمَا جَاءَ الْأَنْبِيَاءُ
مِنْ قَبْلِهِ .

نَاصِرِيهِ ، وَقَفَى بِجَانِبِهِ ، وَعَاوَنِيهِ عَلَى آدَاءِ رِسَالَتِهِ .

وَصَمَتَ قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ فِي جِدِّ :

— تَشَجَّعِي يَا خَدِيجَةُ ، فَالطَّرِيقُ طَوِيلٌ وَعَرٌّ !

فَعَادَتْ مُسْرِعَةً ، لِيُبَشِّرَ مُحَمَّدًا ، وَتَخْبِرَهُ بِمَا قَالَ وَرَقَّةٌ ،
فَوَجَدَتْهُ لَمْ يَزَلْ نَائِمًا ، فَجَلَسَتْ قَرِيبًا مِنْهُ تَنْظُرُ إِلَيْهِ فِي
إِشْفَاقٍ (٢) .

لَكِنَّهَا رَأَتْهُ يَهْتَزُّ ، وَرَأَتْ الْعَرَقَ يُبْكِلُ جَبِينَهُ ، فَأَخَذَتْهَا
الدَّهْشَةُ وَهَمَّتْ بِإِقْطَاعِهِ ، ثُمَّ فَضَّلَتْ أَنْ تَصْبِرَ حَتَّى يَذْهَبَ

(١) قُدُّوس : اسم من أسماء الله تعالى .

(٢) إِشْفَاق : عطف .

— ١٤٦ —

ما به ، لكنها رآته يفتح عينيه ، ويرهف سمعه ويظل صامتا
كأنه ينظر إلى شيء أمامه ، فلما هدأ ما به أطرق صامتا ،
فقال في صوت رقيق :

— ألا تأخذ قسطك من الراحة يا أبا القاسم ؟ !

قال في إشفاق :

— انقضى عهد الراحة يا خديجة ! فقد أمرني جبريل بالعمل
والجد لا نقاذ الناس مما هم فيه من الضلال .

وصمت قليلا ، ثم قال في صوت رقيق :

— أتسمعين كلام الله يا خديجة ؟

فازداد بها السرور ، وأرهفت أذنيها ، وهويتلو عليها ما نزل
عليه في هذه الساعة ويقول في تأثر :

«يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) ، وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ، وَتِيَابِكَ

(*) سورة المدثر : الآيات من ١ الى ٧ .

(١) المستدق في ثيابه وغطائه .

(٢) انذر قومك بعذاب يهلك الكافرين .

فَطَهَّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ^(١) ، وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ^(٢) ، وَلِرَبِّكَ
فَاصْبِرْ^(٣) .

فَاهْتَزَّتْ خَدِيدَجُهُ طَرِباً لآيَاتِ اللَّهِ ، وَأَحْسَتْ فِي نَفْسِهَا قُوَّةً
وَأَسْتَعْدَاداً لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَأَخَذَتْ تُبَشِّرُ الرَّسُولَ بِالْخَيْرِ ،
وَتُهَنِّئُهُ بِفَضْلِ اللَّهِ ، وَهُوَ يَقُولُ فِي اهْتِمَامٍ :

— سَأَقُومُ بِأَمْرِ اللَّهِ يَا خَدِيدَجُهُ ، سَأُذِلُّ عِبَادَ اللَّهِ ، وَأَدْعُو
إِلَى اللَّهِ الْحَقِّ ، وَإِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ .

وَصَمَّتْ قَلِيلاً ثُمَّ قَالَ فِي أَلَمٍ :

— وَابْكُنْ كَيْفَ يَتْرُكُ قَوْمِي مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ ضَلَالٍ ؟ !
وَكَيْفَ يُقْلِعُونَ^(٤) عَمَّا نَشْتُو فِيهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْفَسَادِ ؟ !

إِنَّهُمْ سَيَقَاوِمُونَ يَا خَدِيدَجُهُ ، وَلَا أَدْرِي أَيْنَ يَنْتَهِي بِنَا
ذَلِكَ الْجِهَادُ !

(١) الرجز هو العذاب ؛ والمعنى اهجر الأعمال التي تؤدي الى عذاب ربك .

(٢) تمنن : تعطى ، تستكثر : تطلب أكثر مما أعطيت ، والمعنى : لا تهب شيئاً وأنت طامع فى عوض أكثر .

(٣) اصبر لأوامر ربك : وادها وأنت صابر .

(٤) يقلعون : يتركون .

قالت خديجة مُهتزةً لحلاوة كلام الله ، ومُرددةً له :

— « وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » .

« قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » .

اصبر يا محمد كما أمرك ربك ، فما أشقَّ انتزاع الباطل من الصُّلُور التي شاخت^(١) عليه ، والذي بعثك بالحق لن ينسأك ، وهو معك يُؤمِّنُكَ وَيُقَوِّيكَ ، وكيف يتركك وقد أرسلك تهلى إليه وإلى طريقه المُستقيم ؟ !

ثم ارتفع صوتها في فرح :

— وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِكَ !

أشهد أنك رسول الله ونبيه .

وقد وهبتُ نفسي ومالي لله ، وللجهاد في سبيل الله .

فما شرق السُّرُورُ في وجه الرسول ، ثم هدأ البيت ، وكانت خيوطُ الفجر قد أخذت تمتد في وجه السماء .

(١) شاخت : كبرت .

— ١٤٩ —

الأسئلة

(١)

كانت السيدة خديجة (رضى الله عنها) مهمة «محمد»
في البيت أو في الغار ، أو بين سادة مكة .
فما مظهر هذا الاهتمام ؟

(٢)

«كنت في الغار أنظر في ملكوت السموات والأرض ،
نفسى مشرقة ، وقلبي فرح ... فرأيت جسماً لطيفاً ليس مثل
الناس ، ... وعلقت عيني بهذا الجسم ، وهممت أن أصبح
به ، فسمعت صوتاً قوياً ملك على سمعى ، وهز جسمي ،
ونادى صائحاً بي : «اقرأ يا محمد» .

(أ) ماذا كان رد محمد على هذا الأمر ؟

(ب) وماذا كان موقفه من الرد ؟

(ج) ما الذي أمره بقراءته في المرة الثالثة ؟ وماذا حدث

بعد ذلك :

— ١٥٠ —

(د) ما موقف «خديجة» مما سمعت ؟

(٣)

كانت السيدة «خديجة» المعين الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين رجع من الغار مرتجفا .

(١) فماذا صنعت ؟

(ب) ماذا قال «ورقة» لخديجة حين ذهبت تستفسر منه عما حدث ؟

(ج) اكتب ما نزل من القرآن بعد اقرأ .. وبين دلالاته ؟

(١٦) حديث مكة

أَشْرَقَ الصَّبَاحُ ، فَاسْتَيْقَظَتْ خَدِيجَةُ مُبَكَّرَةً يَدُبُّ^(١) فِي
أَوْصَالِهَا نَشَاطٌ وَقُوَّةٌ ، كَأَنَّهَا لَمْ تَقْطَعْ لَيْلَتَهَا سَاهِرَةً ، وَاسْتَيْقَظَ
الرَّسُولُ مُبَكَّرًا ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْكَعْبَةِ فَطَافَ بِهَا .

وَكَانَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ قَدْ أَقْبَلَ إِلَى الْكَعْبَةِ مُبَكَّرًا ، فَاسْتَدَّ
سُرُورَهُ حِينَ قَابَلَ الرَّسُولَ ، وَصَاحَ بِهِ يَهْنِئُهُ ، وَيُوصِيهِ
بِالزَّيَّاتِ ، وَالْمُضَى فِي طَرِيقِهِ ، ثُمَّ جَلَسَ إِلَيْهِ يُحَدِّثُهُ بِمَا
سَيَلَفَتْهُ مِنْ قَوْمِهِ ، مِنْ التَّكْنِيبِ وَالِاضْطِهَادِ ، وَأَذْنَى^(٢)
رَأْسَهُ مِنْهُ وَقَبَلَ هَامَتَهُ .

وَكَانَ الْقُرَشِيُّونَ قَدْ أَقْبَلُوا يَطُوفُونَ ، فَسَمِعَ بَعْضُهُمْ حَدِيثَ
وَرَقَةَ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلُوا عَلَى مُحَمَّدٍ يَسْأَلُونَهُ عَمَّا بِهِ ،
وَعَمَّا يَقُولُ وَرَقَةُ ، فَنَظَرَ الرَّسُولُ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ قَالَ فِي جِدِّ :

(١) يدب : يسير .

(٢) أذنى : قرب .

— أَوْحَىٰ إِلَى اللَّيْلَةِ !

فَالْتَفَتَ الْقُرَشِيُّونَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ قَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ
فِي دَهْشَةٍ :

— مَنْ الَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ ؟

فَأَجَابَ الرَّسُولُ فِي قُوَّةٍ :

— أَوْحَىٰ إِلَيَّ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَنِي وَخَلَقَكُمْ ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ ، وَالرَّمْلَ وَالْحَجَرَ ، وَالْمَاءَ وَالشَّجَرَ .

فصاح آخرُ باسمًا :

— وبماذا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ ؟ !

قال الرسولُ في جِدِّ :

— أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ أَهْدِيَ إِلَيْهِ ، وَأُرْشِدَ النَّاسَ إِلَى الطَّرِيقِ
الْمُسْتَقِيمِ ، وَأَرُدُّهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ ضَلَالٍ وَفَسَادٍ .

أَلَسْتَ تَرَىٰ هَذِهِ الْحَيَاةَ الْفَاسِدَةَ ، وَمَا يَجِبُ لَهَا مِنْ تَغْيِيرٍ ؟ !

فَقَهَقَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ، ثُمَّ اعْتَدَلَ وَقَالَ سَاخِرًا ؛

— فَهَمْنَا ! عَرَفْنَا !

تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ ذَلِكَ النَّبِيُّ الَّذِي يَتَحَدَّثُ النَّاسُ عَنْهُ !
سَبَقَكَ غَيْرُكَ يَا مُحَمَّدُ ! ادَّعُوا مَا تَدْعِي ، فَلَمْ يَجْنُوا
غَيْرَ السُّخْرِيَةِ وَالْأَذَى ، وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا الْمُضَى فِيمَا أَرَادُوا .

فَأَوَّلَى لَكَ أَنْ تَتُوبَ^(١) إِلَى رُشْدِكَ مِنْ الْيَوْمِ ، وَالْأَفْسَتَحْضَى
فِي طَرِيقِ شَائِكَ^(٢) ، يُؤْذِيكَ ، وَيُضِلُّكَ كَمَا أَضَلَّ غَيْرَكَ !

وَكَانَتْ خَلِيدِجَةُ قَدْ جَمَعَتْ جَوَارِيَهَا وَصَاحِبَاتِهَا ، وَبَشَّرَتْهُنَّ
بِنُبُوءَةِ زَوْجِهَا ، وَإِرْسَالِ الْوَحْيِ إِلَيْهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَاسْتَمَعْنَ
إِلَيْهَا دَهْشَاتٍ مِمَّا قَصَصَتْ عَلَيْهِنَ مِنْ أَمْرِ الرَّسُولِ ، ثُمَّ انْصَرَفْنَ
يُخْبِرْنَ أَزْوَاجَهُنَّ بِمَا تَقُولُ خَلِيدِجَةُ .

فَلَمْ يَمُضْ غَيْرُ قَلِيلٍ حَتَّى اسْتَفَاضَ^(٣) الْخَبَرُ ، وَمَلَأَ بُيُوتَ
مَكَّةَ ، فَقَابَلَهُ الْكَثِيرُونَ بِالسُّخْرِيَةِ وَالْاسْتِهْزَاءِ

لِكِنَّهُمْ عَادُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ، يَتَسَاءَلُونَ فِي دَهْشَةٍ :

(١) تَتُوبُ : نَرْجِعُ .

(٢) شَائِكَ : صَعَبُ .

(٣) اسْتَفَاضَ : انْتَشَرَ .

— لماذا صَنَعَ مُحَمَّدٌ هَذَا الَّذِي شَاعَ ؟

لَمْ نُجَرِّبْ عَلَيْهِ كَذِبًا ، وَلَمْ يَسْمَعْ عَنْهُ أَشَدُّ غَيْرِ الصَّدَقِ
وَالْأَمَانَةِ !

وما بالُ خَدِيجَةَ ؟ !

لم نُجَرِّبْ عَلَيْهَا غَيْرَ الْعَقْلِ وَالرَّزَانَةِ^(١) ، فَمَا بِهَا تَقُولُ
هَذَا الْقَوْلَ ؟ !

ثُمَّ رَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ يَتَّهِمُونَ خَدِيجَةَ بِجُنُونٍ اعْتَرَاهَا^(٢) ،
وَأَخْرَجَهَا عَنْ عَقْلِهَا الثَّابِتِ ، لِكِنَّهُمْ أَخْلَدُوا يَتَسَاءَلُونَ :

— وَهَلْ يَتَفَقُّ أَنْ يَعْتَرِيَهَا الْجُنُونُ ، هِيَ وَزَوْجُهَا فِي لَيْلَةٍ
وَاحِدَةٍ ؟ !

ثُمَّ امْتَلَأَتْ دَارُ خَدِيجَةَ بِكَثِيرٍ مِنَ النِّسَاءِ ، يَسْأَلْنَ عَنْ
هَذَا الْخَبَرِ الَّذِي ذَاعَ ، وَأَخَذَتْ خَدِيجَةُ تُخْبِرُهُنَّ بِقِصَّتِهِ ،
وَتُؤَكِّدُ لَهُنَّ صِحَّتَهُ ، وَتَقْرَأُ عَلَيْهِنَّ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ

(١) الرزانة : الوتار .

(٢) اعتراها : أصابها .

على رَسُولِهِ ، وَهَنَ يُدَقِّقَنَّ النَّظَرَ إِلَيْهَا ، وَيَفْحَصَنَّ وَجْهَهَا ،
ليَعْرِفَنَّ شَيْئًا مِنْ أَثَارِ ذَلِكَ الْجُنُونِ الَّذِي اعْتَرَاهَا مُنْذُ الْمَسَاءِ !

لَكِنَّهُنَّ لَمْ يَرَيْنَ أَثَرًا لِجُنُونٍ ، وَلَمْ يَجِدْنَ خَدِيجَةَ إِلَّا كَمَا
عَهِدْنَ : حُلْوَةَ الْحَدِيثِ ، دَقِيقَةَ الْحُكْمِ ، رَاجِحَةَ الْعَقْلِ ،
فَانْصَرَفْنَ فِي حَيْرَةٍ ، يُخْبِرْنَ أَزْوَاجَهُنَّ بِمَا رَأَيْنَ وَسَمِعْنَ .

ثُمَّ أَخَذْنَ يَتَرَدَّدْنَ عَلَى خَدِيجَةَ كُلِّ يَوْمٍ ، يَسْأَلْنَ عَمَّا نَزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ ، وَكَانَ الْوَحْيُ قَدْ انْقَطَعَ ، وَحَارَ الرُّسُولُ فِي أَمْرِهِ ،
وَوَقَعَتْ خَدِيجَةُ مِنْ أَوْلَئِكَ النِّسَاءِ فِي حَيْرَةٍ شَدِيدَةٍ ، فَبِمَاذَا
تُجِيبُ ، وَقَدْ انْقَطَعَ الْوَحْيُ ؟ !

وَاشْتَدَّ بِهَا الْحُزْنُ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ تَخَلَّى ^(١) عَنْ نَبِيِّهِ ،
فَيَمُوتُهَا ذَلِكَ الشَّرَفُ الَّذِي أَعَدَّتْ نَفْسَهَا وَمَالَهَا لَهُ .

وَزَادَ حُزْنَهَا مَارَاتٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ مِنَ الْهَمِّ وَالْقَلَقِ ،
وَأَخَذَتْ تُوَاسِيهِهِ وَتُطْمِئِنُّهُ فِي فَضْلِ اللَّهِ ، وَتُؤَكِّدُ لَهُ قُرْبَ عَوْدَةِ
الْوَحْيِ بِآيَاتِ اللَّهِ .

(١) تخلى : ترك .

لَكِنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَعُدْ ، فَاشْتَدَّ بِالرَّسُولِ الْقَلْقُ وَالْحُزْنُ ،
فَوَقَفَتْ خَدِيدَجَةٌ بِجَانِبِهِ ، تُشَجِّعُهُ وَتَقْوِي فُؤَادَهُ ، وَتَقُولُ لَهُ
كُلَّمَا فَاضَ (١) بِهِ الْهَمُّ :

— لَا تَحْزَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَمَا شِدَّةٌ إِلَّا وَتَزُولُ ، وَمَا ضَيْقٌ
إِلَّا وَبَعْدَهُ الْفَرَجُ ، وَلِلَّهِ فِيمَا يَصْنَعُ إِرَادَةٌ !

ثُمَّ تَتَوَسَّلُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَرْحَمَ نَبِيَّهُ ، وَيُزِيلَ عَنْهُ مَا أَهَمَّهُ ،
وَالرَّسُولُ شَارِدُ الْفِكْرِ ضَائِقٌ بِمَا حَلَّ بِهِ .

وَيَبِينَمَا هِيَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَتُلْقِي عَلَى سَمْعِهِ عِبَارَاتِ التَّشْجِيعِ ،
رَأَتْهُ يَنْتَفِضُ وَالْعَرَقُ يَتَصَبَّبُ مِنْ جَبِينِهِ ، فَاهْتَزَّ جَسْمُهَا
إِسْفَاقًا وَأَمَلًا ، حَتَّى هَدَأَ ، فَقَالَتْ فِي رَفْقٍ :

— مَا تَرَكَكَ رَبِّكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ وَمَا تَخَلَّى عَنْكَ !

فَابْتَسَمَ الرَّسُولُ ابْتِسَامَةَ الرِّضَا ، ثُمَّ تَلَا عَلَى سَمْعِهَا بِصَوْتِهِ
الْلَّطِيفِ مَا نَزَلَ بِهِ الْوَحْيُ ، رَافِعًا صَوْتَهُ :

(١) غَاضُ : زَادَ .

— «وَالضُّحَى»^(١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى^(٢) ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ
وَمَا فَلَا^(٣) ، وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى^(٤) ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ^(٥)
رَبُّكَ فَتَرْضَى ، أَلَمْ يَجْعَلْكَ يَتِيمًا فَآوَى^(٦) ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا
فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ عَائِلًا^(٧) فَأَغْنَى ، فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ^(٨) ،
وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ^(٩) ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ .

(سورة الضحى : ١ - ١١)

فَعَمَّرْتَ قَلْبَ حَدِيدِجَةِ الْفَرْحَةِ وَالرُّضَا ، وَزَادَ سُورَهَا مَا رَأَتْ
فِي وَجْهِ الرَّسُولِ مِنَ الْغَبْطَةِ ، وَمَا شَاهَدَتْ فِي قَسَمَاتِهِ مِنَ الرُّضَا
وَالْأُطْمِئْنَانِ .

ثُمَّ أَخَذَتْ تُفَكِّرُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْجَبَلِيَّةِ .

(١) وقت ارتفاع الشمس .

(٢) سكن وهذا . يقسم الله بالضحى وبالليل الهادىء من آياته
العظيمة .

(٣) قطعك وتركك .

(٤) الدنيا .

(٥) يعطيك الكمالات وظهور أمرك وانتشاره .

(٦) جعل لك مأوى .

(٧) فقيرا .

(٨) لا تغلبه على ماله .

(٩) تزجر .

إِنَّهَا أَوَامِرُ اللَّهِ وَتَعَالِيَهُ .

يَدْعُو إِلَى الْآخِرَةِ وَالْعَمَلِ لَهَا ، لِأَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى
 مِنَ الْأُولَى ، وَيَذَكِّرُ الرَّسُولَ بِنِعَمِهِ عَلَيْهِ ، وَيَدْعُوهُ إِلَى التَّشْمِيرِ
 وَالْجِدِّ ، وَالِدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ طَاهِرًا مُطَهَّرًا ، وَيُوصِي بِالْيَتِيمِ
 وَالْمِسْكِينِ .

ثُمَّ ابْتَسَمَتْ ابْتِسَامَةً لَطِيفَةً ، وَهِيَ تُفَكِّرُ فِي آيَاتِ اللَّهِ ،
 فَسَّرَ الرَّسُولُ لِسُرُورِهَا ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا ، وَقَالَ فِي حَنَانٍ :

— حَفِظَ اللَّهُ لَكَ جَمِيلَكَ يَا خَدِيجَةُ ، مِنْهُ الْفَضْلُ وَإِلَيْهِ ،

لَكِنَّهُ سَخَّرَكَ لِي ، فَأَغْنَانِي بِمَالِكَ وَنَفْسِكَ وَرُوحِكَ ، وَذَكَّرَنِي
 السَّاعَةَ بِذَلِكَ الْفَضْلِ ، أَمَا سَمِعْتَ يَا خَدِيجَةُ ؟ !

فَأَسْرَعَتْ خَدِيجَةُ ، وَالْدَّمُوعُ تَتَرَقَّرُ^(١) فِي عَيْنَيْهَا :

— اللَّهُ وَلِيَّ رَسُولِهِ نَفْسِي وَمَالِي وَجُهِدِي !

فَانْهَضَ يَارَسُولَ اللَّهِ بِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ ، وَأَنَا مَعَكَ وَاللَّهُ مَعَكَ .

(١) تترقق : تتحرك .

— ١٥٩ —

الأسئلة

(١)

ماذا فعل - صلى الله عليه وسلم - بعد أن أُمرَ بإبذار عشيرته ؟
وما موقف « ورقة بن نوفل من ذلك » ؟

(٢)

دار حوار بين بعض القرشيين الذين سمعوا حديث
« ورقة بن نوفل » وبين « محمد » صلى الله عليه وسلم . فما
ملخصه ؟

(٣)

ما بال خديجة ؟ ! . لم نجرب عليها غير العقل والزانة ،
فما بالها تقول هذا القول ؟ !

(أ) ما الذى أثار استغراب القرشيين من شأن « خديجة » ؟

(ب) وما موقفهم من تصرفها ؟ ولماذا ؟

(ج) وما أثر ذلك بالنسبة لنساء قريش ؟

— ١٦٠ —

(٣)

« غمرت قلب خديجة الفرحة والرضا ، وزاد سرورها
ما رأت في وجه الرسول من الغبطة ، وما شاهدت في قسماته
من الرضا والاطمئنان » .

(١) متى حدث ذلك ؟

(ب) وماذا كان بعد هذا السرور والرضا ؟

(ج) كيف كان حال الرسول صلى الله عليه وسلم ،
و « خديجة » قبل نزول سورة « الضحى » ؟ ولماذا ! ؟

* * *

١٧، أم المؤمنين

تَوَالَى^(١) نُزُولُ الْآيَاتِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، وَخَدِيجَةُ تَسْمَعُهَا
فُتْلِيزُهَا بَيْنَ مَنْ يُوَدُّهَا مِنَ النُّسُوءِ .

وَتَوَالَتْ تَعَالِيمُ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ ، فَكَانَتْ خَدِيجَةُ أَوَّلَ مَنْ
يَتَلَقَّاهَا وَيَعْمَلُ بِهَا .

صَلَّتْ مَعَهُ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى ، وَتَعَلَّمَتْ الْوُضُوءَ أَوَّلَ مَنْ تَعَلَّمَ ،
وَخَرَجَتْ مَعَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ تُصَلِّي خَلْفَهُ غَيْرَ عَابِثَةٍ بِالسُّخْرِيَةِ
الَّتِي تَنْبَعِثُ حَوْلَهُمَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ .

وَبَدَأَتْ تَعَالِيمُ الرَّسُولِ تَنْتَشِرُ بَيْنَ ذَوِي الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ ،
وَالْقُلُوبِ الْخَيْرَةِ وَالنُّفُوسِ الصَّافِيَةِ .

آمَنَ بِهَا بَعْضُ كِبَرَاءِ مَكَّةَ ، وَكَثِيرٌ مِنْ ضِعَفَائِهَا لِأَنَّهُمْ
وَجَلُّوا فِي هَذَا الدِّينِ الْعَجِيدِ مُنْقِذًا مِمَّا يُلَاقُونَ مِنَ الدُّلِّ ،
وَالْأَسْتِعْبَادِ .

(١) توالى : تتابع .

وَجَدُّهُ يَنْهَى عَنِ الْفَسَادِ ، وَيُسَاوِي بَيْنَ النَّاسِ ، وَيَرَى
الْقُوَى الْمُتَفَرِّقَةَ فِي وَحْدَةٍ وَاحِدَةٍ ، تَعْمَلُ لِلْخَيْرِ فِي جَهَنَّمَ
اللَّهُ .

وَكَانَ بَيْتُ النَّبِيِّ أَوَّلَ مَنْ اسْتَجَابَ لِدَعْوَتِهِ ، فَأَمَرَ
بِنَاتِهِ كُلِّهِنَّ ، لَكِنَّ إِيْمَانَهُنَّ خَلَقَ لَخَدِيجَةَ مُشْكِلَةً جَدِيدَةً
وَأَضَافَ إِلَى مَتَاعِهَا مَتَاعِبَ أُخْرَى .

فَقَدْ أَسْلَمَتْ بِنَاتُهَا الْمُتَزَوِّجَاتُ وَلَمْ يُسْلِمِ أَزْوَاجُهُنَّ ،
بَدَأَ رُؤَسَاءُ مَكَّةَ يَرْتَابُونَ^(١) فِي هَذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ وَيَخَافُونَ
قُوَّتَهُ ، وَتَسَبَّهُوا إِلَى كَثْرَةِ مَنْ يَعْتَنِقُونَهُ^(٢) يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ
فَأَخَذُوا يَكِيدُونَ^(٣) لِمَنْ يَدْخُلُونَ فِي هَذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ .
إِذَا كَانُوا عِبِيدًا أَوْ ضِعْفَاءَ ، عَذَّبُوهُمْ وَأَذَلُّوهُمْ ، لِيُخْرِجُوهُمْ
مِنْ دِينِهِمُ الْجَدِيدِ وَيَرْدُوهُمْ إِلَى دِينِهِمُ الْقَدِيمِ .
وَإِنْ كَانُوا زَوَّجَاتٍ سَعَرُوا^(٤) النَّارَ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ أَزْوَاجِهِنَّ
وَأَلِ أَزْوَاجِهِنَّ .

-
- (١) يرتابون : يشكون .
 - (٢) يعتنقونه : يؤمنون به .
 - (٣) يكيدون : يُدبرون الأذى .
 - (٤) سَعَرُوا : أَسْعَلُوا .

فَكَيْفَ تَحُلُّ خَدِيجَةَ مُشْكِلَةَ بَنَاتِهَا ، وَتُوفِّقُ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ
أَزْوَاجِهِنَّ وَآلٍ^(١) أَزْوَاجِهِنَّ ؟ !

وَكَيْفَ تَحُلُّ مُشْكِلَةَ الْمُضْطَّهَدِينَ ، الَّذِينَ يَفِرُّونَ بِدِينِهِمْ
مِنْ قِسْوَةِ الْكُفَّارِ وَظُلْمِهِمْ ؟ !

كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَمُدَّ هَؤُلَاءِ الضَّعَفَاءَ بِمَالِهَا ، بَعْدَ مَا طَرَدَهُمُ
الْكُفَّارُ وَحَرَّمُوهُمْ الْعَمَلَ .

وَكَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَحْتَالَ بِمَالِهَا لِتُعْتِيقَ الْعَبِيدَ الَّذِينَ يَتَعَرَّضُونَ
لَأَقْسَى أَلْوَانِ الْأَذَى صَبَاحًا وَمَسَاءً ، لِأَنَّهُمْ نَبَذُوا^(٢) الْأَصْنَامَ
وَقَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ .

عَلَيْهَا أَنْ تُوَايِيَ الْمَظْلُومَ ، وَتُطْعِمَ الْجَائِعَ ، أَكْثَرَ مِمَّا كَانَتْ
تُوَايِي وَتُطْعِمُ ، وَقَدْ غَدَّتْ دَارُهَا مَلْجَأً الْخَائِفِ وَالْمَكْرُوبِ^(٣)
فِيهَا طَعَامُ الْجَائِعِ وَمَأْوَى الطَّرِيدِ^(٤) .

(١) وآل : أهل .

(٢) نبذوا : تركوا .

(٣) المكروب : الذى نزل به البلاء والغم .

(٤) ومأوى الطريد : مقر المطرود .

كَانَتْ مُفْتَحَةً الْقَلْبِ لِهَذَا الْجِهَادِ ، وَكُلَّمَا اشْتَدَّ زَادَتْ
فَرَحَتَهَا وَسُرُورُهَا ، لَكِنَّ شَيْئًا وَاحِدًا كَانَ يَتَرَدَّدُ فِي صَدْرِهَا ،
فَتَتَوَجَّهُ إِلَى اللَّهِ تَسْأَلُهُ أَنْ يُحَقِّقَهُ .

وَجَدَتْ نَفْسَهَا تَقْتَرِبُ مِنَ السَّنِّ الَّتِي لَا تَلِدُ فِيهَا الْمَرْأَةُ ،
فَتَنْظُرُ إِلَى بَنَاتِهَا وَتَتَمَنَّى لَوْ رُزِقْنَ أَخًا ! وَتَنْظُرُ إِلَى زَوْجِهَا
فَتَتَمَنَّى لَوْ رُزِقَ ابْنًا يَضَعُ فِيهِ أَمَلَهُ !

فَظَلَّتْ تَدْعُو اللَّهَ وَتَتَوَسَّلُ^(١) إِلَيْهِ ، وَتَرْجُوهُ أَنْ يُتِمَّ عَلَيْهَا
هَذِهِ النُّعْمَةَ ، كَمَا أَتَمَّ عَلَيْهَا نِعْمَةَ الْإِسْلَامِ .

وَمَا أَكْثَرَ مَا كَانَتْ فَرَحَتُهَا حِينَ اكْتَمَلَ حَمْلُهَا ! وَكَمْ
كَانَ رَجَاؤُهَا مِنَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ وَلَدًا ! وَكَمْ كَانَ سُرُورُهَا حِينَ
جَاءَ وَلَدُهَا !!

كَانَ الرَّسُولُ بِجَانِبِهَا حِينَ وَضَعَتْ ، فَلَمَّا عَرَفَتْ أَنَّهُ ذَكَرٌ ،
نَظَرَتْ بَعَيْنَيْنِ مَمْلُوءَتَيْنِ بِالْعُطْفِ وَالْحَنَانِ ، ثُمَّ قَالَتْ فِي
صَوْتٍ رَقِيقٍ :

— بِمَاذَا نُسَمِّيهِ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ؟ —

(١) تَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ : تَرْجُوهُ .

وَلَمْ تَتَمَّاكَ دُمُوعَهَا فَانْهَمَرَتْ عَلَى خَدَّيْهَا ، فَمَدَّتْ يَدَهَا
تُجَفِّفُهَا ، وَالرَّسُولُ يَقُولُ فِي حَنَانٍ :

— عَبْدُ اللَّهِ يَا خَدِيجَةُ ، نُسَمِّيهِ عَبْدَ اللَّهِ .

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، إِنَّهُ الطَّاهِرُ ، إِنَّهُ الطَّيِّبُ ،
قَدْ وُلِدَ فِي الْإِسْلَامِ ، فَفَاقَ مَنْ وُلِدَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ (١) .

وَاهْتَزَّتِ الدَّارُ فَرَحًا لَخَدِيجَةَ ، وَأَقْبَلَ الْأَحِبَاءُ يَهْنَأُونَ ،
وَوَهَبَتْ خَدِيجَةُ لِلْفُقَرَاءِ ، وَبَذَلَتْ لِلْمُحْتَاجِينَ ، وَاضْعَةً كُلِّ
أَمْلِيهَا فِي عَبْدِ اللَّهِ .

لَكِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ ، لِحَكْمَةٍ يَعْلَمُهَا وَتَضَرِيفٍ
أَحْكَمُهُ ، اخْتَارَ عَبْدُ اللَّهِ لِحَوَارِهِ بَعْدَ قَلِيلٍ ، فَارْتَعَجَتْ الدَّارُ ،
وَوَجَمَ بَنَاتُهَا ، وَبَكَتْ خَدِيجَةُ ، وَأَقْبَلَ الرَّسُولُ عَلَيْهَا يُغَالِبُ
حُزْنَهُ ، يُوَاسِيهَا وَيَقُولُ لَهَا بِصَوْتِهِ الرَّقِيقِ :

— أَرَادَ اللَّهُ بِكَ الْخَيْرَ يَا خَدِيجَةُ ، لَمْ يُرْذَلِكِ أَنْ تَكُونِي
أُمًّا لِوَاحِدٍ مِنْ خَلْقِهِ فَحَسَبُ ، وَلَمْ يَشَأْ لَكَ أَنْ تَكُونِي أُمًّا

(١) الجاهلية : ما قبل الاسلام .

— ١٦٦ —

القاسم أو عبد الله ، بل اختار لك أن تكوني أمًا للمؤمنين جميعاً .

ألا يسرك هذا اللقب يا خديجة ؟ !

لكن دمتين تحدرتا على خديها ، فمسحهما رسول الله بيده الشريفة ، وهو يقول في رفيق :

— الآخرة يا خديجة ! الآخرة خير من الأولى !

ثم قرأ قوله تعالى : « والآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى » .

فرطب الآية قلب خديجة ، ورخصت بقضاء الله وحكمته ، والرسول يقول في حنان :

— نحن عارية مستردة يا خديجة ، في أية لحظة نعود !
فهبي للجهاد كما وعدت ربك ، والطريق طويل ، والسير شاق !

— ١٦٧ —

الأسئلة

(١)

«بدأ رؤساء مكة يرتابون في هذا الدين الجديد ، ويخافون قوته ، وتنهبوا إلى كثرة من يعتنقونه يوماً بعد يوم ، فأخذوا يكيّدون لمن يدخلون في هذا الدين الجديد» .

(أ) ما معنى : «يرتابون - يعتنقونه» ؟

(ب) ماموقف رؤساء مكة من الدين الجديد؟ بم تعال ذلك .

(ج) ما موقف السيدة (خديجة) رضى الله عنها من

تصرفات رؤساء مكة ؟

(٢)

«أراد الله بك الخير يا خديجة ، لم يردك أن تكونى أما لوأحد من خلقه فحسب ، ولم يشأ لك أن تكونى أم القاسم أو عبد الله ، بل اختار لك أن تكونى أمّا للمؤمنين جميعا» .

(أ) ما المناسبة التى ورد فيها ذلك القول الكريم ؟

(ب) ما أثر ذلك فى نفس السيدة (خديجة) رضى الله عنها

* * *

١٨) المعركة

كَانَ رُؤَسَاءُ مَكَّةَ يَنْظُرُونَ إِلَى دَعْوَةِ الرَّسُولِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا ،
كَمَا نَظَرُوا إِلَى دَعْوَةٍ مِنْ سَبْقِهِ مِنَ الْحُكَمَاءِ ، وَإِنْ كَانُوا
يَسْخَرُونَ مِنْ أَنْبَاعِهِ ، وَيَتَسَلَّلُونَ بِمُلْدَاعِبَتِهِمْ أَوْ تَقْرِيعِهِمْ^(١)
حِينَ يَرَوْنَهُمْ ، أَوْ يَتَعَامَلُونَ مَعَهُمْ .

وَلَمْ يَكُنْ الرَّسُولُ قَدْ وَجَّهَ الدَّعْوَةَ إِلَى هَؤُلَاءِ الرُّؤَسَاءِ عَلَنًا ،
بَلْ كَانَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ فِي الْخَفَاءِ ، وَيُحَدِّثُ بِرِسَالَتِهِ مَنْ
يَتَوَسَّمُ^(٢) فِيهِمُ الْخَيْرَ ، فَيَدْخُلُونَ فِي دِينِهِ ، وَيَزِيدُونَ يَوْمًا
بَعْدَ يَوْمٍ ، وَدَارُ خَدِيجَةَ تَسْتَقْبِلُ مَنْ يَفِدُونَ عَلَيْهَا مِنْ هَؤُلَاءِ
الْمُسْلِمِينَ ، وَهِيَ تُرَحِّبُ بِهِمْ ، وَتَمْنَحُهُمُ الْكَثِيرَ مِنْ عَطْفِهَا
وَبِرِّهَا .

وَاسْتَمَرَّتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ فِي الْخَفَاءِ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ ، يَفِرُّ فِيهَا

(١) تقريعيهم : توبييخهم بالكلام الشديد .

(٢) يتوسم : يتوقع ويرجو .

الْمُسْلِمُونَ بِصَلَاتِهِمْ إِلَى شِعَابٍ^(١) مَكَّةَ ، وَيَحْتَمُونَ سِرًّا فِي
دَارِ أَحَدِهِمْ ، وَيَتَحَدَّثُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي هَمْسٍ ، وَيَبْتَغِدُونَ
عَنْ أَعْيُنِ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ مَا اسْتَطَاعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا .

وَذَاتَ يَوْمٍ دَخَلَ الرَّسُولُ عَلَى خَدِيجَةَ قَلْبًا ، فَأَحَسَّتْ بِمَا فِي
نَفْسِهِ ، وَدَنَتْ مِنْهُ بِاسْمَةٍ ، ثُمَّ سَأَلَتْهُ فِي رَفْقٍ :

— خَيْرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ !

قَالَ فِي إِشْفَاقٍ :

— أَمَرَنِي رَبِّي بِإِظْهَارِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَالْجَهْرِ بِهَا ، وَإِنِّادَارِ
رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ وَعَشِيرَتِي^(٢) الْأَقْرَبِينَ فَقَالَ تَعَالَى شَأْنُهُ :

« وَأَنْذِرْ^(٣) عَشِيرَتَكَ^(٤) الْأَقْرَبِينَ ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ^(٥)
لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا
تَعْمَلُونَ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ، الَّذِي يَرَاكَ حِينَ

(١) شعاب : الطرق في الجبل .

(٢) عشيرتي : أهلي

(٣) أنذر : خوف من العقوبة .

(٤) عشيرتك : بني أبيك .

(٥) جناحك : الن جانبك .

تَقُومُ^(١) ، وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ^(٢) ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .
قَالَتْ خَدِيجَةُ فِي هُدُوءٍ :

— حَقٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَا بُدَّ مِنْ إِنْذَارِ عَشِيرَتِكَ الْأَقْرَبِينَ ،
وَتَبْلِيغِهِمْ رِسَالَةَ رَبِّكَ ، حَتَّى يَسْمَعُوا كَلَامَ اللَّهِ وَيَتَذَكَّرُوا أَمْرَ
اللَّهِ ، وَيَعْمَهُمْ مَا نَالَ غَيْرَهُمْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ !

وَمَنْ أَحَقُّ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ مِنَ الْأَقْرَبِينَ ؟ !

فَنَظَرَ الرَّسُولُ إِلَيْهَا ، ثُمَّ قَالَ مَادًّا بَصَرَهُ فِي الْفِنَاءِ الْوَاسِعِ :

— سَيُثِيرُونَهَا حَرْبًا يَا خَدِيجَةُ ! نُفُوسُهُمْ ثَائِرَةٌ عَلَيْنَا ،
وَقُلُوبُهُمْ مُتَّقِدَةٌ تَفُورُ ، تَوَدُّ لَوْ نَالَتْنَا فَأَحْرَقَتْنَا .

هُمُ حَاقِدُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي جَذَبَ بَعْضَ أَبْنَائِهِمْ
وَأَقْرَبَائِهِمْ وَعَبِيدِهِمْ ، يَرَوْنَ أَنَّهُ أَفْسَدَ بِتَعَالِيمِهِ حَيَاتَهُمْ ،
وَنَغَصَّ^(٣) عَلَيْهِمْ عَيْشَهُمْ ، وَنَبَهَ النَّاسَ إِلَى حَقُوقِهِمْ^(٤) ،
فَمَاذَا يَصْنَعُونَ لَوْ دَعَوْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ إِلَى هَذَا الدِّينِ ؟ !

(١) تقوم : يراك حين تقوم للتهجد بالليل .

(٢) تقلبك : تتفلك لتعرف أحوال المهتجرين من الصحابة .

(٣) نغص : عكر .

(٤) حقوقهم : عرف كل انسان حقه الذي كان ضائعاً في أيدي
المستبدين .

سَتَنْفَجِرُ ثَوْرَهُمْ ، وَيُسْفِرُ^(١) أَذَاهُمْ بَعْدَ مَا كَانَ مُسْتَتِرًا
 كَمَا أَسْفَرَتِ الدَّعْوَةُ ، وَلَا قَبْلَ^(٢) لَنَا بِهِمْ يَخْدِيجَةُ ۖ ۱۱
 قَالَتْ وَقَدْ ظَهَرَ فِي وَجْهَهَا الْجِدُّ وَالْعَزْمُ :

— أَلَسْتَ تَدْعُو إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ؟ !

إِنَّ اللَّهَ مَعَكَ وَلَنْ يَخْذُلَكَ^(٣) أَوْ يَتَخَلَّى عَنْكَ ، فَأَدْعُهُمْ كَمَا
 أَمَرَكَ رَبُّكَ ، وَحَادِّثْهُمْ وَاقْرَأْ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ ، فَعَسَى أَنْ تَلِينَ
 قُلُوبُهُمْ لِمَا يَسْمَعُونَ مِنَ الْحَقِّ ، وَتَمِيلَ نَفْسُهُمْ لِمَا يَعْرِفُونَ
 مِنَ الصُّدْقِ ، وَيَتَذَكَّرُوا عَلَى شَيَاطِينِهِمْ وَيَدْخُلُوا فِي دِينِ اللَّهِ
 الْقَوِيمِ ، وَإِلَّا فَرِيكَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ^(٤) !

ثُمَّ اسْتَقَرَّ الرَّأْيُ عَلَى أَنَّ تَصْنَعَ لَهُمْ خَدِيجَةً طَعَامًا يَدْعُوهُمْ
 الرَّسُولُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ يَعْرُضُ عَلَيْهِمْ أَمْرَ اللَّهِ .

وَفِي الصَّبَاحِ خَرَجَ الرَّسُولُ يَدْعُوهُمْ إِلَى وَلِيمَةٍ قَدْ أَعَدَّهَا
 لَهُمْ ، وَأَنَّهُمْ كَتُّ خَدِيجَةٍ فِي إِعْدَادِ الطَّعَامِ ، رَاجِيَةً أَنْ يُلَبِّيَ

(١) يسفر : يظهر .

(٢) قبل : قدرة .

(٣) يخذلك : يتركك .

(٤) المِرْصَاد : الطريق . والمعنى أن الله مراقبهم .

هَؤُلَاءِ الرُّؤَسَاءُ دَعْوَةَ النَّبِيِّ ، وَيَدْخُلُوا فِي دِينِهِ ، وَيَنْتَهِيَ الْأَمْرُ
وَيَسُودَ السَّلَامُ .

فَلَمَّا حَانَ وَقْتُ الْغَدَاءِ ، اجْتَمَعَ الْقَوْمُ فِي دَارِ خَدِيجَةَ ،
وَجَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ عَنِ الْمَالِ وَأُمُورِهِ ، وَالتَّجَارَةِ وَأَنْوَاعِهَا
وَطُرُقِهَا ، وَشُؤْنِ الْحَرْبِ وَالسَّلَامِ ، فَلَمَّا أَرَادَ الرَّسُولُ أَنْ
يُحَدِّثَهُمْ عَنْ دَعْوَتِهِ ، نَفَرُوا وَتَارُوا ، وَخَرَجُوا غَاظِبِينَ
سَاخِطِينَ .

فَدَخَلَ الرَّسُولُ عَلَى خَدِيجَةَ وَالْحَسْرَةُ بَادِيَةٌ^(١) فِي مُحَيَّاهُ^(٢) ،
وَقَالَ فِي صَوْتٍ تَقْطَعُهُ الزَّفَرَاتُ :

— أَرَأَيْتِ يَا خَدِيجَةُ ؟ !

لَهُمْ مُصْرُونَ^(٣) عَلَى الْكُفْرِ ، وَلَكِنْ يَسْتَجِيبُوا لِهَذَا الدِّينِ !
وَكَيْفَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُ وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَرْفَعُ مِنَ النَّاسِ ، وَأَنْ
غَيْرَهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَظَلَّ أَدْنَى مِنْهُمْ ؟

(١) بادية : ظاهرة .

(٢) محياه : وجهه .

(٣) مصرون : عازمون على البقاء على الشيء .

وَكَيْفَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُ وَهُوَ يُعْلَنُ فِي صَرَاحَةٍ أَنَّهُ سَيَأْخُذُ
مِنْ مَالِهِمْ حَقَّ الْفَقِيرِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَاجِزِ ؟ !

فَقَالَتْ حَدِيجَةُ بِاسْمَةِ فِي صَوْتٍ هَادِيٍّ :

— لَا تَيَاسُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّكَ تَدْعُوهُمْ إِلَى خَيْرِهِمْ ، فَإِذَا
اهْتَدَوْا فَلَا تَنْفُسِهِمْ ، وَإِنْ ضَلُّوا فَعَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ عِنَادِهِمْ ، وَهَلْ
هَآلِكَ مَانِعٌ إِذَا دَعَوْتَهُمْ مَرَّةً أُخْرَى ؟ !

فَقَالَ الرَّسُولُ فِي عَزْمٍ :

— بَلْ سَادَعُوا أَهْلَ مَكَّةَ جَمِيعًا ، وَسَأَبَلُّهُمْ جَمِيعًا أَمْرَ اللَّهِ .

ثُمَّ صَعِدَ « الصَّفَا » ^(١) ذَاتَ صَبَاحٍ ، وَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ :

— يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ! يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ !

فَلَمَّا سَمِعُوا نِدَاءَهُ ، أَسْرَعُوا يَنْظُرُونَ ، وَيَسْتَوْضِحُونَ مَا يُرِيدُ ،
ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَيْهِ يَسْأَلُونَهُ عَنْ سَبَبِ هَذَا الصَّبَاحِ وَتِلْكَ الدَّعْوَةِ ،
فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ رَبَّهُ أَمَرَهُ بِإِنْدَارِهِمْ ، فَوَقَفَ لِيُبَلِّغَهُمْ أَمْرَ اللَّهِ ،
وَيُحَذِّرَهُمْ غَضَبَهُ ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ الَّذِي
لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا وَلَدٌ .

(١) الصفا : مكان بأصل جبل أبي قبيس بمكة .

فَانْفَجَرُوا سَاحِرِينَ ، وَصَاحَ عَنْهُ «عَبْدُ الْعُزَّى» فِي غَضَبٍ :

— تَبًّا^(١) لَكَ أَلَيْهَذَا جَمَعْتَنَا وَأَقْلَقْتَ رَاحَتَنَا ؟ !

فَنَزَلَ الْوَحْيُ عَلَى الرَّسُولِ بِالْإِجَابَةِ عَلَى عَمِّهِ الَّذِي يُهْدِّدُهُ

وَيَسْخَرُ مِنْهُ ، فَقَرَأَهَا الرَّسُولُ عَلَى النَّاسِ وَصَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ :

— « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ^(٢) وَتَبَّ^(٣) ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ

وَمَا كَسَبَ^(٤) ، سَيَصْلَىٰ^(٥) نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ

الْحَطَبِ^(٦) ، فِي جِيدِهَا^(٧) حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ^(٨) ..

فَنَظَرَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، وَابْتَسَمَتِ الْأَفْوَاهُ لِهَذَا

(١) تبا لك : هلاكاً .

(٢) تبت يدا : هلكت نفس أبى لهب .

(٣) وتب : هلك .

(٤) كسب : لم ينفعه ما كسب من مال وجاه .

(٥) سيصلى : يدخل .

(٦) حمالة الحطب : تحمل حطب جهنم . والمعنى : سيدخل

نار جهنم وامراته تحمل فيها الحطب .

(٧) جيدها : عنقها .

(٨) مسد : مفتول .

السَّاحِرِ ، وَزَادَتْ ابْتِسَامَاتُهَا وَهِيَ تُرَدِّدُ هَذِهِ الْكُنْيَةَ
بِلَذَّةٍ «لِعَبْدِ الْعُزَّى» ، وَكَانَهَا قَيْسَتْ عَلَيْهِ ، وَفُصِّلَتْ
سِلًّا دَقِيقًا ، وَحَرَّكَ النَّاسُ شِفَاهَهُمْ بِهَا ، وَقَالُوا :
لَهَبٌ !

ثُمَّ اَزْدَادُوا ابْتِسَامًا وَهُمْ يَتَخَيَّلُونَ امْرَأَتَهُ بِهَذِهِ الصُّفَةِ
الْجَدِيدَةِ ، حَمَالَةَ الْحَطَبِ ، وَذَلِكَ الْحَبْلُ مِنَ اللَّيْفِ فِي
جِيدِهَا .

وَانْطَلَقَ هَذَا الرَّدُّ الْإِلَهِيُّ كَأَنَّهُ الْبَرَقُ حَتَّى شَمِلَ مَكَّةَ ،
وَرَدَّدَتْهُ أَفْوَاهُ الرُّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، وَالْكِبَارِ وَالصُّغَارِ ، وَوَصَلَ
إِلَى مَسَامِعِ «عَبْدِ الْعُزَّى» وَامْرَأَتِهِ «أُمِّ جَعِيلٍ» سُخْرِيَّةً لَادِعَةً ،
فَاسْتَشَاطَا غَضَبًا ، وَأَقْسَمَتْ أُمُّ جَعِيلٍ بِاللَّيْلِ وَالْعُزَّى^(١) أَنْ
تَنْتَقِمَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَمِنْ خَدِيجَةَ ، وَكَانَا مُتَجَاوِرِينَ فِي السَّكَنِ .

وَأَسْرَعَتْ إِلَى زَوْجِهَا غَاظِبَةً مِنْ سُخْرِيَّةِ النِّسَاءِ بِهَا ، وَمِنْ
الْحَبْلِ الَّذِي وَضَعَهُ مُحَمَّدٌ فِي جِيدِهَا ، وَالْحَطَبِ الَّذِي تَحْمِلُهُ ،
وَصَاحَتْ بِهِ :

(١) العزى : من أصنام العرب .

— مَاذَا بَقِيَ بَعْدَ الْيَوْمِ ؟ !

إِذَا أَنَا فِي الدَّارِ وَإِذَا طَلَقُ ابْنَتِي خَدِيجَةَ !

وَلَمْ يَكُنْ زَوْجُهَا بِأَقْلَ مِنْهَا غَضَبًا ، فَاسْرَعَ إِلَى ابْنَيْهِ :
وَكُنَا قَدْ عَقَدْنَا^(١) عَلَى رُقِيَّةَ وَأُمِّ كُلْثُومَ وَلَمْ يَدْخُلَا بِهِمَا ،
وَصَاحَ بِهِمَا فِي شِدَّةٍ :

— أَسَمِعْتُمَا مَا قَالَ مُحَمَّدٌ فِيَّ وَفِي أُمُّكُمَا ؟ ! إِذَا أَنَا وَلِذَا
ابْنَتَا خَدِيجَةَ !

فَطَرَقَا قَلِيلًا يُفَكِّرَانِ ، فَاشْتَدَّ بِهِ الْغَضَبُ ، وَصَاحَ
يُهْدُدُهُمَا :

— إِنْ لَمْ تُطَلِّقَا هُمَا فَلَسْتُ أَبَاكُمَا ، وَسَاقُطُ حَبْلِ صَلَاتِي
بِكُمَا حَتَّى أَمُوتَ سَاطِئًا عَلَيْكُمَا ! !

وَلَمْ يُتِمَّ كَلَامَهُ حَتَّى كَانَتْ زَوْجَتُهُ تَعْدُو^(٢) صَارِيحَةً إِلَى
ابْنَيْهَا ، تَسُبُّ وَتَلْعَنُ ، وَتُهْدِدُ وَتَتَوَعَّدُ^(٣) ، فَلَمْ يَجِدِ الْإِبْنَانِ

(١) عَقَدَا : عَقَدَ الزَّوْاجَ .

(٢) تَعْدُو : تَجْرِي .

(٣) تَتَوَعَّدُ : تَنْذِرُ بِالْشَّرِّ .



أم جميل وزوجها أبو لهب يهددان ابنتيها في غضب شديد
ليطلقا ابنتي الرسول عليه السلام

أَمَامَ ثَوْرَةِ أَبِيهِمَا وَأُمَّهُمَا إِلَّا أَنْ يَخْضَعَا لِمَا أَرَادَا وَطَلَّقَا
الْفَتَاتَيْنِ .

فَلَمَّا بَلَغَ خَدِيجَةُ ذَلِكَ ، رَفَعَتْ يَدَيْهَا إِلَى السَّمَاءِ شَاكِرَةً
فَضَلَ اللَّهُ الَّذِي فَرَّقَ بَيْنَ ابْنَتَيْهَا وَبَيْنَ ابْنَى أَبِي لَهَبٍ ،
وَأَنْتَزَعَهُمَا مِنْ بَيْتِ أُمِّ جَمِيلٍ ، وَبَاعَدَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ شَرُّهَا .

وَسَرَّ الرُّسُولُ وَشَكَرَ رَبَّهُ عَلَى إِنْقَاضِ ابْنَتَيْهِ مِنْ شَرِّ أَبِي لَهَبٍ
وَأَمْرَاتِيهِ ...

لَكِنَّهُ عَرَفَ أَنَّ حَرْبَهُمَا لَنْ تَنْتَهِيَ ، وَأَنَّ هَذَيْنِ الشَّرِيرَيْنِ
سَيُشْمَرَانِ لِلْعَدَاوَةِ الظَّاهِرَةِ ، وَالْمَكَايِدِ السَّافِرَةِ ، وَتَوَقَّعَتْ
خَدِيجَةُ أَنْ تَبْدَأَ « أُمُّ جَمِيلٍ »^(١) الْكَيْدَ لَهَا بِمَا تَكِيدُ النِّسَاءُ
بَعْضُهُنَّ لِبَعْضٍ .

(١) أم جميل : زوج أبي لهب .

الأسئلة

(١)

كيف كان يدعو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى رسالته في أول الأمر ؟ ولماذا ؟ وكم استمرت هذه الفترة .

(٢)

ماذا حدث حين أراد رسول الله أن يحدث قومه عن دعوته ؟ وما أثر ذلك في نفسه ؟ وما موقف خديجة من ذلك ؟

(٣)

صمم - صلى الله عليه وسلم - على مواجهة قومه بالدعوة حين صعد على الصفا ونادى قومه فماذا قال ؟ وبم أجابوه ؟

(٤)

كان «لأبي لهب» موقف معارض للدعوة وقد رد القرآن على تهجمه . وضح . وبين دلالة ذلك الرد بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبالنسبة لأبي لهب وزوجته «أم جميل» ؟

* * *

١٩، اشتداد المعركة

أَخَذَتْ الْمَعْرَكَةُ بَيْنَ النَّبِيِّ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ تَكْبَرُ يَوْمًا بَعْدَ
يَوْمٍ ، وَالرَّسُولُ مَاضٍ فِي دَعْوَتِهِ ، وَقُلُوبُ قُرَيْشٍ تَكَادُ
تَتَمَيَّزُ^(١) مِنَ الْغَيْظِ يُفَكِّرُونَ وَيُلْدَبِرُونَ .

وَقَدْ أَعْلَنَ أَبُو لَهَبٍ وَأَمْرَأَتُهُ عَدَاوَتَهُمَا لِلرَّسُولِ ، وَأَخَذَتْ
أَمْرَأَتُهُ تُدَبِّرُ لِيَكِيدَ خَلِيلَتِهَا ، حَتَّى يَدَّأِ النَّبِيُّ يَسْخَرُ مِنَ الْأَصْنَامِ .
الْمَنْصُوبَةِ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ، لَا تَدْفَعُ ضَرًّا وَلَا تَجْلِبُ نَفْعًا ،
يُلْفِتُ الْأَنْظَارَ إِلَيْهَا ، وَإِلَى مَوَاقِفِهَا الزَّرِيَّةِ^(٢) مِنَ الشَّرِّ حِينَ
تَرَاهُ وَلَا تَتَحَرَّكُ ، وَمِنَ الْمَكَارِمِ حِينَ تَنْظُرُ إِلَيْهَا وَلَا تَتَأَثَّرُ .

فَفَزَعَتْ قُرَيْشٌ هَلِجَ السُّخْرِيَّةِ ، وَاجْتَمَعَتْ لِتَعْرِى الرَّأْيَ فِي
ذَلِكَ الَّذِي يَعْيبُ آلِهَتَهَا وَيُحَقِّقُهَا ، وَتَضَعُ حَدًّا لِدَعْوَتِهِ
وَلِلْفِتْنَةِ الَّتِي أَثَارَهَا فِي مَكَّةَ .

(١) تَتَمَيَّزُ : تَتَقَطَّعُ .
(٢) الزَّرِيَّةُ : الْمَتْسِينَةُ .

قال بعضهم لبعض :

— إِنْ لَمْ نَضْرِبْ عَلَى يَدِ مُحَمَّدٍ ضَرْبًا عَنيفًا ، فَلَيْسَ لَنَا
بَعْدَ الْيَوْمِ سُلْطَانٌ !
ثُمَّ انْفَقُوا عَلَى الْعَمَلِ وَوَزَعُوهُ بَيْنَهُمْ .

قال الشعراءُ : عَلَيْنَا أَنْ نَهْجُوهُ^(١) بِشِعْرِنَا ، وَنُسَفَّهُ^(٢) رَأْيَهُ
وَنَسْخَرَهُ مِنْهُ . فَإِذَا ذَاعَ^(٣) هَذَا الشُّعْرُ ، أَثَّرَ فِي نَفُوسِ النَّاسِ
فَانْصَرَفُوا عَنْهُ .

وقال القصاصون : عَلَيْنَا أَنْ نَجْلِسَ لِلنَّاسِ ، وَنُحَدِّثَهُمْ
بِمَا سَمِعْنَا مِنْ أَخْبَارِ الْأَوَّلِينَ وَقِصَصِ السَّابِقِينَ ، حَتَّى نَغْطِيَ
بِتِلْكَ الْقِصَصِ عَلَى قُرْآنِهِ وَنَصْرِفَ عَنْهُ الْأَذْهَانَ ، فَلَا يَجِدَ
النَّاسُ فِيهِ مَا يَجِدُونَ مِنَ الرُّوعَةِ وَالْجَمَالِ .

وقال التجارُ : سَنُضَيِّقُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَتْبَاعِهِ ، وَنَحْرِمُهُمْ مِنْ
الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالرَّبْحِ ، فَإِذَا ضَاقَ بِهِمُ الْعَيْشُ تَرَكَوهُ وَرَجَعُوا
عَنْ دِينِهِ .

(١) نهجوه : نسبته .

(٢) نسفه : نحقره .

(٣) ذاع : انتشر .

وَأَخَذَ أَبُو جَهْلٍ وَأَبُو لَهَبٍ عَلَى عَاتِقَيْهِمَا نَصِيبًا كَبِيرًا مِنْ
إِذْءَاءِ الرَّسُولِ ، وَتَمَهَّدَ أَبُو لَهَبٍ - وَهُوَ جَارُهُ - بِأَنْ لَا يُرِيحَهُ
وَلَا يَدَعَهُ يَهْنَأُ فِي بَيْتِهِ ، وَأَنْ يُفْلِقَ زَوْجَتَهُ خَدِيجَةَ الَّتِي
تُشَجِّعُهُ وَتَتَحَمَّسُ لِدَعْوَتِهِ ، وَتَنْشُرُهَا بِمَا أُوتِيَتْ مِنْ قُوَّةٍ وَمَالٍ .
ثُمَّ انْصَرَفُوا يَعْمَلُونَ .

اتَّفَقَ أَبُو لَهَبٍ مَعَ زَوْجَتِهِ عَلَى الْخُطَةِ ، وَقَالَ لَهَا فِي غَيْظٍ :
- سَأَرِيهِ كَيْفَ يُطْلِقُ فِينَا لِسَانَهُ ، وَسَأَرِي وَخِيَهُ كَيْفَ
يَنْزِلُ عَلَيْهِ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْقُرْآنِ الَّذِي أَلْقَاهُ يَوْمَ الصَّفَا !
وَقَالَتْ زَوْجَتُهُ :

- وَسَأَرِي خَدِيجَةَ كَيْفَ تَصْنَعُ أُمُّ جَمِيلٍ ، وَكَيْفَ تُدَبِّرُ
لِأَعْدَائِهَا ! وَمَا هَذَا الْحَبْلُ الَّذِي رَبَطَهُ مُحَمَّدٌ فِي جِوْدِي !!

وَنَظَرَتْ أُمُّ جَمِيلٍ مِنْ بَابِهَا إِلَى بَيْتِ خَدِيجَةَ ، وَصَغَطَتْ
بِفَكِّهَا الْأَسْفَلَ عَلَى فَكِّهَا الْأَعْلَى ، فَسَمِعَ لَهَا صَرِيرٌ ^(١) يُغْلِنُ
الْغَضَبَ ، ثُمَّ قَالَتْ فِي حِقْدٍ :

(١) صرير : صوت .

— إِمَّا أَنْ تَرْحَلِي يَا خَدِيجَةُ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ ، وَإِمَّا أَنْ نَرْحَلَ
نَحْنُ ! لَنْ أُرِيكَ رَاحَةً بَعْدَ الْيَوْمِ !

ثُمَّ بَدَأَ الْعَمَلُ .

فَمَا أَشْرَقَ الصَّبَاحُ حَتَّى كَانَ بَابُ خَدِيجَةَ مُلَطَّخًا^(١) بِالْأَقْدَارِ ،
وَمَدْخَلُ الْبَيْتِ مُغَطَّى بِمَقَادِيرَ كَبِيرَةٍ مِنْهَا ، فَلَمَّا خَرَجَ مُحَمَّدٌ
وَوَجَدَهَا عَادَ إِلَى خَدِيجَةَ وَقَالَ بِاسْمًا :

— بَدَأَتْ امْرَأَةٌ أَبِي لَهَبٍ ! هَذَا أَوَّلُ الْغَيْثِ يَا خَدِيجَةُ !

فَهَبَّتْ خَدِيجَةُ إِلَى الْبَابِ ، وَرَأَتْ مَا عَلَيْهِ وَمَا أَمَامَهُ ،
فَقَالَتْ بِاسْمَةٍ :

— سَأَنْظِفُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ !

ثُمَّ دَعَتْ جَوَارِيَهَا وَأَمَرَتْهُنَّ بِإِزَالَةِ تِلْكَ الْأَقْدَارِ ، وَقَدْ
عَلِمَتْ أَنَّ امْرَأَةَ أَبِي لَهَبٍ قَدْ وَقَفَتْ تَنْظُرُ ، وَتَتَرَبَّصُ^(٢) أَنْ
تُثَوِّرَ خَدِيجَةُ فَتَشْتَبِكَ بِمَعَهَا ، ثُمَّ تَسِيرُ الْأُمُورُ مِنْ سَيِّئٍ إِلَى
أَسْوَأَ .

(١) ملطخا : مغطى .

(٢) تتربص : تنتظر .

لَكِنَّ خَدِيجَةَ فَوَّتَتْ عَلَيْهَا مَا أَرَادَتْ مِنَ الشَّرِّ ، وَوَطَّئَتْ^(١)
نَفْسَهَا عَلَى مِثْلِ هَذَا الْكَيْدِ ، فَكَانَتْ تَسْمَعُ بِأُذُنِهَا أَقْلَرَ
الشَّتَائِمِ وَأَقْدَعَ السَّبَابِ ، فَلَا تَزِيدُ عَلَى بَسْمَةِ لَطِيفَةٍ ، ثُمَّ
تَقُولُ فِي ثَبَاتٍ :

— سَادَّعُهُمْ يَمُوتُونَ بِغَيْظِهِمْ ، وَلَكِنْ أَفْرَجَ عَنْهُمْ بَرْدُ أَوْ
ثُورَةٍ ، فَذَلِكَ أَجْدَى وَأَشَدُّ !

ثُمَّ تَلْتَفَتَتْ إِلَى جَوَارِيهَا الثَّائِرَاتِ ، وَقَدْ حَدَرَتْهُنَّ أَنْ يَفْتَحَنَّ
أَفْوَاهَهُنَّ بِكَلِمَةٍ ، وَتَقُولُ بِاسْمَةٍ :

— مَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُسْلِمَةِ وَالْكَافِرَةِ ؟ !

وَإِذَا كُنَّا سَنَجْزِي السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ وَلَا نَعْفُو وَلَا نُقَابِلُ
الْإِهَانَةَ بِالْمَعْفِرَةِ ، فَهَلْ نَكُونُ أَدِينًا وَاجِبَ دِينِنَا ، وَسِرْنَا
عَلَى سُنَّةِ نَبِيِّنَا ؟ !

ثُمَّ تَتَقَبَّلُ أَدَى كُلِّ يَوْمٍ بِهَذَا الصَّبْرِ ، فَإِذَا عَادَ إِلَيْهَا
الرَّسُولُ وَحَدَّثَهَا بِمَا أَلْقَاهُ أَبُو جَهْلٍ وَأَبُو لَهَبٍ عَلَى سَمْعِهِ مِنْ

(١) وطئت نفسها : هيات نفسها لتقبله .

الْكَلِمَاتِ اللَّادِعَةِ وَالشَّتَائِمِ الْمُرَّةِ ، افْتَرَّ ثَغْرَهَا وَقَالَتْ فِي
صَوْتٍ هَادِيٍّ :

— إِنَّمَا هِيَ أَصَوَاتٌ فِي الْهَوَاءِ ، تَذْهَبُ مَعَ الرِّيحِ ،
وَتَتَلَاشَى ^(١) فِي الْفَضَاءِ الْفَسِيحِ !

فَلَمَّا رَأَتْ قَرِيْشَ أَنْ أَمَرَ مُحَمَّدٌ يَّعْلُوَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ،
وَأَنْصَارُهُ يَزِيدُونَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، اجْتَمَعُوا لِيُقَرَّرُوا أَمْرًا غَيْرَ
مَا يَصْنَعُ أَبُو جَهْلٍ وَأَبُو لَهَبٍ وَأَمْرَاتُهُ مِنَ الْإِيذَاءِ .

قَالَ بَعْضُهُمْ : اقْطَعُوا مَدَدَهُ تُعْجِزُوهُ ، وَتَتَمَكَّنُوا مِنْهُ !

فَصَاحُوا فِي لَهْفَةٍ :

— وَمَا هَذَا الْمَدَدُ ؟

تَغْنِي عَمَّ أَبَا طَالِبٍ ؟ !

إِنْ لَمْ يَتَخَلَّ عَنْهُ كَانَ لَنَا وَلِيَّاءُ شَأْنُ !

قَالَ الرَّجُلُ فِي قُوَّةٍ :

— أَعْنِي خَدِيجَةَ ! تِلْكَ الْمَرْأَةُ الَّتِي يَعْتَمِدُ عَلَى سُلْطَانِهَا .

وَمَالِهَا ، وَقَلْبِهَا .

(١) تتلاشى : تذهب .

لِئَنهَا تَبْتُ^(١) الدَّعْوَةَ بِقُوَّةٍ ، وَتَحْسِبُهَا تِجَارَةً تُنْمِيهَا ،
وَسَلْعًا تَدْعُو لَهَا وَتُحَسِّنُهَا فِي أَعْيُنِ مُشْتَرِيهَا ۝

أَلَمْ تَرَوْا إِلَى إِسْلَامِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِهَا ، وَتَعَصُّبِهِمْ لِبُصْهِرِهِمْ
مُحَمَّدٍ ، وَعَزْزِهِمْ عَلَى الْقُفُوفِ بِجَانِبِهِ وَالِدِّفَاعِ عَنْهُ بِأَرْوَاحِهِمْ ۝
مَا هَذَا كُلُّهُ ؟ ۝

قُلْنَا مُحَمَّدٌ سَاحِرٌ ؟ فَمَا بَالُ خَلِيجَةٍ تَشْتَرِكُ مَعَهُ فِي هَذَا
الْخِذَاعِ وَالسَّحْرِ ؟ ۝

إِنْ لَمْ تَقْضُوا وَتُبْطِلُوا سِحْرَهَا فَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَنَالُوا
كَثِيرًا مِنْ مُحَمَّدٍ ۝
قَالُوا : وَمَا الْعَمَلُ ؟

قَالَ فِي حِمَاسَةٍ :

- إِذَا نَجَحْنَا فِي صَرْفِ أَبِي طَالِبٍ عَنْ مُحَمَّدٍ ، ثُمَّ نَا
بِخَلِيجَةٍ ، فَهَذَا نَاهَا حَتَّى نَفْصِلَهَا عَنْهُ ، فَإِذَا فَقَدْ هَاتَيْنِ
الدَّعَايَتَيْنِ^(٢) ، صَمَتَ وَلَمْ يَنْكَلَمْ ۝
فَاسْتَحْسِنُوا هَذَا الرَّأْيَ ، وَأَسْرِعُوا يَعْمَلُونَ .

(١) تبث : تنشر .

(٢) الدعاية : عماد البيت .

قال أبوطالب: لَنْ أَتَخَلَّى عَنْ ابْنِ أَخِي، وَلَنْ أَتْرُكَهُ لَكُمْ !
فَأَخْفَقُوا فِي الشَّطْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْخُطَّةِ ، وَرَأَوْا أَنَّهُمْ أَخْفَقُوا
فِي الشَّطْرِ الثَّانِي ، وَهُوَ الْإِنْفِرَادُ بِخَدِيجَةَ بَعْدَ أَبِي طَالِبٍ ،
فَقَرَّرُوا أَمْرًا آخَرَ .

قَرَّرُوا الْقَضَاءَ عَلَى أَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ ، حَتَّى يَكُونُوا عِبْرَةً ^(١) لِمَنْ
يُفَكِّرُ فِي دُخُولِ هَذَا الدِّينِ ، فَلَا يَجِدُ مِنْ حَوْلِهِ أَنْصَارًا ،
وَلَا يَجِدُ مَنْ يَدْعُوهُ ، ثُمَّ انْصَرَفُوا يَعْمَلُونَ .

وَتَرَدَّدَ فِي مَكَّةَ الصُّرَاخُ وَالْعَوِيلُ ، وَشَاعَتْ مَنَاطِرُ التَّعْذِيبِ
وَالْتَنكِيلِ بِالْأَرْقَاءِ ^(٢) وَالضَّمَمَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، مِنْهُمْ مَنْ
يُلْقَى فِي الشَّمْسِ الَّتِي تُذِيبُ الْحَدِيدَ ، وَيُوضَعُ حَجَرٌ كَبِيرٌ
عَلَى صَدْرِهِ ، فَلَا يَتَحَرَّكُ وَلَا يَسْتَطِيعُ الْفِرَارَ مِنْ تِلْكَ الْأَشْعَةِ
الَّتِي تَشْوِيهِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْقَى فِي حُجْرَةٍ مُظْلِمَةٍ بِلَا طَعَامٍ وَلَا شَرَابٍ
حَتَّى يُمَزَّقَ الْجُوعُ أَحْشَاءَهُ .

(١) عبرة : عظة .

(٢) التنكيل : التعذيب الشديد .

وَمِنْهُمْ مَنْ يُشْقُّ بَطْنَهُ بِعُمْدٍ مِنَ الْحَدِيدِ ، وَتُكْشَفُ سَوَاتُهُ ^(١)
 أَمَامَ الْجُمُوعِ الْمُحْتَشِدَةِ ^(٢) ، لَتَرَى هَذَا التَّعْذِيبَ وَالتَّنْكِيلَ ^(٣) .
 وَأَمَامَ الْبُيُوتِ تَدُورُ رَحَى الشَّتَائِمِ وَالسَّبَابِ ، وَقَدْ نَهَضَتْ
 كُلُّ امْرَأَةٍ تُجِيدُ هَذَا اللَّوْنَ ، لَتَشْتَرِكَ بِنَصِيبِهَا فِي الْمَعْرَكَةِ .

وَأَصْبَحَ الْمُسْلِمُ فِي مَكَّةَ شَيْئًا يَنْبَغِي الْفِرَارُ مِنْهُ ، وَإِلَّا رَأَتْهُ عَيُونُ الْكُفَّارِ ،
 وَامْتَدَّتْ إِلَيْهِ أَيْدِيهِمْ ، وَيَا وَيْلَهُ إِذَا وَقَعَ فِي تِلْكَ الْقَبْضَاتِ
 الْقَاسِيَةِ !

وَفِي وَسَطِ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ ، كَانَتْ خَدِيجَةُ تَعْمَلُ فِي ثَبَاتٍ ،
 وَعَزَمَ ، وَجَلَدَ ^(٥) .

مَدَّتْ يَدَهَا تَمْسُحُ بِهَا عَلَى جُرْحِ الْمَجْرُوحِ ، وَتَوَاسِيهِ ،
 وَتُشَجِّعُهُ ، وَتُبَشِّرُهُ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ .

وَفَتَحَتْ خَزَائِنَهَا لِلْمُسْلِمِينَ يَأْخُذُونَ مِنْهَا مَا يَشَاءُونَ ،

(١) سَوَاتُهُ : عَوْرَتُهُ .

(٢) الْمُحْتَشِدَةُ : الْمَجْتَمِعَةُ .

(٣) التَّنْكِيلُ : التَّعْذِيبُ .

(٤) حَمِيمًا : شَدِيدَ الْإِخْلَاصِ .

(٥) جَلَدَ : صَبَرَ .

وَبَذَلَتْ أَمْوَالَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، تَدْفَعُ الْغُرْمَ^(١) ، وَتَشْتَرِي الْأَرْقَاءَ
الْمُعَذَّبِينَ وَتُطْلِقُهُمْ ، وَتُقَوِّتُ عَلَى الْقَرَشِيِّينَ تَضْيِيقَهُمْ عَلَى
الْمُسْلِمِينَ فِي تِجَارَتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ .

وَلَا تَهْتَمُّ بِذَلِكَ الْعَبْتُ الَّذِي كَانُوا يَصْنَعُونَهُ ، فَلَا تُلْقَى
بِالْهَذَا إِلَى تِلْكَ الْحِجَارَةِ الْمُتَسَاقِطَةِ عَلَى دَارِهَا ، وَالضَّامِرَةِ بِأَبْهَا ،
وَلَا إِلَى ذَلِكَ الصِّيَاحِ الَّذِي يَصْبِيحُ بِهِ الْمُسْرِكُونَ وَأَطْفَالُهُمْ
حَوْلَ دَارِهَا .

وَلَا تَشُورُ لِمَنْظَرِ أَوْلِيكَ الْأَشْرَارِ وَهُمْ يَسِيرُونَ خَلْفَ الرَّسُولِ .
بَلْ تَبْتَسِمُ وَتَنْتَظِرُ حَتَّى يَدْخُلَ الدَّارَ ، فَتَقَابِلُهُ ضَاحِكَةً ،
سَاحِرَةً مِنْ هَذَا الصِّغَارِ الَّذِي تَصْنَعُهُ قَرِيْشٌ ، وَتُزِيلُ بِابْتِسَامِهَا
وَرِضَاهَا مَا أَهَمَّهُ .

فَلَمَّا رَأَى الرَّسُولُ مَا يَحُلُّ بِأَصْحَابِهِ ، آثَرَ^(٢) أَنْ يُبْعِدَهُمْ
عَنْ هَذَا الْأَذَى ، وَأَذِنَ لَهُمْ بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْحَبَشَةِ ، فَطَرِبَتْ^(٣)

(١) الغرم : الدين .

(٢) آثر : فضل .

(٣) طربت : فرحت .

خَدِيجَةُ هَذَا الرَّأْيِ ، وَعَاوَنْتِ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى التَّجَهُّزِ لِلسَّفَرِ ،
وَقَدَّمَتْ إِلَيْهِمْ مَا يُعِينُهُمْ عَلَى الرَّحِيلِ .

وَزَادَ طَرَبُهَا حِينَ جَاءَهَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ زَوْجُ ابْنَتِهَا رُقِيَّةَ ،
يُخْبِرُهَا بِعَزْمِهِ هُوَ وَرُقِيَّةُ عَلَى الْهَجْرَةِ ، وَقَالَتْ فِي رِضَا :

— بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ يَا عُثْمَانُ ، وَبَارَكَ فِي رُقِيَّةَ ! أَمَا نَحْنُ
فَسَنَظِلُّ هُنَا حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ .

وَفِي سِتَارِ اللَّيْلِ ، كَانَ هَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرُونَ يَفِرُّونَ مِنْ مَكَّةَ
بِلَدِينِهِمْ ، وَخَدِيجَةُ تُودِّعُهُمْ بِاسْمَةِ مُتَجَلِّدَةٍ .

ثُمَّ طَبَعَتْ قُبُلَتَيْنِ عَلَى خَدَيِ ابْنَتِهَا ، وَرَجَمَتْ لَهَا وَلِزَوْجِهَا
رِخْلَةَ سَعِيدَةٍ ، وَتَوَفَّيْقًا فِي تِلْكَ الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ ، وَظَلَّتْ تَنْظُرُ
إِلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِ أَسْتَارِ الظَّلَامِ حَتَّى اخْتَفَوْا عَنِ الْأَنْظَارِ ،
وَعَادَتْ إِلَى بَيْتِهَا تَنْتَظِرُ مَا تَصْنَعُ قُرَيْشٌ .

— ١٩١ —

الأسئلة

(١)

سخر الرسول صلى الله عليه وسلم -- من الأصنام . فلماذا ؟
وما أثر هذه السخرية في نفوس القرشيين ؟

(٢)

قابلت (خديجة) رضى الله عنها -- سوء فعل « أم جميل »
بحسن التصرف . وضح ذلك وبين دلالة على كل منهما .

(٣)

«إنما هي أصوات في الهواء ، تذهب مع الريح ، وتتلاشى
في الفضاء الفسيح» .

(أ) من القائل ؟ وما دلالتها على شخصيته ؟

وما المناسبة التي قيلت فيها ؟

(ب) ما معنى العبارة ؟

(٤)

حاولت قريش مقاومة رسول الله صلى الله عليه وسلم بشق
الوسائل .

وضح ذلك ، وبين موقف المسلمين منه

(٢٠) معركة القوت

بَلَغَ الْمُهَاجِرُونَ شَاطِئَ الْبَحْرِ ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ أَمَامَهُمْ ،
يَتَلَمَّحُونَ بَاحِثِينَ عَنْ سَفِينَةٍ يَرْكَبُونَهَا ، وَيَتَلَفَّتُونَ خَلْفَهُمْ
خَائِفِينَ أَنْ تَلْحَقَ بِهِمْ قُرَيْشٌ .

وَكَانَ الْمَاءُ قَدْ انْفَلَقَ عَنْ سَفِينَةٍ كَبِيرَةٍ بَرَزَتْ لَهُمْ ،
فَرَكِبُوهَا وَرَجَعَتْ بِهِمْ تَشُقُّ عُبَابَ (١) الْمَاءِ .

وَكَانَتْ قُرَيْشٌ قَدْ عَلِمَتْ بِفِرَارِهِمْ ، وَخَافَتْ خَطَرَ هَذَا
الْفِرَارِ ، فَأَسْرَعَتْ خَلْفَهُمْ لَتَرُدَّهُمْ وَتُؤَدِّبَهُمْ ، فَلَمَّا بَلَغَتْ
شَاطِئَ الْبَحْرِ لَمْ تَجِدْ لَهُمْ أَثَرًا فَاشْتَدَّ بِهَا الْغَيْظُ وَعَادَ رِجَالُهَا
بِقُلُوبٍ تَكَادُ تَنْفَجِرُ ، وَزَفَرَاتٍ تَكَادُ تَلْتَهِبُ ، وَهُمْ يَصِيحُونَ
فِي شِدَّةٍ :

— لَا بُدَّ مِنْ عَمَلٍ ! مَاذَا نَنْتَظِرُ ؟ !

(١) عباب الماء : كثرته .

قَالَ بَعْضُهُمْ حِينَ اسْتَقَرَّ بِهِمُ الْمَجْلِسُ :

— نَقْتُلُ مُحَمَّدًا !

وَقَالَ آخَرُونَ :

— نَقْتُلُ خَدِيجَةَ وَأَبَا طَالِب !

وَرَدَّ غَيْرُهُمْ :

— بَلْ نَقْتُلُ هَؤُلَاءِ وَمَعَهُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ !

ثُمَّ اتَّفَقُوا عَلَى مُحَاصَرَتِهِمْ وَمَنْعِ الْقُوتِ^(١) عَنْهُمْ ، حَتَّى يَمُوتُوا جُوعًا أَوْ يَتَخَلَّوْا عَنْ مُحَمَّدٍ .

وَكَتَبُوا بَيْنَهُمْ كِتَابًا يَتَعَاهَدُونَ فِيهِ إِلَّا يَبِيعُوهُمْ شَيْئًا ،
أَوْ يَبْزِعُوهُ^(٢) مِنْهُمْ شَيْئًا ، أَوْ يُخَالِطُوهُمْ ، أَوْ يُصَاهِرُوهُمْ^(٣) ،
وَأَنْ يَكُونُوا يَدًا وَاحِدَةً عَلَى مَنْ يَعْطِفُ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ عَلَّقُوا
هَذِهِ الصَّحِيفَةَ عَلَى الْكَعْبَةِ .

(١) القوت : الطعام .

(٢) يبتاعوا : يشتروا .

(٣) يصاهروهم : يزوجوهم أو يتزوجوا منهم .

وَأَمَامَ هَذِهِ الْمَعَاهِدَةِ الشَّرِيرَةِ ، اجْتَمَعَ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو
الْمُطَلِّبِ وَتَشَاوَرُوا فِي الْأَمْرِ ، وَفَرَرُوا الْإِتِّحَادَ أَمَامَ هَذِهِ الْمُخَالَفَةِ
الْأَثِمَةِ (١) ، وَالْأَيُّ يَتْرُكُوا مُحَمَّدًا وَلَوْ مَاتُوا جُوعًا .

وَرَأَوْا أَنْ يَدْخُلُوا جَمِيعًا فِي شُعْبٍ مِنَ الشُّعَابِ ، يَجْمَعُهُمْ
كُلُّهُمْ ، وَيَعِيشُوا فِيهِ مَعًا بَعِيدًا عَنْ كَيْدِ مَكَّةَ الْوَاقِفَةِ أَمَامَهُمْ ،
وَأَسْرَعُوا يَدْخُلُونَ فِي هَذَا الشُّعْبِ ، وَدَخَلَتْ خَدِيجَةُ مَعَهُمْ
بِمَا اسْتَطَاعَتْ مِنَ الْمَالِ وَالزَّادِ ..

ثُمَّ انْتَشَرَ الْقُرَشِيُّونَ فِي السُّوقِ ، إِذَا مَا رَأَوْا قَافِلَةً مُقْبِلَةً
عَلَى مَكَّةَ ، أَحَاطُوا بِهَا ، وَوَقَفُوا يَنْظُرُونَ .

إِذَا رَأَوْا أَحَدًا مِنْ أَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ أَقْبَلَ شَارِيًا لِبَعْضِ السَّلْعِ ،
تَقَدَّمَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَعَرَضَ ضِعْفَ مَا يَغْرِضُ الْمُسْلِمُ ثَمَنًا ،
فَإِذَا زَادَ الْمُسْلِمُ زَادُوا ضِعْفَ مَا زَادَ ، وَلَا يَزَالُونَ حَتَّى يَعْجَزَ
وَيَتْرَكَ السَّلْعَةَ ، وَهُمْ يَسْخَرُونَ مِنْهُ .

وَلَمْ يَدْخُلْ أَبُو لَهَبٍ وَلَا زَوْجَتُهُ مَعَ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَلِّبِ

(١) الأثمة : الشريرة .



تجار قريش يستقبلون السفن القادمة

فِي شُعْبِهِمْ ، لِأَنَّ الْحَقِّدَ دَفَعَهُ إِلَى نِسْيَانِ قَرَابَتِهِ لِلرَّسُولِ ،
وَجَرَّهُ إِلَى الْإِضْرَارِ بِهِ .

فَكَانَ يَسِيرُ فِي السُّوقِ صَائِحًا بِالتُّجَّارِ أَلَّا يَبِيحُوا شَيْئًا
لِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ، وَيُؤَكِّدُ لَهُمْ أَنَّهُ ضَامِنٌ لِمَا يَلْحَقُ مَتَاجِرَهُمْ
مِنْ خَسَارَةٍ .

فَانْقَطَعَ الزَّادُ عَمَّنْ فِي الشُّعْبِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَالْمُطَلِّبِ ،
وَنَخَافَ الصَّادِقُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَقْرَبَهُ ، وَنَفِدَ مَا كَانُوا حَمَلُوهُ
حِينَ سَارُوا إِلَى مَحْبِسِهِمْ ؛ فَاشْتَدَّ بِهِمُ الْأَذَى ، وَتَجَلَّدَ النِّسَاءُ
وَالرِّجَالُ ، لَكِنَّ الْأَطْفَالَ عَضُّهُمْ الْجُوعُ ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ
حَتَّى كَانَتْ تُسْمَعُ مِنْ خَلْفِ الشُّعْبِ ، وَلَمْ يَنْفَعْ فِيهِمْ تَغْلِيلٌ^(١)
وَلَا زَجْرٌ^(٢) .

وَكَانَتْ خَلِيدِيَّةٌ بَيْنَ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا مَثَالًا لِلصَّبْرِ وَالشَّجَاعَةِ ،
وَقَدْ بَدَلَتْ مَا تَسْتَطِيعُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ مُوَاسَاةٍ ، وَصَبَرَتْ قَوِيَّةً
النَّفْسِ كَبِيرَةَ الْقَلْبِ ، تَشْتَدُّ بِسَمَّتِهَا كُلَّمَا اشْتَدَّتِ الْمِحْنَةُ^(٣)
وَزَادَ الْبَلَاءُ .

(١) تغليل : تلهية .

(٢) زجر : منع .

(٣) المحنة : ما يمتحن به الإنسان من بلاء .

كَانَتْ فِي وَسْطِ الشَّعْبِ بَعِيدَةً عَنْ قُرَيْشٍ ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا
خَائِفِينَ مِنْ تَدْبِيرِهَا ، يُشَدُّونَ مُرَاقِبَتَهُمْ عَلَى الشَّعْبِ ،
وَيُحْكِمُونَ حِصَارَهُ ، وَيُرَاقِبُونَ مَنْ يَخَافُونَ أَنْ يَصِلَ تَدْبِيرُ
خَدِيجَةَ إِلَيْهِمْ .. لَكِنَّهُمْ أَحْسَوْا أَنَّ بَعْضَ الطَّعَامِ يَدْخُلُ
بِتَدْبِيرِهَا ، فَاحْكُمُوا الْمُرَاقِبَةَ ، وَكَانَ أَبُو جَهْلٍ يُشْرِفُ عَلَى
تَنْظِيمِ هَذَا الْحِصَارِ ، فَزَادَ مِنْ يَقْظَتِهِ .

وَذَاتَ لَيْلَةٍ رَأَى غُلَامًا يَحْمِلُ قَمِيحًا ، وَيَتَسَلَّلُ بِهِ إِلَى
الشَّعْبِ فِي جُنْحِ^(١) اللَّيْلِ ، وَمَنْ خَلْفَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُسْرِعُ
مُتَمَتِّمًا ، فَأَمْسَكَ أَبُو جَهْلٍ بِالْغُلَامِ ، وَسَأَلَ الرَّجُلَ فِي غَضَبٍ :
— أَلَمْ نَتَعَاهَدْ عَلَى مُقَاطَعَةِ هَؤُلَاءِ ، حَتَّى يَرْتَدُّوا^(٢) أَوْ
يَمُوتُوا جُوعًا ؟ !

فَأَسْرَعَ الرَّجُلُ فِي سُخْرِيَةٍ :

— هَذَا دَيْنُكَ كَانَ عَلَى لَخْدِيجَةَ !

أَلَا تُرِيدُ أَنْ يَفَى^(٣) النَّاسُ بِمَا عَلَيْهِمْ مِنْ دِيُونٍ ؟ !

(١) جُنْحُ اللَّيْلِ : ظِلَامُهُ .

(٢) يَرْتَدُّوا : يَرْجِعُوا عَنْ دِينِهِمْ .

(٣) يَفَى : يُؤَدُّوا .

فانتفض أبو جهل صائحا :

— خديجة من وراء كل تدبير !

سنقتل خديجة وآل خديجة !

ثم أسرع إلى رؤساء قريش ليروا رأيهم في خديجة ،
وتدبيرها ، فآخذوا يفكرّون .

واستمرّ الحصار ثلاث سنوات ، انفقت خديجة فيها كل
مالها ، راضية القلب ، مرتاحة النفس ، تبعث في قلوب
الرجال القوة ، وفي قلوب النساء التضحية والصبر ...

حتى أذن الله بتخليم هذا الحصار ، فعاد المسلمون
المحاصرون إلى دورهم ينقلون خطوهم على مهل ، وعادت
خديجة إلى بيتها وقد زادتها هذه المعنة قوة ، تفكرّ فيما
سَصْنَع قريش بعد إخفاقها في هذا الحصار ، وأخذت تقلّب
الرأى فيما بقى لدى قريش من ألوان القسوة والشر .

ثم انتفضت في خوف وجزع : حين تذكرت أنه لم يبق
في جعبتهم غير السهم الأعير : وصاحت في قوة :

— لن يقتلوه ! لن يستطيعوا !

— ١٩٩ —

الأسئلة

اتفقت قريش على محاصرة «بنى هاشم وبنى المطلب» .

(أ) فماذا فعلت من أجل ذلك ؟

(ب) ما موقف «بنى هاشم وبنى المطلب» مما حدث ؟

(ج) ما موقف : (أبي لهب وزوجته) من هذه المقاطعة ؟

(د) حدث موقف أثار (أبا جهل) على خديجة اذكره .

(هـ) كم سنة استمر هذا الحصار ؟ وما دلالاته بالنسبة

للمحاصرين ولمن حاصروهم ؟

(و) كانت السيدة «خديجة» رضى الله عنها في هذه

المحنة مثلاً أعلى في التضحية والصبر . وضع ذلك .

* * *

١٢) السهم الأخير

عَادَتْ خَدِيجَةُ إِلَى دَارِهَا بَعْدَ هَذِهِ الْغَيْبَةِ الطَّوِيلَةِ ، فَدَبَّتْ
الْحَيَاةُ فِي الدَّارِ بَعْدَ مَا كَانَتْ مُقْفَرَةً^(١) ، وَأَشْرَقَتْ بَعْدَ مَا كَانَتْ
مُظْلِمَةً ، وَأَسْرَعَتْ صَدِيقَاتُ خَدِيجَةَ يَهْنِئَتْنَهَا بِالسَّلَامَةِ ،
وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهَا النِّسْوَةُ اللَّاتِي انْقَطَعَ عَنْهُنَّ بِرُّهَا^(٢) فِي تِلْكَ
السَّنَوَاتِ الثَّلَاثِ ، وَعَيُونُهُنَّ مَمْلُوءَةٌ بِدُمُوعِ الْفَرَحِ ، وَقُلُوبُهُنَّ
مَمْلُوءَةٌ بِالسُّخْطِ عَلَى كُفَّارِ مَكَّةَ الْقَسَاةِ .

وَأَخَذَتْ الدَّارُ تَمُوجُ بِالْوَافِدِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، تَتَجَاوَبُ^(٣)
فِي أَنْحَائِهَا آيَاتُ الْقُرْآنِ ، يُرَتِّلُهَا الرُّسُولُ وَأَتْبَاعُهُ ، فُرَادَى^(٤)
أَوْ جَمَاعَاتٍ ، وَلَمْ يَعُدَّ الْمُسْلِمُونَ يَسْتَخْفُونَ بِبَلَدِهِمْ ، بَعْدَ

(١) مقفرة : خالية .

(٢) برها : عطاها .

(٣) تتجاوب : تتردد .

(٤) فرادى : واحدا واحدا .

ما أَسْلَمَ أَمْثَالُ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمِّ النَّبِيِّ ، وَعُمَرُ
ابْنُ الْخَطَّابِ ، وَاعْتَزَّ بِهِمُ الْإِسْلَامُ .

وَقَدْ غَاظَ الْكُفَّارَ أَنْ يَعُودَ الْحِصَارُ بِغَيْرِ مَا كَانُوا يَأْمَلُونَ .
كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ سَيَقْتُلُونَ مُحَمَّدًا وَمَنْ مَعَهُ جُوعًا ،
وَسَيُشْرِحُهُمُ الْآيَّامُ مِنْهُمْ ، لَكِنَّ الْحِصَارَ حُطِّمَ بِقُوَّةِ اللَّهِ ،
وَخَرَجُوا سَالِمِينَ ، وَسَارَتْ أَخْبَارُهُمْ فِي أَنْحَاءِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ،
وَأَصْبَحَتْ حَدِيثَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ .

يَعْجَبُ لَهَا بَعْضُ النَّاسِ ، وَيَقْفُونَ عِنْدَ هَذَا الْعَجَبِ (١) ،
وَيَعْجَبُ لَهَا آخَرُونَ وَيَرَوْنَ فِيهَا مُعْجِزَةً تَدُلُّ عَلَى اتِّصَالِ مُحَمَّدٍ
بِاللَّهِ ، وَوُقُوفِ رَبِّهِ بِعَجَائِيزِهِ ، فَيَقْبِلُونَ عَلَيْهِ ، وَيَمْدُدُونَ أَيْدِيَهُمْ
إِلَيْهِ ، مُقَرِّينَ مُسْلِمِينَ ، مُنْضَمِّينَ إِلَى صُفُوفِهِ الَّتِي تَنْمُو
كُلَّ يَوْمٍ ..

وَعَادَتْ خَدِيجَةُ إِلَى تِجَارَتِهَا ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا عُمَلَاؤُهَا
يَسِيعُونَ وَيَسْتَشْرُونَ ، وَهِيَ مُسْرُورَةٌ بِنُورِ الْإِسْلَامِ الَّذِي يَشْتَدُّ

(١) العجب : يكتفون بالعجب .

ضِيَاؤُهُ وَيَحْتَدُّ ، وَلَا يَعُوقُهُ (١) مَا يُحَاوِلُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ
سُدُودٍ وَعَوَائِقَ . .

كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَنْظُرُونَ إِلَى بَيْتِ خَدِيجَةَ وَيَوَدُّونَ لَوْ
هَدَمُوهُ وَأَزَالُوهُ ، وَكَانَ أَبُو لَهَبٍ وَزَوْجَتُهُ يَنْظُرَانِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ
وَهُمْ يَدْخُلُونَ هَذَا الْبَيْتَ وَيَخْرُجُونَ مِنْهُ فَيَزِدَادُ غَيْظُهُمَا ،
وَيَتَأَجَّجُ (٢) حِقْدُهُمَا .

حَتَّى إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ حَاوِلًا أَنْ يَسْتَقِرًّا فِي فِرَاشِهِمَا ، فَيَأْتِيَ
النُّومُ أَنْ يُخَالِطَ أَجْفَانَهُمَا ، وَكَيْفَ يَنَامَانِ وَأَصْوَاتُ الْمُسْلِمِينَ
تَنْبَعِثُ مِنْ بَيْتِ خَدِيجَةَ بِالْقُرْآنِ ، فَتَصِلُ إِلَى قُلُوبِهِمَا سِهَامًا
قَاتِلَةً ؟ !

فَلَا يَمْلِكَانِ إِلَّا أَنْ يَضَعَدَا إِلَى سَطْحِ الدَّارِ ، وَيَنْظُرَا إِلَى بَيْتِ
خَدِيجَةَ نَظَرَاتٍ مُلْتَهَبَةٍ وَيُرْهِفَا آذَانَهُمَا إِلَى مَا يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ
وَيَتَلَوْنَ ، يَوَدُّ كُلُّ مِنْهُمَا لَوْ أَشْعَلَ النَّارَ فَالْتَهَمَتْ هَذَا
الْبَيْتَ الَّذِي أَقْضَى مَضْجَعَهُمَا (٣) .

(١) وَلَا يَعُوقُهُ : وَلَا يَقِفُ فِي طَرِيقِهِ .

(٢) يَتَأَجَّجُ : يَتَقَدُّ .

(٣) مَضْجَعُهُمَا : جَعَلَ الْمَضْجِعَ خَشْنًا : وَالْمَرَادُ طَرَدَ عَنْهُمَا الرَّاحَةَ .

وَذَاتَ لَيْلَةٍ سَهَرَتْ دَارَ خَلِيدِجَةَ إِلَى الْفَجْرِ ، وَسَهَرَ أَبُو لَهَبٍ
وَأَمْرَأَتُهُ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ ، انْطَلَقَ أَبُو لَهَبٍ إِلَى مُنْتَدَى^(١)
قُرَيْشٍ : ثُمَّ صَاحَ وَالْغَضَبُ يَهْزُهُ ، وَعَيْنَاهُ تَنْطِقَانِ بِمَا نَالَهُمَا
مِنَ الْأَرْقِ^(٢) :

— إِلَى مَتَى أَيُّهَا الْقَوْمُ ؟ !

كَيْفَ نَصْبِرُ عَلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ ! قَدْ فَاضَ الْإِنَاءُ^(٣) ، وَلَمْ
يَبْقَ فِي قَوْسِ الصَّبْرِ^(٤) مَنَزَعٌ !

فَلَمَّا أَرَادَ بَعْضُهُمْ أَنْ يُهْدِيَهُ ثَوْرَتَهُ ، اسْتَدَّ غَضَبُهُ ، وَصَاحَ
هَائِجًا :

— لَوْ كُنْتُ جَارًا لِخَلِيدِجَةَ لَعَرَفْتُ مَا نَحْنُ فِيهِ ،
وَلَوْ مَدَدْتُ بَصْرَكَ قَلِيلًا لَرَأَيْتَ مَا يَسِيرُ إِلَيْهِ دِينُ مُحَمَّدٍ !

أَنْصَبِرُ حَتَّى يُفْلِتَ الْأَمْرُ مِنْ أَيْدِينَا ؟ !

(١) مُنْتَدَى : نَادَى .

(٢) الْأَرْقُ : السَّهَرُ .

(٣) فَاضَ الْإِنَاءُ : بَلَغَ الْأَمْرُ نَهَائِيَّتَهُ .

(٤) الْمَنَزَعُ : السَّهْمُ الَّذِي يَنْتَزَعُ . وَالْقَوْسُ : مَا يَرْمِي بِهِ السَّهْمُ
وَهُوَ مِنْ عِدَدِ الْحَرْبِ وَالصَّيْدِ وَالْمَعْنَى : بَلَغَ الْأَمْرُ غَايَتَهُ .

— ٢٠٤ —

لَمْ يَعُدْ الْأَمْرُ أَمْرَ سِيَابٍ وَشَتَائِمَ ، وَلَا أَمْرَ حِصَارٍ وَحَبْسٍ ،
وَلَمْ يَعُدْ غَيْرُ السَّهْمِ الْأَخِيرِ !
قَالَ وَاحِدٌ فِي هُدُوهُ :

— لَكِنَّ مُحَمَّدًا ابْنُ أَخِيكَ يَا عَبْدَ الْعِزَّى !

فَاشْتَدَّ هَيْبَتُهُ ، وَقَالَ فِي قَسْوَةٍ :

— فَصَلْنَا^(١) تِلْكَ الصَّلَاةَ ، وَقَطَعْنَا تِلْكَ الْقَرَابَةَ ، وَلَمْ يَبْقَ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ نَسَبٌ^(٢) وَلَا سَبَبٌ^(٣) .

فَلَمَّا لَفَتَ نَظَرُهُ إِلَى أَخِيهِ أَبِي طَالِبٍ وَعَوْنِهِ لِمُحَمَّدٍ ، قَالَ
فِي حِلَّةٍ :

— وَأَبُو طَالِبٍ كَذَلِكَ ! قَطَعْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنْ أَجْلِ
مُحَمَّدٍ ، فَاصْنَعُوا مَا شِئْتُمْ .

أَطْفِئُوا هَذِهِ النَّارَ الَّتِي تَمْتَدُّ !

أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهَا خَرَجَتْ مِنْ مَكَّةَ إِلَى غَيْرِهَا ؟ !

(١) فصلنا : قطعنا .

(٢) نسب : قرابة .

(٣) ولا سبب : ولا صلة .

أَلَمْ تَرَوْا مُحَمَّدًا يَعْزِضُ نَفْسَهُ عَلَى الْقَبَائِلِ ، وَيَنْشُرُ دِينَهُ
بَيْنَهَا ؟ !

هَلْ حَرَّكَ أَبُو طَالِبٍ سَاكِنًا ؟ ! أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهُ حَرَسَ مُحَمَّدًا
وَدَخَلَ مَعَهُ الشُّعْبَ ؟ ! فَمَاذَا تَرْجُونَ مِنْهُ ؟ !

لَكِنَّ الدَّاءَ الْأَكْبَرَ يَكْمُنُ فِي بَيْتِ خَدِيجَةَ وَمَالِهَا ...
وَصَمَتَ قَلِيلًا ، ثُمَّ قَالَ فِي غَضَبٍ شَدِيدٍ :

— قَوْمُ خَدِيجَةَ مَعَ مُحَمَّدٍ ، وَلَا يَغُرُّكُمْ بَعْضُ مَنْ تَأَخَّرَ
إِسْلَامُهُمْ مِنْهُمْ ، أَلَا تَرَوْنَ أُخْتَهَا هَالَةً وَابْنَهَا ، لَمْ يُسْلِمَا
وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يُخَاصِمَا مُحَمَّدًا ، وَلَمْ يَنْقَطِعَا عَنْ دَارِ خَدِيجَةَ !

أَلَمْ تَرَوْا بَعْضَهُمْ مِمَّنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا ، لَمْ
يَتَأَخَّرْ عَنِ التَّسَلُّلِ فِي الظَّلَامِ إِلَى الشُّعْبِ بِالطَّعَامِ ، لِيُفْسِدَ
عَلَيْنَا خُطَّتَنَا ؟ ! .

أَلَمْ تَرَوْا إِلَى أَوْلَادِ إِخْوَتِهَا ، قَدْ اعْتَنَقُوا الْإِسْلَامَ وَاحِدًا
وَاحِدًا ، وَتَعَصَّبُوا لَهُ .

وَصَمَتَ لَحْظَةً ، ثُمَّ قَالَ وَالْعَصْبُ يَهْزُهُ :

— ٢٠٦ —

— لَا يَغْرَنَنَّكُمْ بَعْضُ مَنْ يَظْهَرُ لَكُمْ الْعَدَاوَةَ لِمُحَمَّدٍ مِنْ قَوَرِهَا ، فَإِنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَكُونُوا عِيُونًا ^(١) لِخَدِيجَةَ ، فَإِنَّهُمْ يُفَكِّرُونَ فِي الْإِسْلَامِ !

ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ ، وَدَقَّ بِيَدِهِ الْأَرْضَ قَائِلًا :

— أَرَى أَنْ تَبْدَعُوا بِخَدِيجَةَ ، فَكُلُّ شَيْءٍ يَهُونَ بَعْدَهَا !
فَقَالَ وَاحِدٌ فِي هُدُوهِ :

— وَإِذَا بَدَأْنَا بِأَبِي طَالِبٍ ؟ !

فَاسْتَشَاطَ أَبُو لَهُبٍ غَضَبًا ، وَقَالَ فِي حَيْرَةٍ :

— قَدْ بَيَّنْتُ رَأْيِي ، فَابْدَعُوا حَيْثُ شِئْتُمْ ، لَكِنْ لَا تَنَازَعُوا ،
فَالْأَمْرُ جِدٌّ ، وَتَأْخِيرُ الْعَمَلِ يَوْمًا يُؤَخِّرُنَا سَنَةً ، وَإِذَا تَأَخَّرْنَا
انْتَصَرَ مُحَمَّدٌ وَانْهَزَمْنَا ..

فَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَبْدَعُوا بِأَبِي طَالِبٍ ، فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي رِفْقٍ :

(١) عيونا : جواسيس .

— دَعُوا أَبَا طَالِبٍ فِي مَرَضِهِ ، فَإِنَّهُ يُعَانِي ^(١) الشَّيْخُوخَةَ ،
وَيُقَاسِي مَا أَلَمَ بِهِ ^(٢) هَذِهِ الْأَيَّامَ مِنْ مَرَضٍ عَنِيْفٍ .

ثُمَّ اسْتَقَرَّ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ يُخَاطَبُوا أَبَا طَالِبٍ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ ،
فَإِمَّا أَقْنَعَهُ بِالْعُدُولِ عَنْ دِينِهِ ، وَإِمَّا نَفَضَ يَدَهُ مِنْهُ ، وَإِمَّا
الذَّالِثَةَ الَّتِي لَا مَفَرَّ مِنْهَا ، وَهِيَ الْعُدْوَانُ عَلَيْهِ وَعَلَى مُحَمَّدٍ .

فَذَهَبُوا إِلَيْهِ وَحَادَثُوهُ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ ، فَلَمْ يَصِلُوا مَعَهُ إِلَى
حَلٍّ ، فَخَرَجُوا يُفَكِّرُونَ ..

كَانَ الرَّسُولُ مَعَهُمْ فِي دَارِ أَبِي طَالِبٍ ، فَرَأَى مَا فِي عُيُونِهِمْ
مِنَ الشَّرِّ ، وَمَا فِي أَصْوَاتِهِمْ مِنَ الْقَسْوَةِ ، فَخَرَجَ بَعْدَهُمْ ،
وَذَهَبَ إِلَى دَارِهِ وَجَلَسَ صَامِتًا .

قَالَتْ خَدِيجَةُ بِاسْمَةٍ :

— مَاذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ ! مَاذَا أَهَمَّكَ الْيَوْمَ ؟

قَالَ فِي تَأَثُّرٍ :

(١) يعانى : يقاسى .

(٢) ما ألمَّ : ما نزل .

— أبو طالب يا خديجة ! أبو طالب أَشْرَفَ عَلَى الْمَوْتِ ؛
وَالْكُفَّارُ يَرْقُبُونَ وَفَاتَهُ لِيَصُوبُوا كُلَّ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ أَدَى ، هَذَا
مَا أَهَمَّنِي الْيَوْمَ يَا خَدِيجَةُ !

فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ بِوَجْهِهَا الْمَشْرِقِ ، ثُمَّ قَالَتْ فِي بَسْمَةِ لَطِيفَةٍ :
— لَنْ يَصِلُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَى مَا يَشْتَهُونَ ! إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ،
وَلَنْ يَنْتَصِرَ الْبَاطِلُ عَلَى الْحَقِّ .

وَإِذَا كَانَ أَبُو طَالِبٍ سَائِلِي نِدَاءَ اللَّهِ ، فَإِنَّ رَبَّ أَبِي طَالِبٍ
أَقْوَى مِنْهُ وَمِنْهُمْ !

فَانْفَرَجَتْ شَفَتَا الرَّسُولِ سُورًا ، وَزَالَ هَمُّهُ ، لَكِنَّهُ لَمْ
يَقُمْ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى أَقْبَلَ النَّاعِي ^(١) يَنْعِي إِلَى مَكَّةَ أَبَا طَالِبٍ .
فَتَغَيَّرَ وَجْهُ الرَّسُولِ ، وَبَدَأَ الْجَزَعُ فِي قَسَمَاتِهِ ، وَأَحْسَسَ
بَأَنَّ رُكْنَا كَبِيرًا مِنْ حِصْنِهِ ^(٢) قَدْ انْهَدَّ ، ثُمَّ أَسْرَعَ إِلَى عَمِّهِ
الَّذِي نَاصَرَهُ لِيُلْقِيَ عَلَيْهِ النَّظْرَةَ الْآخِرَةَ ، وَهُوَ يَقُولُ فِي أَلَمٍ :
— لَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ يَا خَدِيجَةُ :

(١) الناعى : الذى يخبر بخبر الوفاة .
(٢) حصنه : المكان الذى لا يقدر أحد أن يناله .

وَأَخَذَ يَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُبَارِكَ فِي عُمْرِهَا ، وَيَمُدَّ فِي حَيَاتِهَا ،
ثُمَّ انْصَرَفَ مِنْ مَائِمٍ عَمَّهُ يَرَى أَنْيَابَ قُرَيْشٍ كَاشِرَةً عَنِ الشَّرِّ ،
وَوُجُوهُهُمْ مُنْدِرَةٌ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ تَدْبِيرٍ ، وَقَسَمَاتِهِمْ نَاطِقَةٌ
بِالشَّمَاتَةِ (١) ، كَانَتْهَا تَقُولُ فِي صَرَاحَةٍ :

— ماتَ نَصِيرُكَ أَبُو طَالِبٍ يَا مُحَمَّدُ ، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ خَدِيجَةٍ ،
وَسَوْفَ نَهْدِمُ هَذِهِ الدَّعَامَةَ الثَّانِيَةَ ، وَتُصْبِحُ فِي أَيْدِينَا كَمَا
يَقَعُ الْعَصْفُورُ فِي الْفَخِّ !

وَكَانَ مَا تَوَقَّعَ ، فَلَمْ يَمُضْ قَلِيلٌ عَلَى مَوْتِ أَبِي طَالِبٍ ، حَتَّى
بَدَأَتْ نُذُرُ الشَّرِّ ، وَاشْتَدَّتْ الْمَعْرَكَةُ ، وَأَخَذَ مُحَمَّدٌ يَخُوضُ
غِمَارَهَا ، وَخَدِيجَةُ تَقِفُ بِجَانِبِهِ ، وَتُعِينُهُ ، وَتُوَاسِيهِ ، وَتَدْفَعُ
عَنْهُ أَذَى الْقَوْمِ .

وَكُلُّ يَوْمٍ تَشْتَدُّ الْمَعْرَكَةُ ، وَيَظْهَرُ فِيهَا لَوْنٌ جَدِيدٌ مِنْ
الْقَسْوَةِ وَتُسْرِعُ إِلَى الدَّهَائَةِ الَّتِي أَرَادَ الْكُفَّارُ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهَا ،
وَكُلُّ يَوْمٍ يَمُرُّ يُفْنِغُ الْكُفَّارَ أَنَّهُ يَتَحَنَّنُ التَّخَلُّصُ مِنْ خَدِيجَةَ ،
لِيَتَخَلَّصُوا مِنْ مُحَمَّدٍ :

(١) الشَّمَاتَةُ : الفرح بمصيبة العدو .

— ٢١٠ —

الأسئلة

« أخذت الدار تموج بالوافدين من المسلمين تتجاوب في أنحائها آيات القرآن يُرتلها الرسول وأتباعه فرادى أو جماعات ، ولم يعد المسلمون يستخفون بدينهم بعد ما أسلم حمزة بن عبد المطلب عم النبي وعمر بن الخطاب واعتز بهم الإسلام » .

(أ) ما معنى : « تموج بالوافدين » ؟

(ب) ما أثر إسلام : (حمزة وعمر) في الدعوة الإسلامية ؟

(ج) ما موقف المشركين من ذلك ؟

(د) صمم المشركون على الشر فما الذى استقر عليه

رأيهم ؟ وما موقف «أبي طالب» منهم ؟

* * *

٢٢٠ فراق

اشْتَدَّ خَوْفُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، وَنَشِطَتْ فِيمَا تَقُومُ
بِهِ مِنْ مُعَاوَنَتِهِ وَمُؤَاسَاةِهِ .

وَمَعَ أَنَّهَا أَوْفَتْ^(١) عَلَى الْخَامِسَةِ وَالسَّتِّينَ ، فَقَدْ كَانَ قَلْبُهَا
شَابًا يَنْبِضُ بِصَادِقِ الْإِيمَانِ ، وَيَتَحَرَّكُ بِقُوَّةِ الْيَقِينِ .

كَانَ الرَّسُولُ يَرْجُو أَنْ تَمْتَدَّ حَيَاتُهَا حَتَّى يَتِمَّ النِّصْرُ لِإِذِينِ
اللَّهِ ، وَكَانَتْ تَرْجُو أَنْ تَطُولَ هَذِهِ الْحَيَاةُ حَتَّى تَرَى ذَلِكَ
النِّصْرَ ، وَتُشَاهِدَ الشَّمْسَ الْكَبِيرَةَ وَهِيَ تُغَيِّئُ جَوَانِبَ الدُّنْيَا
وَتَمْحُو مَا عَشِيَهَا^(٢) مِنَ الظُّلَامِ ...

وَكُلَّمَا اشْتَدَّ إِيْذَاءُ الْمُشْرِكِينَ لِلرَّسُولِ ، زَادَ إِشْفَاقُهَا عَلَيْهِ
وَتَعَلَّقُهَا بِهِ ، وَكُلَّمَا تَقَدَّسَتْ بِهَا السَّنُ ، زَادَ تَعَلُّقُ الرَّسُولِ بِهَا

(١) أَوْفَتْ : أَشْرَفَتْ .

(٢) مَا عَشِيَهَا : مَا غَطَّاهَا .

وَحُبِّهَ لَهَا ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَظُنُّ أَنَّهَا تَسْمَى إِلَى جِوَارِ رَبِّهَا ،
تَارِكَةً الْمَيْدَانَ وَسِهَامَ الْمُشْرِكِينَ تُوضَعُ فِي الْأَقْوَاسِ ، وَلَمْ
يَكُنْ يُقَدِّرُ أَنَّ رِسَالَتَهَا سَتَنْتَهِي سَرِيعًا بَعْدَ أَبِي طَالِبٍ ، وَلَمْ
يَبْقَ لَهُ بَعْدَهُ مُعَيَّنٌ سِوَاهَا ...

فَبَيْنَمَا كَانَا جَالِسَيْنِ ذَاتَ لَيْلَةٍ يَدْعُوَانِ اللَّهَ وَيَقْرَأَنِ
الْقُرْآنَ أَحَسَّتْ خَدِيدَجُةٌ بِرَعْدَةٍ فِي جَسَدِهَا ، وَشَعَرَتْ بِفُتُورٍ
اعْتَرَاهَا ، فَانْظَرَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ بِاسْمَةٍ ، وَقَالَتْ فِي حَنَانٍ :

- سَيَنْصُرُكَ اللَّهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ وَلَنْ
يُتْرَكَ اللَّهُ نُورَهُ ، بَلْ سَيُتِمُّهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ !

فَأَحَسَّ الرَّسُولُ بِمَا بَدَأَ عَلَيْهَا مِنَ الْفُتُورِ ، وَمَدَّ يَدَهُ وَجَسَّ
كَفَّهَا ، فَشَعَرَ بِمَا دَبَّ فِي جِسْمِهَا مِنَ الْحَرَارَةِ ، فَقَالَ فِي اهْتِمَامٍ :

- أَمْرِيضَةٌ يَا خَدِيدَجُةُ ؟ !

قَالَتْ وَهِيَ تُغَالِبُ الْمَرَضَ :

- بَلْ حَرَارَةٌ خَفِيفَةٌ لَا تَلَبِّثُ أَنْ تَزُولَ !

فَمَدَّ رَسُولُ اللَّهِ يَدَهُ وَأَعَانَهَا عَلَى النُّهُوضِ ، وَأَسْنَدَهَا حَتَّى

بَلَغَ بِهَا الْفِرَاشَ فَرَقَدَتْ ، وَجَلَسَ بِجَانِبِهَا يَمْسَحُ بِيَدِهِ عَلَى
صَدْرِهَا ، وَيَضَعُ الْمَاءَ الْبَارِدَ عَلَى رَأْسِهَا ، وَيَسْأَلُ اللَّهَ لَهَا الشِّفَاءَ ،
وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَتَشْكُرُ لَهُ عِنَايَتَهُ ، وَتَدْعُوهُ لِيَأْخُذَ قِسْطًا مِنْ
الرَّاحَةِ ، فَيَقُولُ فِي حَنَانٍ :

— وَكَيْفَ أَوْفَيْكَ حَقَّكَ يَا خَدِيجَةُ ؟ !

كُنْتُ فَقِيرًا فَأَغْنَانِي بِفَضْلِكَ اللَّهُ ! وَكُنْتُ مُهْدَدًا فَوَجَدْتُ
فِي بَيْتِكَ النُّصْرَ وَالْحِمَايَةَ ، كُنْتُ الْأُمَّ وَالْأُخْتَ وَالزَّوْجَةَ !
فَإِذَا اشْتَدَّ بِهَا الْآلَمُ ، اغْرُورَقَتْ عَيْنَاهُ بِالْدُمُوعِ ، وَنَظَرَ
إِلَيْهَا وَقَالَ فِي حُزْنٍ :

— بِرَغْمِي ^(١) يَا خَدِيجَةُ مَا بَلَكَ ! وَعَظَفُ اللَّهُ كَبِيرُ رَحْمَتِهِ
وَاسِعَةً ! فَإِذَا رَأَتْ مَا بِهِ مِنَ الْحُزْنِ ، قَالَتْ فِي صَوْتٍ رَقِيقٍ :
— سَيَنْصُرَكَ اللَّهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ ، وَلَنْ
يَتْرُكَ اللَّهُ نُورَهُ ، بَلْ سَيُثِمُّهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ !
وَتَصَمَّمَتْ قَلِيلًا ، ثُمَّ تَقُولُ بِاسْمَةٍ :

(١) برغمي : على غير ارادتي .

— كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ أَرَى الشَّمْسَ الْكَبِيرَةَ ، وَهِيَ تُبَدُّ (١)
ظِلَامَ الدُّنْيَا وَتَهْزِمُ مَا فِي مَكَّةَ وَمَا وَرَاءَهَا مِنْ ضَلَالٍ !
فَيُسْرِعُ الرَّسُولُ بِاسْمَا :

— سَتَرَيْنَهَا يَا خَدِيجَةُ ! سَتَزُولُ هَذِهِ الشَّدَّةُ ، وَتَعُودُ إِلَيْكَ
الصَّحَّةُ وَتَنْهَضِينَ لِتُتِمِّي رِسَالَاتِكَ .

وَيَصُمْتُ قَلِيلًا ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهَا ثُمَّ يَقُولُ فِي حُزْنٍ :

— سَيَشْفِيكَ اللَّهُ يَا خَدِيجَةُ وَلَنْ يَتْرُكَنِي وَحْدِي !

فَتَغَالِبُ مَا بَهَا وَتَقُولُ فِي رَفَقٍ :

— اللَّهُ مَعَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . إِنَّهُمْ يُدَبِّرُونَ وَسَيَرُدُّ اللَّهُ كَيْدَهُمْ
فِي نَحْوَرِهِمْ (٢) ، سَيُنْقِذُكَ مِنْ مَخَالِبِهِمْ ، وَلَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ
وَأَنْتَ فِي كَنْفِ (٣) اللَّهِ !

وَتَصُمْتُ قَلِيلًا ثُمَّ تَسْأَلُ بِاسْمَةِ :

— مَاذَا أَعَدَّ لِي رَبِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟! هَلْ تَقْبَلْنِي وَرَضِي

عَنِّي ؟ !

(١) تبدد : تفرق .

(٢) نحورهم : صدورهم .

(٣) كنف : جانب .

فَيَقْمِضُ النَّبِيُّ عَيْنَيْهِ ، لِيُخْفِيَ مَا تَرَفَّقَ فِيهِمَا مِنَ الدَّمْعِ ،
ثُمَّ يَقُولُ فِي بَسْمَةِ رَقِيقَةٍ :

— رَضِيََ اللَّهُ عَنْكَ يَا حَلِيدِجَةُ وَشَكَرَ لَكَ !

أَوَيْتَ ، وَنَاصَرْتِ وَبَدَلْتِ ، وَكُنْتِ لِرَسُولِ اللَّهِ ، وَمَنْ
أَعَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ كَانَ اللَّهُ لَهُ !

إِنَّ لَكَ يَا حَلِيدِجَةُ قُصُورًا فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ، بُنِيَتْ لَكَ مِنْ لَوْلُؤٍ ، وَخُفَّتْ بِالْوَرُودِ ، وَأُطْلَتْ عَلَى
يَانَعٍ (١) الشَّجَرِ وَجَارِي الْمَاءِ !

ثُمَّ يَضَعُ الْمَاءَ الْبَارِدَ عَلَى رَأْسِهَا ، وَيَقُولُ فِي عَطْفٍ وَإِشْفَاقٍ :
— سَتَزُولُ هَذِهِ الْحَرَارَةُ وَتَرْتَدُّ لَكَ الصُّحَّةُ ، وَتَنْهَضِينَ
لِإِثْمِي رَسُولَتِكَ ، وَاللَّهُ لَنْ يُشْمِتَ فِينَا أَعْدَاءَنَا ، وَلَنْ يَمَكِّنَهُمْ
مِنْ دِينِهِ .

فَتَفْتَحُ عَيْنَيْهَا الْوَاسِعَتَيْنِ ، وَتَسْأَلُ فِي إِشْفَاقٍ :

— وَكَيْفَ حَالُ قُرَيْشٍ الْيَوْمَ ؟ !

(١) يَانَع : مَثَر .

فَتَرَدُّ إِحْدَى بَنَاتِهَا الْوَاقِفَاتِ حَوْلَ سَرِيرِهَا وَتَقُولُ فِي حُزْنٍ :
— يَنْتَظِرُونَ يَا أُمَاهُ !

ثُمَّ تَذْفَعُ بِأَكِيَّةٍ ، فَتَسْمَعُ عَيْنَا الرَّسُولِ ، وَيُطْمِئِنُّهَا عَلَى
أُمِّهَا وَيَدْعُو خَدِيجَةَ لِتُحَدِّثَهُ .

لَكِنَّ الْمَرَضَ كَانَ يَشْتَدُّ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ ، فَيَشْتَدُّ قَلْبُ
الرَّسُولِ وَبَنَاتُهُ ، وَيَشْتَدُّ حُزْنُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ مَلَأُوا الدَّارَ ،
يَسْأَلُونَ عَنْ خَدِيجَةَ وَيَدْعُونَ لَهَا . .

وَيَشْتَدُّ حُزْنُ الْفَقِيرَاتِ ، اللَّاتِي يَعِشْنَ فِي بَرٍّ^(١) خَدِيجَةَ
وَدَعَمَتِيهَا . وَأَبُو لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ أَمَامَ بَيْتَيْهِمَا ، يَسْأَلَانِ مَنْ خَرَجَ
عَنْ حَالِهَا فَلَا يَجِدَانِ غَيْرَ الْأَلْفَاظِ الْقَاسِيَةِ جَوَابًا عَنْ هَذِهِ
الْأَسْئَلَةِ الَّتِي تَظْهَرُ فِيهَا الشَّمَاتَةُ وَالتَّلَهُّفُ عَلَى أَنْ تَنْطَوِيَ هَذِهِ
الصَّفْحَةُ النَّاصِعَةُ ، وَيُغْمَدَ^(٢) هَذَا السَّيْفُ الْقَوِيُّ .

كُلُّ مَكَّةَ كَانَتْ تَسْأَلُ عَنْ خَدِيجَةَ : الْمُحِبُّونَ وَالْمُبْغِضُونَ ،
وَكُلُّ نَادٍ كَانَ يَتَحَدَّثُ عَنْهَا بِمَا يَحُلُّو لَهُ ، يُنْصِفُهَا بَعْضُهُمْ

(١) بر : عطاء .

(٢) يغمد : يدخل في الغمد ، والغمد الجراب .

وَيَذْكُرُ مَحَاسِنَهَا ، وَيُؤَسِّسُهَا بَعْضُهُمْ وَيَقْلِبُ تِلْكَ الْمَحَاسِنَ ،
وَيُصَوِّرُهَا كَمَا شَاءَ لَهُ الْحَقُّ وَالْهَوَى (١) ، وَأَسْمَاعُهُمْ مُرَهَفَةٌ ،
لِتَسْمَعَ النَّبَأَ الَّذِي يُؤَكِّدُ الْكَثِيرُونَ أَنَّهُ سَيَذَاعُ وَيَنْتَشِرُ .

وَالرَّسُولُ وَبَنَاتُهُ يَنْظُرُونَ إِلَى خَدِيجَةَ ، وَهِيَ تَسِيرُ إِلَى
نِهَايَتِهَا ، لَا يَهْمُهَا إِلَّا الرَّسُولُ وَمَا سَيَنَالُهُ بَعْدَهَا مِنْ أَدَى
قُرَيْشٍ .

وَكَانَتْ لَيْلَةً طَوِيلَةً ، سَهَرَتْ فِيهَا دَارُ خَدِيجَةَ ، دَامِعَةُ
الْعُيُونِ ، مُضْطَرِبَّةَ الْقُلُوبِ ، تَتَوَسَّلُ وَتَدْعُو ، وَخَدِيجَةُ فِي
فِرَاشِهَا وَالرَّسُولُ بِجَانِبِهَا قَدْ أَسْلَمَ أَمْرُهُ إِلَى رَبِّهِ .

حَتَّى كَانَ وَقْتُ السَّحَرِ ، فَفَتَحَتْ خَدِيجَةُ عَيْنَيْهَا وَنَظَرَتْ
إِلَى بَنَاتِهَا وَإِلَى الرَّسُولِ ، ثُمَّ أَطْبَقَتْ عَيْنَيْهَا بِأَسِمَةٍ رَاضِيَةٍ .

وَسَكَنَ هَذَا الْجَسَدُ الَّذِي تَحَرَّكَ طَوِيلًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمِنْ
أَجْلِ دِينِهِ ، فَدَمَعَتْ عَيْنَا الرَّسُولِ ، وَبَكَتْ بَنَاتُهَا ، وَضَجَّتْ
الدَّارُ بِالْبُكَاءِ .

(١) الهوى : الميل المذموم .

وَفِي الصَّبَاحِ كَانَ نَعَشُ خَدِيجَةَ يَسِيرُ مِنْ بَيْتِهَا ، مَحْمُولًا
عَلَى أَكْتَافِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَقَابِرِ قُرَيْشٍ ، فِي الشَّامِلِ الشَّرْقِيِّ
مِنْ مَكَّةَ ، حَتَّى بَلَغُوا الْحَجُونَ^(١) ، وَوَصَلُوا إِلَى الْمَقْبَرَةِ الَّتِي
رَفَدَ فِيهَا الْقُرَشِيُّونَ مُنْذُ بَعِيدٍ ...

ثُمَّ وَضَعُوا نَعَشَهَا عَلَى حَامِلَةٍ قَبْرِهَا ، وَنَزَلَ الرَّسُولُ الْقَبْرَ ،
وَسَوَّى لَحْدَهَا بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ ، وَتَقَبَّلَ جُثْمَانَهَا الطَّاهِرَ ،
وَأَرْقَدَهُ فِي مَضْجَعِهِ ، وَأَلْقَى عَلَى وَجْهِهَا نَظْرَةَ الْوَدَاعِ .

ثُمَّ خَرَجَ نَاكِسَ^(٢) الرَّأْسِ دَائِعَ الْعَيْنَيْنِ ، يَتَقَبَّلُ عِزَاءَ
الْمُسْلِمِينَ فِي خَدِيجَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الْبَيْتِ يَرْتَقِبُ
مَا يَصْنَعُ الْمُشْرِكُونَ ، بَعْدَ مَا فَقَدَ هَذَا الرُّكْنَ الرَّكِينَ ...

(١) الحجون : جبل بمكة عنده مدائن أهلها .

(٢) ناكس : مائل .

٢٣ ذكرى دائمة

أَحْسَ النَّبِيُّ بَعْدَ خَدِيجَةَ بِفَرَاغٍ وَوَحْشَةٍ ، وَكُلَّمَا تَذَكَّرَ
جِهَادَهَا وَعَظْفَهَا وَبِرَّهَا ، اشْتَدَّ بِهِ الْحُزْنُ حَتَّى بَدَأَ أَثَرُهُ فِي
وَجْهِهِ وَجِسْمِهِ .

أَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَقَدْ هَزَّاهُمُ الْفَرَحُ لِمَوْتِهَا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ :

— لَمْ يَبْقَ أَمَامَكُمْ أَبُو طَالِبٍ وَلَا خَدِيجَةُ !

فَمَا كَادَ يَخْرُجُ النَّبِيُّ مِنْ بَيْتِهِ بَعْدَ الْعَزَاءِ حَتَّى اعْتَرَضَهُ
سُمَّهَاؤُهُمْ يُؤْذُونُهُ ثُمَّ أَلْقَوْا التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ ، فَعَادَ إِلَى الْبَيْتِ
حَزِينًا ، يَذْكُرُ خَدِيجَةَ وَابْتِسَامَتَهَا الْعَذْبَةَ حِينَ كَانَتْ تُقَابِلُهُ
فِي مِثْلِ هَذَا الظَّرْفِ ، فَتُزِيلُ هَمَّهُ وَتَصْرِفُ مَا بِهِ .

فَلَمَّا رَأَتْهُ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ ، أَسْرَعَتْ إِلَيْهِ وَغَسَلَتْ التُّرَابَ عَنْ
رَأْسِهِ بِأَكْيَافٍ ذَاكِرَةٍ أُمِّهَا وَمَا كَانَتْ تَصْنَعُهُ ، فَاشْتَدَّ النَّاتِرُ
بِالرُّسُولِ وَبَكَى وَدَعَا لِخَدِيجَةَ .

ثُمَّ أَخَذَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ ، وَيَتَعَرَّضُ لِأَذَى الْمُشْرِكِينَ ،
لَا يَنْسَى خَدِيجَةَ ، وَلَا يَطِيبُ حَدِيثُ حَتَّى يَذْكُرَ بِرَّهَا ،
وَحَنَانَهَا .

وَقَدْ رَأَى الْمُسْلِمُونَ مَا بَدَأَ عَلَيْهِ مِنْ آثَارِ الْحُزَنِ ، فَرَأَوْا
أَنْ يُخَفِّفُوا حُزْنَهُ ، وَفَكَّرُوا فِي أَنْ يُحَبِّبُوهُ فِي الزَّوْجِ ، فَرُبَّمَا
اسْتَطَاعَتْ امْرَأَةٌ أَنْ تُزِيلَ مَا بِهِ أَوْ بَعْضُ مَا بِهِ مِنْ حُزَنِ عَلَى
خَدِيجَةَ ، وَيَعْمَلُوا إِلَيْهِ مَنْ تُحَدِّثُهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ .

قَالَتْ :

— يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَدْ أَزْدَادَ مَا بَلَكَ مِنَ الْوَجْدِ^(١) عَلَى خَدِيجَةَ ،
حَتَّى بَدَأَ أَثَرُهُ فِي وَجْهِكَ وَجَسَدِكَ ، فَهَلْ مِنْ يَصْرِفُ هَذَا
الْوَجْدَ عَنْكَ ؟

قَالَ الرَّسُولُ وَقَدْ اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ :

— وَمَنْ يَصْرِفُ حُزْنِي عَلَى خَدِيجَةَ ؟ !

أَعَانَتْ رَسُولَ اللَّهِ ، وَعَاشَتْ لِلَّهِ ، وَمَاتَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
كَانَتْ رَبَّةَ الدَّارِ وَأُمَّ الْعِيَالِ .. !

(١) الوجد : الحزن .

قَالَتِ الْمَرْأَةُ بِاسْمَةِ :

— أَلَيْسَ فِي النِّسَاءِ مَنْ يُعَوِّضُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَوْ يُعَوِّضُ
بَعْضُهَا مِنْ حَنَانِهَا وَعَظْفِهَا ؟

لَعَلَّ فِي النِّسَاءِ مَنْ تُرْضِي اللَّهُ وَتُرْضَى رَسُولَ اللَّهِ !
وما زِلْتُ تُحَاوِرُهُ حَتَّى رَضِيَ بِالزَّوْجِ ، وَأَرْسَلَهَا خَاطِبَةً
لِبَعْضِ الْمُؤْمِنَاتِ ، ثُمَّ تَزَوَّجَ .

لَكِنَّ وَاحِدَةً مِنْ زَوْجَاتِهِ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُنْسِيَهُ خَدِيجَةَ ، وَلَمْ
تَنْزِعْ مِنْ قَلْبِهِ حُبَّهَا وَذِكْرَهَا .

كَانَ يُحِبُّ ابْنَتَهُ رُقَيْةَ حُبًّا شَدِيدًا ، لِأَنَّهَا كَثِيرَةُ الشَّبَرِ
بِأُمَّهَا خَدِيجَةَ ، يُذَكِّرُهَا بِهَا جَمَالُهَا ، وَإِشَارَاتُهَا ، وَالْفَاطُهَا ،
وَبَسْمَتُهَا الرَّقِيقَةُ ، فَيَدْعُوهَا وَيُطِيلُ النَّظَرَ إِلَيْهَا ، كَمَا يُطِيلُ
الاسْتِمَاعَ إِلَى حَدِيثِهَا .

فَلَمَّا مَاتَتْ رُقَيْةُ ، بَكَى ، وَأَحْسَّ حُزْنًا شَدِيدًا ، وَشَعَرَ
وَهُوَ يَدْفِنُهَا أَنَّهُ يَدْفِنُ ابْنَتَهُ ، وَيَدْفِنُ زَوْجَتَهُ خَدِيجَةَ الْوَفِيقَةَ .

وَكَانَ لَا يَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ ، حَتَّى يَذْكُرَ خَدِيجَةَ وَيُثْنِيَ
عَلَيْهَا ، وَيَدْعُو لَهَا ، حَتَّى أَحْسَتْ إِحْدَى زَوْجَاتِهِ بَعْضَ الْغَيْرَةِ

لهذه العنّاية بِخَدِيجَةَ ، فَلَمَّا ذَكَرَهَا أَمَامَهَا ذَاتَ يَوْمٍ ، قَالَتْ بِاسْمَةٍ :

— هلْ كَانَتْ إِلَّا عَجُوزًا أَبْدَلَكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا ؟ !

فَبَدَأَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ، وَصَاحَ قَائِلًا :

— لَا وَاللَّهِ .. ! مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا !

آمَنْتُ بِى إِذْ كَفَرَ النَّاسُ ، وَصَدَّقْتَنى إِذْ كَذَّبَنِى النَّاسُ ،
وَوَاسْتَنْبِى بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِى النَّاسُ ، وَرَزَقْتَنِى اللَّهُ مِنْهَا الْوَلَدَ دُونَ
غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ .. !

وَكَانَ كُلُّ نَصْرٍ يُدَكِّرُهُ بِخَدِيجَةَ الَّتِى كَانَتْ تَفْرَحُ لَهُ ،
وَكُلُّ هَزِيمَةٍ تُدَكِّرُهُ بِخَدِيجَةَ الَّتِى كَانَتْ تُوَاسِيهِ .

كَانَ إِذَا غَنِمَ تَدَكَّرَ خَدِيجَةَ ، وَوَدَّ لَوْ كَانَتْ حَاضِرَةً فَيُعْطِيَهَا
وَيَرُدُّ لَهَا بَعْضًا مِنْ جَمِيلِهَا .

وَكَانَ يَغْتَنِمُ كُلَّ فُرْصَةٍ لِيَعِيشَ مَعَ رُوحِهَا ، فَكَانَ
يُعْطِى مَوَالِيَهَا ، وَيَصِلُ صَدِيقَاتِهَا ، وَيَبْرُ حَبِيبَاتِهَا ، وَكَانَ
إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ يَقُولُ :

« أَرْسِلُوا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ ، فَإِنِّى أَحِبُّ حَبِيبَاتِهَا » .

— ٢٢٣ —

وَفِي لَهَا الرَّسُولُ كَمَا وَفَتْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَعَاشَ يَذْكُرُهَا ،
وَلَا يَنْسَاهَا ، حَتَّى لَحِقَ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى .

بَادَلَهَا وَفَاءً بِوَفَائِهِ .. وَجَعَلَهَا لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مَثَلًا
لِلْبِرِّ وَالْحَنَانِ ، وَالْإِخْلَاصِ ، وَحُبِّ اللَّهِ ، وَحُبِّ رَسُولِ اللَّهِ ..

* * *

الْأَسْئَلَةُ

(١)

« كل مكة كانت تسأل عن خديجة المحبونة ، والمبغضون .
وكل ناد كان يتحدث عنها بما يحلو له ، ينصفها بعضهم
ويذكر محاسنها » .

(أ) علام يدل سؤال كل مكة عن خديجة .

(ب) بم كان يذكرها المحبون ؟

(ج) لم كان يهتم بشأنها المبغضون .

(د) ما أثر وفاة السيدة خديجة في نفوس كل من المؤمنين

والمشركين وما مظهر ذلك .

* * *

فهرس

| الصفحة | الموضوع |
|--------|---------------------|
| ٣ | ١ — ربحانة الدار |
| ١٠ | ٢ — خبر سار |
| ١٨ | ٣ — عروس قریش |
| ٢٩ | ٤ — راهب مكة |
| ٣٦ | ٥ — المقادير |
| ٤٥ | ٦ — حزن جديد |
| ٥٣ | ٧ — أمل |
| ٦٤ | ٨ — عرض |
| ٧٣ | ٩ — لقاء |
| ٨١ | ١٠ — عزم |
| ٩٦ | ١١ — تفكير |
| ١٠٤ | ١٢ — اتفاق |
| ١١٥ | ١٣ — الزواج |
| ١٢٣ | ١٤ — أبو القاسم |
| ١٣٥ | ١٥ — إيمان |
| ١٥١ | ١٦ — حديث مكة |
| ١٦١ | ١٧ — أم المؤمنين |
| ١٦٨ | ١٨ — المعركة |
| ١٧٩ | ١٩ — امتداد المعركة |
| ١٩٢ | ٢٠ — معركة القوت |
| ٢٠٠ | ٢١ — السهم الأخير |
| ٢١١ | ٢٢ — فراق |
| ٢١٩ | ٢٣ — ذكرى دائمة |

رقم الايداع ١٩٨١/١٦٠٦

الكمية (٤٥٨٠٠٠)

مطابع الأهرام التجارية



الرقم المرحلي للكتاب

٥ / ٢

طبعة ١٩٨١

